اعترافات أرسين لوبين





موريس لوبلان

ترجمة إسراء يونس

الرواق للنشر والتوزيع

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

اعترافات أرسين لوبين

موريس لوبلان

ترجمة: إسراء يونس

إهداء المترجمة

إلى أبي وأمي وزوجي حفظهم الله.

إلى منبع طموحي وتوأم روحي؛ أختي أسماء.

وإلى كل من لم يدّخر جهدًا لمساعدتي؛ أصدقائي الغاليين وأفراد أسرتي.

وكل من شجّعني وأعانني على ترجمة هذا العمل.

أشكركم على ما أمددتموني به من دعم وثقة ودعاء صادق.

☆ ☆ ☆

مقدمة..

نحن أمام الكتاب السادس من سلسلة كتب أرسين لوبين، التي كتبها الكاتب الفرنسي موريس لوبلان ما بين عامي 1905 و1941، وحقّقت شهرة عالمية. بدأت السلسلة بكتابين يحويان مجموعة من قصص أرسين لوبين، هما «أرسين لوبين اللص الظريف» والذي صدر عام 1907، و«أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز» وصدر عام 1908. بعد تلك البداية كتب موريس لوبلان ثلاث روايات طويلة عن تلك الشخصية، ثم عاد بعد ذلك لكتابة مجموعة من القصص القصيرة، التي نُشرت مسلسلة في مجلة «Je sais tout» عام 1913، ثم جُمعت بعد ذلك تحت عنوان «اعترافات أرسين لوبين».

قدّم موريس لوبلان أولى القصص بتلك الكلمات البسيطة:

«في تلك الفترة الزمنية لم يكن لوبين - والذي كان شهيرًا بالفعل وقتذاك - قد خاض أكثر معاركه رعبًا بعد، كان هذا الوقت الذي يسبق المغامرات العظيمة مثل «المسلة الجوفاء» و«813»، لم يكن يُفكّر بعد في الاستيلاء على الكنز العريق لملوك فرنسا، أو سرقة أوروبا رغم أنف القيصر، كان مكتفيًا بلكمات الأيدي المتواضعة حيث المنافع السريعة والأكثر واقعية، يبذل جهدًا مضنيًا في مهام يومية متكررة، يقوم بأعمال الشرّ يومًا بعد يوم، وربما أعمال الخير أيضًا، بحكم طبيعته كهاوٍ لما يقوم به، حتى أصبح كـ «دون كيخوت» يستمتع ويثير الشفقة في آن واحد».

وهنا يُحدّد لوبلان أن المغامرات التي يحويها هذا الكتاب قد وقعت في الفترة الزمنية التي سبقت رواياته الثلاث: «المسلة الجوفاء» و«سدادة الكريستال» و«813»، فهي وإن كانت التالية لها من حيث النشر، إلا أنها في زمن عالم أرسين لوبين وقعت في الفترة التي تلت مواجهته الشهيرة مع شرلوك هولمز.

ولأننا ترجمنا لك من قبل كتاب «أرسين لوبين اللص الظريف»، و«أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز»، نضع الآن بين يديك «اعترافات أرسين لوبين»، لتكتمل القصص التي تقع في تلك الفترة الزمنية من حياة أرسين لوبين.

ألعاب الشمس

- لوبين، أريدك أن تحدثني عن نفسك قليلًا.

- نعم! بماذا تريدني أن أحدثك؟ حياتي كلها مباحة للعلن!

أجاب لوبين، بينما كان مستلقيًا على أريكة في غرفة مكتبي.

بادرته قائلًا:

- شيء لا يعلمه أحد، الناس تعلم، من خلال رسائلك المنشورة في الصحف، أنك شاركت في قضية ما، بينما كنت تكشف لغز قضية أخرى، ولكن ماهية دورك في تلك الأحداث، والوقائع الفعلية التفصيلية، وكشفك لغموض تلك القضايا، هذا ما نجهله.

- يا لها من ثرثرة بلا فائدة!

- بلا فائدة! هديتك التي تبلغ قيمتها خمسين ألف فرنك لزوجة نيكولاس دوجريفال بلا فائدة؟! والسر الغامض الذي حللت به لغز اللوحات الثلاث للبئر القديمة بلا فائدة؟!

قال لوبين:

- لقد كان لغزًا غريبًا حقًّا، سأقترح عليك عنوانًا على الأقل لو كنت تنوي أن تنشره قريبًا، من الممكن أن يكون (علامة الظل).

أضفت قائلًا:

- ماذا عن نجاحاتك العالمية؟ ومغامرات أرسين لوبين مع الجنس اللطيف؟ وسر أعمال الخير التي قمت بها؟ كل تلك القصص التي أشرت إليها كثيرًا: قضية خاتم الزواج، وقضية الموت المتربص بالقصر... إلى آخره؟ الكثير والكثير من الخبايا والأسرار؟ هيا يا لوبين، الأمر يتطلب القليل من الشجاعة فقط، لقد حان وقت الكشف عن هذه الاعترافات ونشرها.

في تلك الفترة الزمنية لم يكن لوبين -والذي كان شهيرًا بالفعل وقتذاك- قد خاض أكثر معاركه رعبًا بعد، هذا الوقت الذي يسبق المغامرات العظيمة، مثل: الإبرة الجوفاء، و813، لم يكن يفكر بعد في الاستيلاء على الكنز العريق لملوك فرنسا، أو سرقة أوربا رغم أنف القيصر، كان مكتفيًا بلكمات الأيدي المتواضعة ذات المنافع الأكثر واقعية، باذلًا قصارى جهده في مهام يومية مضنية، يقوم بأعمال الشر يومًا بعد يوم، وأعمال الخير أيضًا؛ بحكم طبيعته كونه هاويًا لما يقوم به؛ حتى أصبح كـ (دون كيخوت)؛ يستمتع ويثير الشفقة.

وبينما كان صامتًا كررت على مسامعه بهدوء:

- لوبين، من فضلك!

وتحت تأثير دهشتي، أردف قائلًا:

- عليك بإحضار قلم وورقة.

أطعته مسرعًا سعيدًا؛ لأنه أخيرًا استجاب لطلبي، وتوهمت بأنه سيملي عليَّ بعض ذكرياته مع تلك المغامرات، فأنا أستمتع بسرده لتلك المغامرات حقًّا؛ لما يضيفه من حس فكاهي وخيال مشوق، وأنا -للأسف! - أنجح في إفسادها كل مرة؛ بسبب الكثير من الاستفسارات المرهقة والتساؤلات المضجرة بالنسبة له.

سألني:

- هل أنت مستعد؟

- على تمام الاستعداد.

- سجِّلْ لديك: 19 - 21 - 18 - 20 - 15 - 21 - 20.

- ما هذا؟

- سجِّلْ، وسأقول لك معناها فيما بعد.

كان جالسًا على الأريكة، ينظر باتجاه النافذة المفتوحة، يعبث بسيجارة تبغ شرقية بين أصابعه.

استكمل قائلًا:

- أضِفْ: 9 - 12 - 6 - 1...

توقف قليلًا، ثم أكمل:

- 21.

صمت فترة أخرى، ثم أردف قائلًا:

- 20 – 6.

تساءلت بيني وبين نفسي: هل أصابه مس من الجنون؟ نظرت إليه متفحصًا، وشيئًا فشيئًا لاحظت أنه لم يعد لديه نفس العيون غير المبالية كما في الدقائق السابقة، لقد كانت عيناه متيقظتين، ويبدو أنهما يتابعان شيئًا يحدث في مكان ما، في الفضاء ربما، مشهدًا يأسره ويجذب انتباهه كليًّا، ومع ذلك، أخذ يملي عليَّ باقي الأرقام، تاركًا فترة صمت قصيرة بين كل رقم والذي يليه:

- 21 - 9 - 18 - 5.

وعندما نظرت من النافذة حيث كان موجهًا نظره، لم أرَ أكثر من سحابة زرقاء في السماء جهة اليمين، وواجهة المنزل المقابل، واجهة منزل قديم أبوابه ونوافذه مغلقة كالمعتاد، لم يكن هناك شيء مميز يثيرني، ولا يوجد أي

تفاصيل جديدة غير التي أعرفها جيدًا منذ سنوات.

- 12 - 5 - 4 - 1.

وفجأة! فهمت، أو بالأحرى ظننت أنني فهمت. فكيف يمكن لرجل مثل لوبين، عاقل ورزين للغاية، يرتدي قناع التهكم طوال الوقت أن يضيع وقته في مثل هذه السخافات؟ ومع ذلك لم يكن هناك شك بأنه كان يسجل الانعكاسات المتقطعة لأشعة الشمس التي تقع على الواجهة السوداء للمنزل القديم في الطابق الثاني.

- 7 – 14. قال لوبين مستكملًا.

اختفى الانعكاس لثوانٍ قليلة، ثم عاد مرة أخرى، أخذ يخبو ويظهر بالتوالي على فترات منتظمة فوق واجهة المنزل، ثم اختفى لمدة دقيقة كاملة، وعندما عاد مرة أخرى صحت فجأة غريزيًّا:

- 5.

- ها قد فهمت أخيرًا، لست سيئًا للغاية. علَّق أرسين ساخرًا.

هَمَّ ناهضًا في اتجاه النافذة، ثم انحنى ينظر بالخارج، لقد كان يتابع خط سير شعاع الشمس المنعكس من الاتجاه الآخر، ثم عاد ليستلقي فوق الأريكة مرة أخرى قائلًا:

- والآن قد حان دورك.

أطعته مسرعًا وأنا أنظر بالخارج؛ فضولًا مني لمعرفة إلى إين يريد هذا الشيطان الكامن بعقل هذا الرجل أن يصل؟ كما ينبغي عليَّ الاعتراف بأن هذا الحدث كان غريبًا إلى حد ما، تتابُع ظهور هذه الومضات من أشعة الشمس فوق الواجهة بشكل منتظم كإشارات المنارة، من الواضح أن هذه الإشارات تنعكس من الجانب الآخر للمنزل؛ حيث كنا نقف، وبما أن الشمس تدخل البيوت بشكل عشوائي؛ فبدا الأمر وكأن شخصًا ما يفتح ويقفل نافذة زجاجية بالتناوب، أو يستمتع بعكس أشعة الشمس بمساعدة مرآة جيب صغيرة.

وبعد لحظات أصبحت مضجرًا من هذه المهمة الغبية التي فُرِض عليَّ القيام بها؛ فقلت بنفاد صبر:

- لعله طفل صغير يتسلى.

- هيا، تابِع التدوين، لا تتوقف.

تابعت تدوين الأرقام، بينما ظلت أشعة الشمس تتراقص أمامي بخفة كمعادلة رياضية دقيقة.

قال لوبين بعد فترة صمت طويلة:

- وماذا بعد؟

- يبدو لي أن كل شيء انتهى، لقد مرت عدة دقائق دون أن يظهر شيء.

انتظرنا فترة قصيرة، وعندما لم يعد هناك أي ضوء في الجوار، قلت مازحًا:

- أعتقد أننا أضعنا وقتنا هباءً، مجرد مجموعة من الأرقام مكتوبة على الورق، غنيمة ضعيفة للأسف.

ودون أن يتحرك من مكانه، رد لوبين قائلًا بهدوء:

- من فضلك يا عزيزي، استبدِلْ كل رقم من هذه الأرقام بالحرف الذي يتوافق معه من الحروف الأبجدية؛ عن طريق العد الصحيح فـ(أ) تكون (1)، و(ب) تكون (2) ... إلى آخره.

- يا له من أمر سخيف!

- نعم، أعلم، سخيف للغاية، ولكننا نقوم بالكثير من السخافات طوال الوقت في هذه الحياة، فلتضِفْ أمرًا آخر من أجلي إذا تكرمت.

خضعت لتنفيذ هذا الطلب السخيف؛ فكتبت الحروف الأولى:

- (على كل حال).

توقفت مندهشًا:

- كلمة؟! إنها كلمة صحيحة بالفعل!

- تابِعْ من فضلك.

أكملت العد والكتابة؛ فتجمعت الحروف مكونة كلمات جديدة، كنت أفصلها كلما زادت؛ حتى اصطفت جملة كاملة أمام عيني.

سألني لوبين بعد لحظة:

- هل انتهيت؟

- نعم، ولكن يبدو لي أن هناك أخطاء إملائية.

- لا تقلق بشأن ذلك، هيا اقرأ ببطء.

بدأت في قراءة هذه الجملة غير المكتملة كما ظهرت لي تمامًا حينها:

- "على كل حال، علينا تجنُّب الخطر، والتنبؤ بالهجمات، وأن نواجه العدو بأقصى درجات الحذر".

توقفت أنظر للوبين، ثم بدأت في الضحك:

- ها قد اتضح الأمر، لقد بلغ الوضوح أقصى درجاته، أليس كذلك؟ هيا يا لوبين، اعترِفْ أن هذه السلسة من النصائح المقدمة من طباخ يقف في شرفة مطبخ أحد البيوت ليتسلى لا تفيدك كثيرًا، إنها مجرد عبارة لا معنى لها على

الإطلاق.

نهض لوبين وما زال محتفظًا بصمته العميق، تناول الورقة من يدي، وأخذ ينظر إليها، تذكرت فيما بعد أن الصدفة أوقعت عيني في هذه اللحظة على ساعة الحائط، والتي كانت تشير إلى الخامسة وثماني عشرة دقيقة. ظل لوبين شاردًا ينظر في الورقة، بينما كنت أراقبه متأملًا وجهه الشاب، هذه الملامح المتغيرة التي تحير أكثر المراقبين مهارة، قدرته الهائلة على تغيير ملامحه حسب رغبته وحتى دون استخدام أدوات التجميل، تلك هي قوته الكامنة ومركز حمايته الخفي، فكل تغيير يقوم به يبدو كأنه الأخير، ثم يتبدل مرة أخرى، بين كل تلك المتغيرات تبقى علامة واحدة ثابتة لا تتغير أعرفها جيدًا: تجعيدتان صغيرتان متقاطعتان في وسط جبهته تظهران عندما يبذل جهدًا للتركيز في أمر ما، ولقد رأيتهما في تلك اللحظة، لقد ظهر فورًا هذا الصليب الصغير في وسط جبهته واضحًا.

وعند الخامسة والنصف أنزل الورقة من أمام عينيه، وتمتم:

- بسيطة للغاية.

- كيف؟ هل نجحت في إدراك الأمر في اثنتي عشرة دقيقة فقط؟!

تجاهل سؤالي، وأخذ يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا عدة مرات، ثم أشعل سيجارة وقال:

- أريد منك الاتصال بالبارون (ريبستين) على الهاتف، وإخباره بأني سأقابله في تمام العاشرة مساءً.

سألته مندهشًا:

- البارون (ريبستين) زوج البارونة الشهيرة؟

- نعم.

- هل أنت جاد؟

- جاد للغاية.

كنت مترددًا، ولكني لم أستطِع مجادلته، فتوجهت نحو الهاتف والتقطت الدليل الذي بجواره، وفي تلك اللحظة أوقفني لوبين بإشارة عصبية من يده، وقال بينما ظلت عيناه مثبتتين على الورقة:

- انتظِرْ، لا داعي لتحذيره الآن، هناك أمر في غاية الغرابة يشغلني؛ لماذا بحق الجحيم هذه الجملة غير مكتملة؟ لماذا لم... ثم توقف فجأة، وتناول عصاه وقبعته بسرعة قائلًا:

- هيا لنذهب، إن لم أكن مخطئًا فهذا أمر يتطلب التدخل الفوري، ولا أعتقد بأني مخطئًا أبدًا.

- هل تعلم شيئًا؟

- ليس الكثير حتى الآن.

- وبينما كنا نهبط الدرج تأبط ذراعي قائلًا:

- لا أعلم أكثر مما يعلمه الجميع عن طريق الصحف، البارون (ريبستين) رجل الأعمال الشهير والرياضي المعروف، صاحب الحصان الشهير (إتنا) الذي فاز في سباق (إبسوم) هذا العام والجائزة الكبري في سباق (لونج تشامب)، هذا البارون أصبح بين ليلة وضحاها ضحية زوجته سيدة المجتمع، المعروفة بشعرها الأشقر وملابسها الفاخرة ورفاهيتها، لقد هربت منذ ما يقرب من خمسة عشر يومًا حتى الآن، وبحوزتها مبلغ مالي قدره ثلاثة ملايين فرنك سرقتها من زوجها، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من الألماس واللؤلؤ، والتي أخذتها من الأميرة (بيري)؛ بهدف شرائهم فيما بعد، وخلال الأسبوعين الماضيين تم مطاردة البارونة من قِبَل الشرطة في فرنسا وأوربا، ولقد كان أمرًا سهلًا؛ حيث كانت البارونة تبيع في طريقها بعضًا من تلك المجوهرات، في كل مرة تعتقد الشرطة بأنهم تمكنوا منها، حتى أول أمس في بلجيكا عثر رجل الشرطة المخضرم (بيشو) في فندق كبير على سائحة تنطبق عليها نفس مواصفات البارونة، مع بعض الأدلة التي لا يمكن دحضها، ولكن بعد التحقيق الدقيق تم إثبات أنها ليست البارونة، وإنما هي ممثلة المسرح المشهورة (نيللي داربل)، أما البارونة فلا أثر لها إطلاقًا، من جانبه فإن البارون (ريبستين) عرض مكافأة قدرها عشرة آلاف فرنك لمَن يجد زوجته الهاربة، وعهِد بهم بالفعل إلى محاميه، كما أنه عرض إسطبل الخيول الخاص به وفندقَه في ضاحية (هوسمن) وقصر(روكانكور) للبيع؛ إرضاءً للأميرة (بيري).

أضفت مكملًا حديثه:

- نعم، والمبلغ المالي العائد من هذه المبيعات سيتم الإعلان عنه، وستحصل عليه الأميرة (بيري) غدًا، ولكن في الحقيقة لا أرى أي علاقة تربط هذه القضية التي لخصتها بشكل رائع وبين الجملة المبهمة في الورقة.

لم يهتم لوبين بالإجابة عن سؤالي، تابعنا سيرنا في الشارع الذي أسكن فيه، فمشينا حوالي مئة وخمسين أو مئتَي متر عندما نزل من فوق الرصيف، وبدأ بفحص مبنى قديم يسكنه العديد من المستأجرين، ثم قال:

- طبقًا لحساباتي؛ هذا هو المكان الذي تصدر منه الإشارات، بالتأكيد من هذه النافذة المفتوحة.

- الدور الثالث؟

- نعم.

اتجه نحو حارسة العقار، وسألها:

- أليس أحد المستأجرين هنا على علاقة بالبارون (ريبستين)؟

- نعم بالتأكيد -أجابت السيدة بحُسن نية- السيد (لافيرنو) السكرتير الخاص بالبارون ومدير أعماله، فأنا مَن يقوم بالخدمة لديه.

- هل يمكننا رؤيته؟

- أوه! إنه مريض للغاية، يا له من رجل مسكين!

- مريض؟

- نعم، منذ مدة طويلة، أسبوعين تقريبًا، عند مغادرة البارونة، عاد في نفس اليوم مصابًا بالحمى وبقي بمنزله.

- ولكنه تحسن الآن بالتأكيد؟

- لا أعلم.

- كيف لا تعلمين؟!

- لأن طبيبه منعني من دخول منزله، وأخذ مني المفتاح.

- مَن؟!

- الطبيب المعالج له، فهو يأتي لزيارته يوميًّا في المنزل، لقد غادر الشقة منذ عشرين دقيقة تقريبًا، إنه رجل عجوز ذو لحية رمادية ونظارات دائرية، يمشي مقوس الظهر.

اتجه لوبين نحو مدخل المنزل مسرعًا، فهتفت الحارسة:

- ولكن إلى أين تذهب يا سيدي؟

- سأصعد إليه، دليني على الطابق -رد لوبين الذي كان قد صعد بالفعل- أليس الثالث على اليسار؟

صاحت المرأة وهي تتبعه:

- ولكن هذا مخالف لما لديَّ من تعليمات، كما أنه ليس لديَّ مفتاح منذ أن أخذه الطبيب.

صعدنا الطوابق الثلاثة واحدًا وراء الآخر، أخرج لوبين من جيبه أداةً وضعها في قفل الباب، متجاهلًا اعتراضات المرأة، انفتح الباب على الفور تقريبًا، ودخلنا، كان هناك ضوء يتسرب من خلال باب نصف مفتوح في نهاية رواق مظلم، اندفع لوبين منطلقًا نحو الغرفة، وعند عتبة الباب أطلق صيحة فزع:

- يا إلهي! لقد تأخرت جدًّا!

أطلقت المرأة صرخة، ثم انهارت جاثية على ركبتيها، وكأنها فقدت وعيها، دلفت بدوري داخل الغرفة، ورأيت رجلًا ممددًا على الأرض نصف عارٍ، رجلاه

وذراعاه كلتاهما ملتويتان، وجهه هزيل شاحب للغاية، عيناه تحمل تعبير الرعب، وفمه متشنج بطريقة مخيفة، فحصه لوبين سريعًا، ثم قال:

- لقد قُتِل منذ قليل.

- صحت مندهشًا:

- ولكن كيف؟! لا أثر لدماء!

- ها هو الأثر -أجاب لوبين مشيرًا إلى بقعتين أو ثلاث بقع حمراء صغيرة على صدره من خلال القميص نصف المفتوح- قد يكون مهاجمه قد خنقه بيد، وباليد الأخرى أصابه في قلبه؛ فالجرح ليس غائرًا، كأنه مطعون بأداة دقيقة، مثل إبرة طويلة؛ لأن الثقب الذي أحدثته صغير للغاية.

وعند ملاحظة ما حولنا لم يكن هناك شيء يسترعي الانتباه، سوى مرآة جيب صغيرة، المرآة التي كان يستخدمها السيد لافيرنو في عكس أشعة الشمس على المبنى الآخر، وفجأة! انتبهنا إلى صياح الحارسة تستغيث، انقض لوبين عليها بغتةً، ودفعها جانبًا بعنف مكممًا فمها بيده:

- صه، سوف تصيحي وتستنجدي لاحقًا، ولكن الآن استمعي إليَّ جيدًا، وأجيبيني؛ فهذا أمر بالغ الأهمية، كان للسيد لافيرنو صديق في هذا الشارع على نفس الجانب، صديق مقرب، أليس كذلك؟

- نعم.

- صديق يقابله كل ليلة في المقهى، ويتبادل معه الصحف؟

- نعم.

- ما اسمه؟

- السيد دولاتر.

- عنوانه؟

- رقم (92) في نفس الشارع.

- سؤال أخير: هذا الطبيب العجوز ذو اللحية الرمادية والنظارات الذي أخبرتِني عنه، أكان طبيبه الخاص منذ فترة طويلة؟

- لا، لم أكن أعرفه من قبل، لقد رأيته أول مرة في نفس الليلة التي مرض فيها السيد لافيرنو.

و دون إضافة كلمة أخرى اصطحبني لوبين، وهبطنا إلى الطابق السفلي، وبينما كنا في الطريق استدار يمينًا، فمررنا من أمام منزلي، وبعد أربعة منازل أخرى توقف أمام رقم (92)، كان مبنًى صغيرًا، يشغل الدور الأرضي منه تاجر نبيذ، والذي كان يدخن بالقرب من عتبة بابه أمام مدخل البناية، سأله لوبين

عما إذا كان السيد دولاتر في المنزل أم لا، أجاب الرجل بأن السيد دولاتر رحل منذ نصف ساعة تقريبًا، وأنه كان مضطربًا قليلًا؛ فاستقل سيارة أجرة على غير عادته.

- ولا تعلم...

أطرق لوبين صامتًا؛ فرد الرجل:

- أين ذهب؟ عليك بسؤالي مباشرةً، لا تتردد؛ إنه ليس سرًّا، لقد قال العنوان بصوت واضح للغاية للسائق... (مركز الشرطة).

كان لوبين على وشك إيقاف سيارة أجرة عندما تراجع، وسمعته يهمس لنفسه متذمرًا:

- ما الفائدة؟ فقد سبقنا بوقت طويل. وسأل الرجل مرة أخرى إذا لم يأتِ أحد بعد رحيل السيد دولاتر؟

- نعم، لقد جاء رجل عجوز بلحية رمادية ونظارات، صعد إلى طابق السيد دولاتر، قرع جرس الباب، وانتظر فترة، ثم هبط وغادر.

قال لوبين وهو ينحني للرجل مودعًا:

- شكرًا لك يا سيدي.

بدأ يمشي ببطء بجواري دون أن يتحدث، وبدا عليه القلق والتفكير العميق، لم يكن هناك شك بأن المشكلة معقدة للغاية، لم يعد بإمكانه الرؤية بوضوح وسط تلك العوائق التي تظهر في طريقه من كل اتجاه، وقد أقر هو نفسه بذلك قائلًا:

- مثل تلك القضايا تتطلب قدرًا كبيرًا من الحدس أكثر من التتبع والمطاردة وخاصةً تلك المرة؛ فالقضية تستحق العناء.

عندما وصلنا إلى الجادات الباريسية، دخل لوبين إلى إحدى المكتبات العامة، وأخذ يطالع صحف الأسبوعين المنصرمين لفترة طويلة، وكان يتمتم لنفسه بين الحين والآخر ببعض الكلمات:

- نعم، إنها مجرد فرضية، ولكنها تفسر أشياء كثيرة، كما أنها ليست بعيدة عن الحقيقة.

وعندما حل الليل، تناولنا عشاءنا في مطعم صغير؛ حيث بدأ وجه لوبين يتغير شيئًا فشيئًا بعد أن كان متجهمًا شاردًا، أصبح ينبض بالحياة مرة أخرى، وأخذت عيناه تلمعان في تحدٍّ واضح، شعرت كأنه بدأ يسترد روح المرح ثانيةً، اصطحبني إلى ضاحية هوسمن؛ حيث يعيش البارون (ريبستين)، هذا هو لوبين الذي أعرفه جيدًا، لقد عقد العزم على التدخل الفوري وخوض المعركة، وقبل المضي إلى شارع كورسل تباطأت خطواتنا، فعلى اليسار بين هذا الشارع وشارع سانت أورنيه يقع المنزل المنشود، وهو عبارة عن مبنًى مكون من ثلاثة طوابق كان بإمكاننا رؤية واجهته المزينة بالأعمدة والتماثيل، قال

لوبين فجأة:

- توقَّفْ.

- ماذا هناك؟

- هناك دليل آخر يؤكد صدق تخميني.

- أين هذا الدليل؟ لا أرى شيئًا.

- أنا أراه، وهذا يكفي.

رفع ياقة معطفه، وشد حافة قبعته الناعمة فوق وجهه قائلًا:

- ستكون مقابلة عصيبة، اذهب واخلد للنوم يا صديقي العزيز، غدًا سوف أخبرك بتفاصيل مغامرتي إن لم تكلفني حياتي.

- ماذا؟

- نعم، فأنا مُعرَّض لخطر حقيقي هنا، اعتقالي احتمال لا يمكن تجاهله أو ما هو أسوأ، نظر إلى عيني بحدة، وقال: الموت المحتم.

ثم أمسكني بقوة من كتفي، وقال:

- إني أغامر باحتمال ثالث، وهو الفوز بمليونين، وإن استطعت ربح هذا الرهان، سترى ما أنا قادر على عمله بعد ذلك، والآن طابت ليلتك، ربما لن تراني مرة أخرى.

مضى مبتعدًا، ثم استدار فجأة يقول بلهجة ساخرة:

- ازرعوا صفصافة فوق قبري؛ فأنا أعشق أوراقها الحزينة.

ابتعدت فورًا مستجيبًا لطلبه، وسأكمل القصة بناءً على روايته، فقد كان لطيفًا بما يكفي ليخبرني بتفاصيل ما حدث في اليوم التالي.

بعد مرور ثلاث دقائق من ذهابي، كان لوبين يقرع جرس المنزل الذي يقطنه البارون.

- هل السيد البارون بالمنزل؟

- نعم -أجاب الخادم متفحصًا هذا الرجل الغريب بدهشة- ولكن سيدي البارون لا يستقبل أحدًا في هذا الوقت.

- هل البارون على علم باغتيال السيد (لافيرنو) مدير أعماله؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، أخبِرْه من فضلك أني قادم بشأن هذا الحادث، وليس هناك وقت لنضيعه.

صدر صوت من الداخل يقول:

- دع هذا السيد يدخل يا أنطوان.

وبناءً على هذا الأمر الذي صدر بشكل قاطع، قاد الخادم لوبين إلى الطابق الأول، فُتِح باب وعلى عتبته كان يقف الرجل الذي تعرَّف إليه لوبين على الفور؛ من خلال صورته في الجرائد، البارون (ريبستين) زوج البارونة الشهيرة وصاحب (إتنا) أشهر حصان في هذا العام، كان رجلًا طويل القامة عريض المنكبين، وجهه حليق بالكامل، يحمل تعبيرًا لطيفًا ينم عن الألفة، وابتسامة ودودة فوق شفتيه، ولكن تلك الابتسامة لا تخفي حزن العينين، كان يرتدي ملابس ذات ذوق رفيع، وسترة مخملية بنية اللون، وفوق رابطة عنقه تبرز لؤلؤة ثمينة أثارت انتباه لوبين؛ لما تُمثِّله من ثروة ضخمة، أدخل البارون لوبين إلى غرفة مكتبه وهي غرفة ضخمة بها ثلاث نوافذ، مكونة من رفوف للكتب وخزانة زجاجية خضراء، ومكتب أمريكي فخم بجوار خزنة حديدية ضخمة، سأل البارون في لهفة:

- هل تعلم شيئًا؟

- نعم يا سيدي البارون.

- هل صحيح الأمر يتعلق بقضية قتل السيد (لافيرنو)؟

- نعم، وكذلك بالنسبة للبارونة.

- تكلَّمْ فورًا من فضلك.

قدَّم كرسيًّا إلى لوبين الذي جلس بهدوء، ثم قال:

- سيدي البارون، أعلم أن الظروف قاسية للغاية، ولذلك سأحاول أن أختصر الأمر.

- بالتأكيد.

- سأدخل مباشرةً في الموضوع دون تمهيد، لقد كان السيد (لافيرنو) محتجزًا بمنزله لمدة أسبوعين بأمر من طبيبه؛ كنوع من العزلة لتمام الشفاء، ولكن... كيف عليَّ قول ذلك؟ بعد ظهر اليوم أثناء فترة احتجازه، كان يحاول أن يرسل إشارات عن طريق انعكاسات ضوء الشمس من خلال نافذته، وقد دونتها فور رؤيتها، لقد ساعدتني هذه الإشارات على المضي قدمًا في هذا الدرب، ولكنه بُوغِت وقُتِل فجأة في أثناء هذا التواصل.

- لكن مَن الذي قام بذلك؟

- طبيبه.

- هل تعلم اسم هذا الطبيب؟

- لا أعلم، ولكن أحد أصدقاء السيد لافيرنو، وهو السيد دولاتر، والذي كان دائم

التواصل معه، لا بد أنه يعلم اسمه، وبالتأكيد يعرف كل ما حدث؛ لأنه ذهب فورًا بواسطة سيارة أجرة إلى مركز الشرطة.

- وما نتيجة هذه الخطوة؟

- النتيجة يا سيدي البارون، أن منزلك الآن محاط باثني عشر شرطيًّا يسيرون تحت نوافذك، وبمجرد شروق الشمس سوف يدخلون بأمر القانون ويلقون القبض على المجرم.

- إذن قاتل لافيرنو مختبئ في منزلي؟ أيكون أحد الخدم؟ ولكن كيف وأنت تؤكد أنه الطبيب؟

- أود أن أوضح لك أمرًا ما سيدي البارون، أنه عندما ذهب السيد دولاتر إلى مركز الشرطة لم يكن يعلم أن صديقه السيد لافيرنو سيتم اغتياله، فهو كان يهدف إلى شيء آخر.

- وما هذا الشيء؟

- اختفاء البارونة، والتي عرف سرها من خلال التواصل مع لافيرنو.

- ماذا؟ أخيرًا! لقد وجدوا البارونة! أين هي؟ وماذا عن أموالي التي سرقتها؟

كان البارون (ريبستين) يتحدث بانفعال حقيقي، ونهض صائحًا في لوبين:

- أجِبني من فضلك، لا يمكنك الصمت الآن.

استأنف لوبين حديثه بتردد وبطء:

- لقد أصبح التفسير صعبًا حقًّا، خاصةً وأننا نتحدث طبقًا لوجهات نظر معاكسة تمامًا.

- لا أفهم.

- لا بد وأنك تفهم سيدي البارون، فكما علمنا من الصحف أن البارونة كانت تشاركك كل أسرارك، وأنها لم تتمكن فقط من فتح هذه الخزنة البسيطة، بل وأيضًا الحصول على رصيدك في بنك (كريديت ليونيه)؛ حيث تحتفظ بكل ثروتك وأشيائك الثمينة.

- نعم، هذا صحيح.

- حسنًا، فمنذ خمسة عشر يومًا في المساء، بينما كنت أنت في اجتماع عمل مهم، خرجت البارونة معها حقيبة سفر، وداخلها كل أموالك، وأيضًا مجموعة مجوهرات الأميرة بيري دون علمك، أليس كذلك؟

- نعم.

- ولم يرَها أحد منذ ذلك الحين أبدًا؟

- بلى.

- حسنًا، فهناك سبب وجيه لعدم رؤيتها مرة أخرى.

- ما هو؟

- هو أن البارونة (ريبستين) قُتِلت.

- قُتِلت! البارونة! هل جُنِنت؟

- قُتِلت بالفعل، وفي ذلك المساء تحديدًا الذي تمت فيه السرقة.

- بالفعل أنت مجنون، كيف يمكن قتل البارونة والشرطة تقتفي أثرها خطوة بخطوة.

- الشرطة تتبع أثر امرأة أخرى.

- أي امرأة؟

- شريكة القاتل.

- والقاتل؟

- هو نفس الشخص الذي علم أن لافيرنو يعلم الحقيقة كاملة منذ خمسة عشر يومًا؛ احتجزه في منزله، وأجبره على التزام الصمت، مهددًا إياه حد الرعب، الشخص نفسه الذي كشف أمر لافيرونو وهو يتواصل مع صديقه بطريقة ألعاب الشمس هذه؛ فأهداه ضربة خنجر حادة في قلبه.

- إنه الطبيب إذن؟

- نعم.

- لكن مَن هذا الشيطان بحق الجحيم؟ يظهر ويختفي في سرية تامة، يقتل في الخفاء ولا يشعر به أحد.

- ألا يمكنك التخمين؟

- لا.

- تريد أن تعرف؟

- بالتأكيد، هيا تكلَّمْ، مَن وأين هو؟

- في هذا المنزل.

- كيف هذا؟

- الشخص الذي تبحث عنه الشرطة، القاتل، هنا بالفعل.

- هل أعرفه؟

- نعم.

- هيا أخبِرني باسمه وتوقفْ عن اللف والدوران.

- أنت!

- أنا؟!

لم يكن قد مضى أكثر من عشر دقائق على دخول لوبين منزل البارون، حتى وجه إليه هذا الاتهام المباشر بكل ثقة وبمبررات لا يمكن دحضها. واصل لوبين حديثه:

- إنه أنت نفسك مرتديًا لحية مستعارة، وزوجًا من النظارات، محاولًا أن تحني ظهرك لتبدو أكبر سنًّا، على كل حال هو أنت أيها البارون ريبستين، إنه أنت بالتأكيد، وذلك لسبب بسيط للغاية لم يخطر ببال أحد من قبل، فإذا لم تكن أنت مَن خطط لكل هذه المؤامرة فإن القضية بأكملها لا يمكن تفسيرها، أنت الوحيد المستفيد بشكل واضح، تقتل البارونة؛ للتخلص منها، وتنهب الملايين بالمشاركة مع امرأة أخرى، ثم تقتل مدير أعمالك لافيرنو؛ للتخلص من الشاهد الوحيد الذي قد يعرضك للخطر، أعتقد أن كل شيء تم إيضاحه الآن.

منذ بداية الحديث كان البارون يقف في مواجهة لوبين مائلًا ناحيته محدقًا في عينيه بإصرار، ويتابع كلامه في شغف واضح، ولكن عندما تدارك الأمر استقام قليلًا، وأخذ ينظر إليه بدهشة؛ كأنه يتابع حديث رجل مجنون، عندما أنهى لوبين كلامه، تراجع البارون بضع خطوات إلى الخلف، بدا وكأنه يهم بقول بعض كلمات، ولكنه لم ينطقها أبدًا، اتجه ناحية المدخنة، رن جرس ما، بينما وقف لوبين ثابتًا منتظرًا، وفوق شفتيه شبح ابتسامة متجمدة، جاء الخادم فقال له سيده:

- يمكنك الخلود إلى النوم الآن يا أنطوان، سأرافق السيد بنفسي إلى الخارج.

- أأطفئ الأضواء يا سيدي؟

- لا، أبقِ ضوء الرواق مضاءً كما هو.

انسحب أنطوان على الفور مغلقًا الباب خلفه، اتجه البارون نحو مكتبه؛ حيث أخرج مسدسًا صغيرًا ووضعه في جيبه، ثم عاد يقف في مواجهة لوبين، قائلًا بمكر:

- أرجو المعذرة يا سيدي لقيامي بمثل هذا الإجراء الاحتياطي البسيط، ولكن يبدو أنه قد أصابك مس من الجنون فجأة، ولكن لا، لست مجنونًا، لقد أتيت إلى هنا لهدف ما لا يمكنني تخمينه، وقد وجهت اتهامًا مذهلًا ضدي؛ لدرجة أنك أثرت فضولي لمعرفة السبب وراء هذا الاتهام الشنيع.

بدا صوته متأثرًا بعض الشيء، وبدأت عيناه الحزينتان تلمعان بالدموع، أحس لوبين بقشعريرة فجأة، هل كان مخطئًا في اتخاذ هذه الفرضية التي كوَّنها

حدسه بناءً على بعض التفاصيل الصغيرة وربط الأحداث بعضها ببعض؟ هل كان هذا السيناريو المُحكَم الذي توصَّل إليه خطأً؟ ولكن في تلك اللحظة خصيصًا لفت انتباهه أحد التفاصيل الصغيرة، رأى طرف الدبوس المعلق برابطة عنق البارون من خلال فتحة سترته، واستنتج الطول غير المعتاد لمثل هذا الدبوس، كما كانت الساق الذهبية لهذا الدبوس حادة جدًّا ومدببة؛ كأنه خنجر صغير دقيق الصنع، سلاح خطير في يد مَن يحسن استخدامه، لم يشك لوبين لحظة أخرى بأن هذا الدبوس هو السلاح الذي اخترق قلب السيد لافيرنو المسكين.

تمتم لوبين بهدوء:

- يا لك من شخص بارع للغاية سيدي البارون!

أما البارون فقد ظل صامتًا منتظرًا تفسيرًا يعتقد أن من حقه معرفته، وقد أزعج رد فعله البارد هذا لوبين بعض الشيء؛ فاستكمل كلامه بشيء من التوتر:

- نعم، إنك شخص بارع للغاية، يبدو لي أن البارونة عندما قامت بأخذ أموالك كانت تطيع أوامرك، وأيضًا عندما اقترضت مجوهرات الأميرة بحجة شرائها فيما بعد كان هذا بأمر منك، فمن الواضح لي الآن أن مَن تمت رؤيتها تخرج من المنزل بحقيبة السفر لم تكن زوجتك، بل شريكتك أو بالأحرى صديقتك، وهي التي تلاحقها الشرطة بإرادتها في أوروبا برئاسة كبير المحققين جانيمار، تبدو لي خطة رائعة، بماذا تخاطر هذه السيدة وهي ليست البارونة المُطارَدة؟ كيف يمكن البحث عن أي امرأة أخرى وخاصةً بعد إعلانك عن مكافأة مالية ضخمة لمَن يجدها؟ أوه! مئة ألف فرنك مودعة لدى المحامي، يا لها من خدعة عبقرية! ضللت الشرطة، وأبعدت أعين أكثر الفضوليين فطنة، فمَن يضع هذا المبلغ الضخم لدى كاتب عدل من المؤكد أنه على حق، فتطارد الشرطة البارونة المزعومة، بينما تدبر أنت أمرك بكل هدوء، تبيع إسطبل السباق الخاص بك وبعضًا من ممتلكاتك، وتتهيأ للهرب، يا إلهي، إنها حقًّا خطة متقنة!

ظل البارون صامتًا يستمع ولم يرمش له جفن، وعندما أنهى لوبين حديثه اقترب منه قليلًا، وقال:

- مَن أنت؟

انفجر لوبين ضاحكًا:

- وما الفائدة التي ستعود عليك إن عرفت حقًّا؟ فلنفترض بأني رسول القدر السيئ، خرجت فجأة من الظلام لأسوقك إلى الهلاك والدمار...

قفز لوبين فجأة، وأمسك بالبارون من كتفه بقوة، وقال بصوت حاد:

- أو لإنقاذك! اسمعني جيدًا، الملايين الثلاثة الخاصة بالبارونة ومجوهرات الأميرة والأموال التي حصلت عليها اليوم من بيع إسطبلك وممتلكاتك كلها موجودة هنا في بيتك، ربما في تلك الخزنة، ولقد تهيأت للهرب بالفعل، هنا خلف هذه الستارة يمكنني رؤية جلد حقيبتك التي أعددتها مسبقًا، لقد

جهزت نفسك للفرار هذه الليلة متنكرًا جيدًا دون علم أحد، متخذًا كل الإجراءات الاحتياطية؛ لكي تنضم لعشيقتك التي قتلت زوجتك من أجلها: (نيللي داربل) بلا شك التي اشتبه بها جانيمار في بلجيكا، ولكن للأسف ظهرت عقبة في طريقك، اثنا عشر رجل شرطة يحاصرون منزلك الآن؛ نتيجة ذكاء لافيرنو، لقد قُضِي عليك، وليس بإمكان أحد تخليصك غيري، بمكالمة هاتفية واحدة في حوالي الثالثة أو الرابعة صباحًا، ستتمكن مجموعة من أصدقائي بتخليصك من رجال الشرطة باختطافهم أو التخلص منهم دون أي ضجة وستهرب بهدوء، ولكن بشرط واحد، أعتقد سيكون تافهًا مقابل هروبك؛ نتقاسم الملايين والمجوهرات؟ أهذا عرض مناسب لك؟

كان لوبين منحنيًا على البارون يحدجه بنظرات قاسية، رد البارون بهدوء:

- ها قد بدأت أفهم أنك تبتزني...

- ابتزاز أم مساومة، يمكنك تسميته كيفما شئت يا سيدي، ولكن ينبغي أن تخضع لطلبي، لا تعتقد بأني سوف أتراجع، لا تقل لنفسك إنه إنسان محترم سوف يتراجع؛ خوفًا من الشرطة، فإذا رفضت عرضه سيخاطر بوضع الأغلال في يده في أي لحظة، خطأ أيها البارون؛ فأنا بإمكاني الانسحاب وقتما شئت، الأمر كله متعلق بك وحدك، عليك الاختيار: نصف المال والحياة، أم الإعدام؟ ما الذي يناسبك أكثر؟

وبحركة مفاجئة حرر البارون نفسه من قبضة لوبين، وأمسك بالمسدس وأطلق النار، ولكن لوبين قد توقع هذا الهجوم، خاصةً وأن وجه البارون فقد إصراره فجأة، واهتزت ثقته بنفسه في أثناء كلام لوبين تدريجيًّا، طغى عليه تعبير شرس من الخوف والغضب الذي حاول كبته لمدة طويلة، أطلق النار مرتين؛ فانحنى لوبين جانبًا سريعًا، ثم انقض على ركبتَي البارون فأسقطه أرضًا، ولكن البارون استطاع النهوض مرة أخرى، وبدأ صراع شرس بين الرجلين، وفجأة أحس لوبين بألم في صدره:

- أيها الحقير، تحاول فعلها مرة أخرى مثلما فعلتها مع لافيرنو! إنه الدبوس الخنجر.

قاوم الألم بشدة، واستطاع التخلص من يد البارون التي اقتربت من صدره، وأحاط البارون من الخلف، أمسك برقبته بقوة منتصرًا أخيرًا؛ رغم كل شيء، ثم قال:

- أيها الغبي، إذا أسقطت لعبتك هذه سوف أفلتك من قبضتي، لديك وجه بريء وعضلات مفتولة، للحظة ظننت أنك رجل شريف وكدت أن أنخدع، هيا يا صديقي، أعطِني هذا الدبوس وضع ابتسامة لطيفة على وجهك، هيا، ما زلت متجهمًا، ربما ينبغي عليَّ إحكام قبضتي أكثر، أممكن أن تدير عينيك لي للحظة، يا إلهي! يا له من تفاهُم بيننا! لقد تأثرت فعلًا، أشعر بأني أشفق عليك أكثر الآن، كن حذرًا يا سيدي، أعتذر لك بشدة. وفجأة! سدد لوبين لكمة

في بطن البارون سقط على إثرها فاقد الوعي في الحال.

تمتم لوبين لنفسه:

- هذا ما تفتقر إليه بشدة يا عزيزي، المنطق، لقد عرضت عليك نصف ثروتك منذ قليل، أما الآن فلن تأخذ شيئًا على الإطلاق، تُرَى أين خبأ هذا الشيطان كنزه؟ الخزنة؟ يبدو أن الأمر شاق، من حسن الحظ لديَّ الليل بأكمله.

تأكد أولًا أن الحقيبة الجلدية المخبأة وراء الستارة لا تحتوي على المجوهرات، ثم بدأ يبحث في جيوب البارون، فأخرج سلسلة مفاتيح، وتوجه إلى الخزنة، وفي تلك اللحظة تناهى إلى سمعه ضجة في الجوار، أيكون الخدم؟ مستحيل! فإن حجرتهم في الطابق الثالث، بينما صدر هذا الصوت من أسفل، إنها الشرطة بالتأكيد بعد أن سمعوا صوت طلقات الرصاص، قدموا أمام الباب الخارجي وسيطرقون الباب الخارجي دون انتظار الفجر، يا إلهي، لقد وقعت في ورطة كبيرة! ها هم السادة قادمون، وقد كنت على وشك جني ثمار مجهوداتي الشاقة، حسنًا لوبين، عليك الهدوء قليلًا والتصرف بحكمة، ماذا يتطلب الأمر؟ فتح هذه الخزنة الحديدية خلال عشرين ثانية لا أكثر، وأنت لا تعرف حتى الرقم السري، يا إلهي، وهل فقدت عقلي مقابل القليل؟! لنرى، ما عدد الأرقام أو الحروف؟ أربعة.

أخذ يفكر، بينما يسترق السمع للضوضاء الخارجية، أوصد مفتاح الباب في دورتين متتاليتين، ثم عاد إلى الخزنة مرة أخرى وهو يتمتم:

- أربعة حروف أو أربعة أرقام، مَن يمكنه مساعدتي الآن بحق الجحيم سوى لافيرنو، فهو الوحيد القادر على ذلك، هذا المسكين الذي كابد العناء في آخر أيامه، وضحى بعمره وهو يحاول إرسال هذا التلغراف البصري لإنقاذه، وفجأة لمعت عيناه: يا إلهي، لكم أنا مغفل! ها قد وصلت، هيا لوبين، ما عليك سوى العد لعشرة؛ لتستطيع السيطرة على دقات قلبك السريعة، وإلا فلن تستطيع فعل شيء.

ركع أمام الخزنة، وأدار الأزرار الأربعة بحذر شديد، ثم فحص مجموعة المفاتيح، اختار واحدًا ثم آخر؛ لن يفلح الأمر، أخذ الثالث، وقال: «الثالثة ثابتة». وما إن أدخل المفتاح حتى سمع صوت صرير خافت؛ فصاح فرحًا:

- لقد انتصرت، افتح يا سمسم، لقد أصبحت الملايين الثلاثة ملكي الآن؛ بعد إذنك أيها البارون ريبستين، ودون ضغينة.

ولكن بحركة سريعة قفز لوبين إلى الخلف مصدومًا يلهث برعب، ساقاه ترتجفان ووجهه شاحب حد الموت، بقي ثواني متجمدًا؛ على الرغم من الضجة الآتية من أسفل والأجراس الكهربائية التي تدق بعنف، وقف هناك مذهولًا بعيون محدقة مثل الصقر، ينظر إلى أفظع مشهد يمكن تصوُّره؛ جسد امرأة نصف عارٍ منحنية على جذعها الأسفل، محشورة داخل الخزنة كأنها كتلة من اللحم المتعفن، شعرها الأشقر متدلٍّ، والدماء متجمدة حولها، تلعثم

صائحًا:

- البارونة! يا إلهي، الوحش القاتل!

أفاق من صدمته، وبصق على وجه القاتل المنبطح على ظهره فوق الأرض، وأخذ يركله بكعب حذائه:

- إليك هذا إليها البائس الوضيع! وغد! لن أتركك تفلت من المقصلة، فهي سلة القمامة لأمثالك.

صدر صوت في الطوابق العليا للخدم، يهبطون الدرج بسرعة مستجيبين لنداءات الشرطة، فكر لوبين أن الوقت قد حان للانسحاب، لم يضطرب كثيرًا، ففي أثناء حديثه مع البارون كان لديه الانطباع أن هذا البارون ذا الدم البارد لا بد وأنه يأمن طريقة خروجه، فلماذا إذن كان مستمرًّا بالنزال مع لوبين إذا لم يكن متأكدًا من قدرته على الهروب من الشرطة؟ ذهب إلى الغرفة المجاورة المطلة على الحديقة، وفي اللحظة التي دخل فيها الضباط إلى حجرة المكتب كان قد صعد على حافة الشرفة، وانزلق إلى أسفل عن طريق التسلق على الأنابيب، أخذ يمشي بهدوء بين الجدار والأشجار، حتى وجد بابًا صغيرًا استطاع فتحه بسهولة، ولم يتبقَّ سوى عبور الفناء، لحظات قليلة حتى وجد نفسه في شارع (سانت أونوريه)، فقد تأكد تمامًا أن الشرطة لم تضع في حسابها هذا المخرج السري أبدًا.

- إذن فما رأيك في البارون ريبستين؟

سألني لوبين بعد أن قص عليَّ تفاصيل تلك الليلة المأساوية، لم ينتظر ردي، فشرع مستكملًا:

- إنه شخص قذر حقًّا، كم علينا أحيانًا ألا ننخدع في المظاهر! أقسم لك بأنه كان يبدو كرجل شريف للغاية.

ولكني سألته:

- لكن الملايين؟ ومجوهرات الأميرة؟

- كانوا بالخزنة، أتذكر جيدًا بأني رأيتهم.

- وماذا بعد؟

- لا بد أنهم بحوزة الشرطة أو ما زالوا داخل الخزنة.

- مستحيل!

- هذه هي الحقيقة، دعني أدعي النزاهة، وأقول بأنني كنت خائفًا من اقتراب الشرطة، ولكن بصراحة شديدة لقد كانت الرائحة كريهة للغاية.

- ماذا؟

- أجل يا عزيزي، الرائحة التي انبعثت من الخزنة، وكأنني نبشت قبرًا قديمًا، لقد شعرت بالغثيان فعلًا، ولو كنت استدرت مرة أخرى لكنت فقدت وعيي حقًّا، هل هذا سبب سخيف؟ نعم، لم أربح من تلك المغامرة سوى الدبوس الخنجر، واللؤلؤة المثبتة على طرفه، والتي تساوي أكثر من ربع مليون فرنك، ولكن عليَّ أن أعترف بأنني مستاء ونادم، يا له من خطأ فادح!

- سؤال أخير: كلمة السر.

- ماذا بها؟

- كيف عرفتها؟

- لقد كانت سهلة للغاية، لدرجة أني تعجبت كيف لم أفكر بها مسبقًا.

- أرجو التوضيح رجاءً.

- أتتذكر الرسالة في التلغراف البصري الذي أرسله المسكين لافيرنو؟ لقد تم ذكرها داخله.

- كيف هذا؟

- نعم، ولكن ليس بِصورة مباشرة؛ إنها الأخطاء الإملائية التي اعتقدت بأنها غير مقصودة، هل يُعقَل أن مدير أعمال البارون قد يرتكب كل هذه الأخطاء الإملائية؟ فيكتب نهاية كلمة الهروب (إ)، وكلمة الهجوم بحرف (ت) واحد، وكلمة الأعداء بحرف) ن) واحد، وكلمة الحذر بحرف الـ(ا)، عند تجميع هذه الحروف الأربعة نجدها كلمة (إتنا)؛ اسم الحصان الشهير.

- وهل هذه الحروف كانت كافية؟

- نعم، كانت كافية بالتأكيد؛ فقد دلتني فور رؤية هذه الإشارات عندما حولتها إلى حروف على هذه القضية التي كانت حديث الصحف منذ أسبوعين، وبعد ذلك أهداني التخمين الصحيح لكلمة سر الخزنة، فعن طريقها عرف لافيرنو المحتوى المروع للخزنة، وكشف البارون القاتل دون ذكر اسمه، كما قادتني تلك الإشارات إلى افتراضية أن لافيرنو كان لديه صديق قريب إنجليزي الجنسية، في نفس الشارع يترددان معًا على نفس المقهى يستمتعان بفك رموز الكلمات المتقاطعة والألغاز في الصحف المصورة، لقد ابتكرت الصحف الإنجليزية هذه الطريقة في المراسلة لتسلية قرائها، ثم تبعتها بعد ذلك الصحف الفرنسية، أصبحت المراسلة بالإشارات الضوئية بواسطة أشعة الشمس هواية عدد كبير من قراء الصحف.

- أهكذا انتهت القضية بكل بساطة؟

- نعم، هذه القضية تثبت -وللمرة الثانية- أنه عند تتبُّع أحداث جريمة ما ولاكتشاف ألغازها؛ يوجد شيء أفضل كثيرًا من إضاعة الوقت في التحقيقات والمطاردة وكل هذا الهراء، وهو الحدس والذكاء، وأرسين لوبين لا ينقصه أيٌّ

منهما.

خاتم الزواج

احتضنت إيفون دوريني ابنها بشدة، وهي توصيه برفق أن يكون مطيعًا، قائلة:

- أنت تعلم جيدًا أن جدتك (الكونتيسة دوريني) لا تجيد التعامل مع الصغار كثيرًا، بمجرد وصولك إلى منزلها عليك أن تثبت أنك ولد صغير، ولكن عاقل ومطيع.

ثم توجهت إلى المربية، وقالت:

- فلورين، عليكِ إعادته بعد العشاء مباشرةً، هذا أهم شيء، هل ما زال السيد هنا؟

- أجل يا سيدتي، الكونت ما زال في مكتبه.

وما إن أصبحت بمفردها حتى اتجهت نحو النافذة لإلقاء نظرة على ابنها، لحظات قليلة حتى خرج من المنزل، والتفت ينظر إلى أمه من وراء النافذة، أرسلت إليه قبلات في الهواء كعادتها عندما يخرج من المنزل، شدت المربية على يد الطفل بعنف في حركة غير اعتيادية، لاحظتها إيفون مندهشة، وما إن وصل الطفل إلى منعطف الطريق، حتى رأت رجلًا يخرج من السيارة ويقترب من ابنها، تعرفت إليه على الفور؛ (برنارد) الخادم الأمين لزوجها، أمسك الطفل من يده وأصعده إلى السيارة، جلست المربية جانبه، ثم أمرت السائق بالمغادرة.

لم يستغرق هذا المشهد سوى عشر ثوانٍ، ومن بعده توجهت إيفون إلى حجرتها مستاءة، بدلت ملابسها وتوجهت نحو الباب، وجدت الباب مغلقًا ولا يوجد مفتاح في القفل، عادت بسرعة إلى غرفتها، ولكنها كانت مغلقة أيضًا، فتفاجأت بنفسها محبوسة في الردهة الخارجية لغرفتها، وفجأة! تراءت صورة زوجها أمام عينها، ذلك الوجه المكفهر القاسي الذي لم تعلُه الابتسامة أبدًا، تلك النظرة الشرسة عديمة الرحمة التي طالما تحملتها بكثير من الكراهية والضغينة.

- إنه هو، إنه هو، لا أحد غيره، لقد أخذ الولد.

أخذت تركل الباب بقدميها وتضربه بيدها بعنف، ثم قفزت نحو المدخنة وأخذت ترن الجرس بجنون، تردد صوت الجرس في المنزل بأكمله، فتصورت أنه قد تجمع الخدم كلهم، وربما أيضًا تجمع بعض المارة في الشارع؛ استجابةً لهذا الرنين المسعور، سمعت صوت القفل، ثم فُتِح الباب بقوة، وأطل الكونت على عتبة الغرفة، اعتلى وجهه تعبير مرعب ينم عن انزعاج شديد؛ لدرجة أن إيفون بدأت ترتجف، تقدم إلي الامام فلم تتبقَّ سوى خمس أو ست خطوات تفصله عنها، حاولت القيام بأي حركة، ولكنها لم تستطِع، حاولت التحدث، ولكن شفتيها كانتا ترتجفان، ولم يصدر منهما سوى همهمات غير مفهومة، أحست بالضعف، وأخذت ترتعش، ثم انهارت على الأرض جاثية على ركبتيها، وبدأت

في البكاء.

توجه الكونت نحوها ممسكًا رقبتها بعنف، قائلًا:

- اخرسي وتوقفي عن البكاء؛ هذا لصالحك.

وبما أنها لم تحاول الدفاع عن نفسها؛ أرخى قبضته حول رقبتها، وأخرج من جيبه أربطة قماشية بأطوال متفاوتة، وفي غضون دقائق تم تقييد معصميها، وربط ذراعيها خلف ظهرها، ثم ألقى بها فوق الأريكة.

أسدل الليل ستائره، وغشي الظلام الحجرة؛ فأضاء الكونت الأنوار، وتوجه إلى مكتب صغير؛ حيث كانت إيفون تكتب وتخزن رسائلها، لم يستطِع فتحه؛ فكسره بخطاف حديدي كان بحوزته، وأفرغ الأدراج كلها، أمسك بالأوراق التي أخرجها وجمعها في حزمة صغيرة، ثم وضعها في علبة كرتونية وهو ينظر إلى إيفون، قائلًا بنبرة ساخرة:

- أضعت وقتي، أليس كذلك؟ ليست سوى بعض الفواتير والخطابات التافهة، لا يوجد دليل ضدك بعد، على كل حال لا شيء في الدنيا سيمنعني من الاحتفاظ بابني، وأقسم بأني لن أتركه أبدًا.

استدار مغادرًا، ثم وقف بجانب خادمه برنارد على عتبة الباب، كانا يتحدثان بصوت منخفض، ولكن إيفون تمكنت من سماع كلام الخادم:

- لقد تلقيت الرد من عامل محل الذهب، وإنه تحت تصرفي الآن.

عقَّب الكونت على كلامه:

- تم تأجيل الأمر بأكمله إلى الغد في الظهيرة، لقد تلقيت مكالمة هاتفية من والدتي منذ قليل تبلغني بأنها لا تستطيع الحضور قبل ذلك.

سمعت إيفون بعد ذلك صوت غلق القفل وصوت خطى أقدامهم يهبطان الدرج إلى الطابق الأرضي؛ حيث يوجد مكتب زوجها.

بقيت جامدة لفترة طويلة عقلها ممتلئ بأفكار مرعبة تمر سريعًا أمام عينها؛ محدثةً لهيبًا حارقًا يمزق قلبها، تذكرت التعامل المهين للكونت دوريني وتصرفاته غير اللائقة، وتهديداته المستمرة بالطلاق، وبدأت تدرك شيئًا فشيئًا بأنها كانت ضحية مؤامرة كبيرة، فقد تذكرت أن الخدم قد غادروا بأمر من سيدهم حتى مساء الغد، وأن المربية -بالتواطؤ مع برنارد- أخذت ابنها ولن يعود ثانية، لن تراه مرة أخرى، فنطقت بحرقة وهي تبكي:

- ابني، ابني!

أثارها الألم، واحتقنت دماؤها، فحاولت فك قيودها بكل قوتها، ولدهشتها وجدت اليد اليمني ما زالت محتفظة ببعض الحرية، تشبثت بأمل ضعيف في التحرر، وبدأت العمل للخلاص من قيودها في صبر وبطء، لقد كانت الأربطة طويلة، وبالتالي استغرقت وقتًا لا بأس به حتى فكت العقدة التي تربط

معصميها، ثم شرعت في فك الأربطة حول صدرها وأعلى ذراعيها، ثم تلك التي حول كاحليها، كان الأمر شاقًّا للغاية، ولكنها كانت مسلوبة الفكر؛ فلم تفارق عينها صورة ابنها الباسمة، وعندما دقت الساعة الثامنة سقطت العقدة الأخيرة، ما إن أصبحت حرة حتى هرعت نحو النافذة، أدارت مقبضها وفتحتها على مصراعيها، وقد عزمت على طلب النجدة بأي شخص يمر أمامها، في تلك اللحظة كان هناك شرطي يسير على الرصيف، انحنت إلى الأمام لتصيح، وما إن أخرجت رأسها حتى لفحها هواء الليل البارد؛ فاقشعر بدنها وعادت إلى التفكير في الفضيحة والشرطة والتحقيقات وابنها، يا للهول! ماذا عليها أن تفعل لاستعادته؟ كيف يمكنها الهرب؟ فبمجرد صدور أقل صوت سيظهر الكونت، ومَن يدري؟ ربما بلحظة غضب يحدث ما لا يُحمَد عقباه، مجرد التفكير في هذا الخاطر أصابها بالرعب مرة أخرى، وأخذت ترتجف من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، اختلطت فكرة الموت في عقلها المسكين بصورة ابنها الغائب؛ فتلعثمت مختنقة بدموعها:

- المساعدة، المساعدة...

توقفت لحظة، ثم أعادت تكرار النداء مرة أخرى ببطء شديد وبصوت واهن:

- ساعدوني، أرجو المساعدة...

لقد أعادت إليها هذه الكلمات بعض الأمل مرة أخرى؛ ففكرة طلب المساعدة لن تبدو مستحيلة، ظلت لبضع دقائق منغمسة في تفكير عميق، يقطعه بكاؤها وتنهيدها، ثم بحركة شبه ميكانيكية مدت يدها المرتجفة نحو مكتبة صغيرة فوق المكتب، وأمسكت بأربعة كتب تصفحتهم واحدًا تلو الآخر شاردة الذهن؛ كأنها تبحث عن شيء ما، ثم أعادتها إلى مكانها مرة أخرى، انتهت بإيجاد كارت شخصي بين صفحات الكتاب الخامس، وقعت عينها على هذا الاسم: (هوراس فليمونت)، وهذا العنوان المكتوب بقلم رصاص: (الشارع الملكي)، أعادها هذا الكارت إلى تلك الذكرى منذ سنوات في هذا المنزل، عندما قال لها هذا الرجل تلك الجملة الغريبة:

«إذا تعرضتِ لخطر ما في أحد الأيام، وكنتِ في حاجة ماسة إلى المساعدة؛ لا ترددي، وأرسلي لي هذا الكارت بالبريد، والذي سوف أضعه هنا في هذا الكتاب، وسوف آتي في أي وقت مهما كانت العواقب».

تذكرت نبرة صوته عند لفظ هذه الجملة، فقد تكوَّن لديها انطباع بقوة شخصيته وجرأته غير المحدودة، ودون تفكير وتحت ضغط قرار لا يمكنها مقاومته بغض النظر عن النتائج، أخذت إيفون مظروفًا من أحد أدراج المكتب وضعت داخله الكارت وختمته، ثم كتبت عليه سطرين فقط:

«هوراس فليمونت

الشارع الملكي».

اقتربت مرة أخرى من النافذة المفتوحة؛ فوجدت الشرطي ما زال يتجول بالخارج، ألقت بالمغلف في الهواء وأسلمته للصدفة، ربما يجده أحد ويضعه في صندوق البريد، ولكن في داخلها كانت متيقنة من استحالة حدوث ذلك الأمر، يا له من تفكير مجنون! والأكثر جنونًا أن تأمل بأن هذا الرجل الذي تطلب المساعدة منه سيتمكن من الوصول إليها؛ رغم تلك المعوقات!

ترنحت إيفون بعد ذلك متكئة على كرسي كبير، ثم جلست منهكة محملة بالوجع والآلام، مر الوقت بطيئًا، هذا الوقت الكئيب لإحدى أمسيات الشتاء قارصة البرودة عندما تقطع صوت مكابح السيارات وحدها صمت الشوارع، تدق أجراس الساعة بلا هوادة؛ فتفزع المرأة الشابة من الإغفاءة التي خدرتها بعض الوقت، أخذت تعد الدقائق في وهن، في أثناء ذلك تناهى إلى سمعها أصوات داخل المنزل في الطوابق المختلفة؛ فعلمت أن زوجها تناول العشاء وذهب إلى غرفته، ثم عاد إلى مكتبه مرة أخرى، ولكنها شعرت بأن كل تلك الأحداث ضبابية غير واضحة الملامح، وكأنها ولجت داخل حلم ما، كان خمولها شديدًا؛ لدرجة أنها لم تستطِع التحرك للاستلقاء على الأريكة؛ تحسبًا لحالة دخول أحد الغرفة فجأة، دقت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، ثم نصف ساعة أخرى، ثم الواحدة صباحًا، وإيفون خالية الذهن لا تفكر بشيء أبدًا، بدت مستسلمة للأحداث التي سوف تمضي بيأس، وليس بمقدورها فعل شيء لمنعها، كانت تفكر في ابنها، تتخيله بين أحضانها، تعانقه بذراعيها المحبة وتُقبِّله، وكأنهما ضحيتان ناجيتان من معاناة شديدة القسوة، ولكن أزعجها كابوس طرأ في ذهنها فجأة، وكأن شخصًا ما يحاول سحب ابنها من بين ذراعيها؛ فأخذت تبكي وتئن بحرقة، بينما كانت غافية بين الحلم واليقظة.

بعد سماع صوت حركة ما وقفت منتبهة بسرعة، كان صوت مفتاح يدور بالقفل، فظنت أن نحيبها أيقظ الكونت، أخذت تبحث عن سلاح حولها للدفاع عن نفسها، ولكن الباب قد فُتِح بسرعة؛ فوقفت مندهشة فاغرة فمها وكأنها تشاهد معجزة لا يمكن تفسيرها، تلعثمت قائلة بصوت مرتجف:

- أنت؟! أنت؟!

كان هناك رجل يسير نحوها مرتديًا معطف ماكفارلين ([1])، متأبطًا عصاه تحت ذراعه، شاب نحيف أنيق تعرَّفته على الفور، إنه هوراس فليمونت، كررت مرة أخرى:

- أأنت حقًّا؟!

- اعذريني سيدتي، لم تصلني رسالتك إلا في وقت متأخر.

أخذت تتمتم مصدومة، وكأنها لم تسمعه:

- أنت؟ هل من الممكن أن تكون أنت؟! لقد تمكنت...

- ألم أعدكِ بأني سأحضر بمجرد استدعائي لنجدتكِ؟

- نعم، لكن...

- حسنًا، ها أنا هنا الآن. قال ذلك مبتسمًا بلطف.

قام بفحص الأربطة التي استطاعت إيفون التخلص منها، ثم أومأ برأسه، واستمر في فحص المكان.

- إذن هذه هي الوسائل المستخدمة، إنه الكونت دوريني أليس كذلك؟ كما أنه حبسك أيضًا، ولكن الخطاب؟ آه، من خلال النافذة، يا له من تصرُّف متهور ألا تغلقيها.

فتح الباب على مصراعيه، فقالت إيفون بخوف:

- ماذا لو سمعنا؟

- لا يوجد أحد في المنزل لقد تأكدت من ذلك.

- ولكن...

- زوجك خرج منذ عشر دقائق.

- إلي أين ذهب في هذا الوقت؟

- عند والدته الكونتيسة دوريني.

- وكيف علمت بذلك؟

- بكل بساطة، لقد تلقى مكالمة تليفونية تُعلِمه بمرض والدته المفاجئ، وبما أني أنا مَن قام بهذه المكالمة؛ فحدث كما توقعت، لقد خرج الكونت فورًا من المنزل مصطحبًا خادمه، بينما كنت أقف منتظرًا عند زاوية الشارع، دخلت على الفور باستخدام مفاتيح خاصة. كان يروي تلك الأحداث بشكل طبيعي؛ كما لو أنه يحكي حكاية صغيرة تافهة في صالون ما.

سألته إيفون بقليل من القلق:

- إذن ليس صحيحًا أن والدته مريضة؟ في هذه الحالة سوف يعود زوجي.

- بالطبع، سوف يعود بعد أن يكتشف أنه تم التلاعب به خلال ثلاثة أرباع الساعة على الأقل.

- إذن هيا بنا لنذهب، لا أريده أن يعود ويجدني هنا، سوف ألحق بابني.

- لحظة من فضلكِ.

- لحظة! أنت لا تعلم أنهم خطفوا ابني، وربما يؤذونه الآن.

تقلصت ملامح وجهها، وبحركة منفعلة حاولت دفع فليمونت بعيدًا، ولكنه أجبرها على الجلوس بلطف شديد، ثم انحنى عليها، وقال بجرأة:

- اسمعيني جيدًا يا سيدتي، دعينا لا نضيع الوقت؛ حيث كل دقيقة الآن ثمينة للغاية، بدايةً دعيني أذكركِ، لقد التقينا أربع مرات من قبل، المرة الأخيرة كانت هنا في صالون هذا المنزل؛ حيث كنت أتحدث إليكِ كثيرًا، كيف عليَّ قول هذا؟ وقتها شعرت وكأنكِ مستاءة من زيارتي تلك، ولم أرَكِ منذ ذلك الحين أبدًا، ومع ذلك لقد أوليتني ثقتكِ لدرجة أنكِ احتفظتِ بهذا الكارت الذي وضعته بين صفحات هذا الكتاب، وبعد ست سنوات لجأتِ إليَّ أنا لأنقذكِ وليس أحدًا آخر، دعيني أطلب منك هذه الثقة مرة أخرى، لا بد أن تطيعيني بشكل أعمى؛ بما أنني قد تجاوزت كل العوائق ووصلت إليكِ؛ فإني سوف أنقذكِ مهما كلفني الأمر.

كان لكلام هوراس المطمئن ونبرته الهادئة الواثقة مفعول قوي على إيفون؛ حيث هدأ أسلوبه من روعها تدريجيًّا؛ فأحست بقوة تأثير هذا الرجل عليها وأنها فعلًا بحاجة لوجوده.

استأنف مكملًا:

- لا تخافي؛ فالكونتيسة دوريني تعيش في نهاية شارع فينسين، فلو افترضنا أن زوجكِ وجد سيارة أجرة وذهب، فلن يعود إلى هنا قبل الثالثة والربع، والآن الساعة الثانية وخمس وثلاثون دقيقة، أقسم لكِ بأنه في تمام الثالثة سنغادر وسآخذك لابنكِ، لكن الآن لن أغادر قبل معرفة كل شيء.

ردت عليه بنبرة مستسلمة:

- ماذا عليَّ أن أفعل؟

أجابها بوضوح:

- لدينا الآن عشرون دقيقة، ليس الكثير، ولكنه يكفي.

- تفضل اسألني ما تريد.

- هل تعتقدين أن زوجكِ الكونت يخطط لارتكاب أي جرائم أخرى؟

- لا.

- إذن، إنها مسألة خطف ابنك فقط.

- نعم.

- يخطفه؛ لأنه يريد الطلاق والزواج من امرأة أخرى، واحدة من إحدى صديقاتكِ القدامى، والتي طردتِها من منزلكِ قبل ذلك، أليس كذلك؟

لم ترد الكونتيسة، واكتفت بنظرة صامتة بائسة.

- أوه من فضلك أجيبيني مباشرةً ولا داعي للتجاهل، هذه وقائع شهيرة، تردُّدك وقلقك لا بد أن يقفا الآن فورًا، الأمر متعلق بابنك هذه المرة، هيا إذن، يريد زوجك الزواج بتلك المرأة؟

- نعم.

- هذه المرأة لا تمتلك أموالًا، ومن جانبه فإن زوجك أيضًا كذلك بعدما أشهر إفلاسه مؤخرًا، ولم يبقَ له سوى المعاش الذي تجود به الكونتيسة دوريني عليه كل فترة، والثروة الكبيرة التي ورثها ابنك عن خاليه الاثنين هي ما يطمع زوجكِ بالحصول عليه، وهذا الأمر سيغدو سهلًا لو كان الطفل تحت وصايته، والطريق الوحيدة لذلك هو الطلاق، أنا لست مخطئًا في روايتي، أليس كذلك؟

نظرت إليه الكونتيسة بانبهار لم تستطِع مداراته:

- لا.

- والذي منعه من تنفيذ خطته حتى الآن هو رفضك؟

- نعم، وكذلك حماتي الكونتيسة دوريني؛ فالطلاق يعارض معتقداتها الدينية، ولن توافق أبدًا على تلك الفعلة إلا في حالة واحدة.

- ما هي؟

- لو استطاع إثبات أن سلوكي الأخلاقي غير لائق.

هز فليمونت كتفيه في صمت، وأردف قائلًا:

- إذن فهو لا يملك شيئًا ضدكِ أبدًا، ولكن من الناحية القانونية، ولكي يخدم مصالحه؛ فإنه يواجه عقبة لا يمكنه التغلب عليها على الإطلاق، وهي الأخلاق النزيهة لامرأة شريفة، ومع ذلك فقد شرع في بدء خطته.

- ماذا تعني؟

- أود القول بأن رجل مثل الكونت، بعد طول التفكير والتردد في الفترة الماضية، وعلى رغم العديد من الصعاب والمستحيلات؛ فإنه يغامر بالخوض في مغامرة غير مضمونة النتائج، وذلك لأنه يمتلك أو يعتقد أنه يمتلك أسلحة قوية بين يديه.

- أي أسلحة؟

- لا أعلمها، ولكنها موجودة، وإلا فلماذا اختطف ابنكِ إذن؟

كانت إيفون تنظر إليه في حالة من القنوط:

- هذا أمر مروع! لا أعرف ما يخطط له وما يمكنه فعله؟

- تذكري جيدًا، فتشي في ذاكرتكِ، هنا مثلًا، ألم يقم هو بكسر ذلك المكتب؟ ألم يكن هناك أي خطاب قد يدينكِ؟

- أبدًا.

- تذكري كلامه إليكِ وقت التهديد، ألم يقُل شيئًا يمكنكِ من خلاله تخمين

نواياه؟

- لا شيء يستحق الذكر.

كرر فليمونت بتعجب:

- ومع ذلك لا بد أن هناك شيئًا ما.

بعد فترة صمت عاد يسألها مرة أخرى:

- ألم يكن لديه صديق مقرب يثق به كثيرًا.

لا.

- هل جاء أحد لزيارته أمس؟

- لا أحد.

- هل كان وحيدًا عندما قيدكِ وحبسكِ؟

- في أثناء ذلك، نعم.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك جاء خادمه، ووقف جانبه عند الباب، وسمعتهما يتحدثان عن عامل في محل ذهب.

- أهذا كل شيء؟

- وشيء ما سوف يحدث غدًا؛ أي اليوم ظهرًا؛ لأن الكونتيسة دوريني لم يكن من الممكن أن تأتي قبل ذلك.

فكر فليمونت، ثم قال:

- هل يمكنكِ تخمين أي أحداث يمكن لزوجك القيام بها بناءً على هذه المحادثة؟

- لا أرى فيها أي شيء.

- أين مجوهراتك؟

- باعهم زوجي.

- أليس لديكِ أي شيء متبقٍّ؟

- لا.

- ولا حتى خاتم؟

- لا. قالت ذلك بينما تنظر لأصابع يدها التي تمدها أمامها.

- هل هذا خاتم زواجك؟

- نعم، إنه هو.

بدت مرتبكة ولاحظ فليمونت احمرار وجهها، وسمعها تتمتم شاردة: هل من الممكن؟ ولكن لا، إنه لا يعلم بالتأكيد.

هاجمها فليمونت فورًا بالعديد من الأسئلة، ولكنها بقيت صامتة بلا حراك ومتوترة، طغى على وجهها ملامح قلق واضحة، ثم قالت أخيرًا بصوت منخفض:

- إنه ليس خاتم زواجي، لقد مر على هذا الحادث وقت طويل، ذات يوم سقط مني خاتم زفافي في مدفأة غرفة النوم، والذي كنت قد وضعته فوقها قبل دقيقة، ولم أتمكن من العثور عليه ثانيةً، ودون أن أبلغ أحدًا أوصيت على خاتم آخر مطابق تمامًا، وبقي في يدي حتى الآن.

- هل كان تاريخ زفافك محفورًا على الخاتم الحقيقي؟

- نعم، الثالث والعشرون من أكتوبر.

- وهذا الآخر؟

- ليس عليه أي تاريخ.

انتابها اضطراب عابر لم تحاول إخفاءه؛ فقلت لها بتوسل:

- أرجوكِ لا تحاولي إخفاء أي شيء عني، انظري ما قد وصلنا إليه في غضون بضع دقائق بقليل من المنطق والهدوء.

- هل أنت متأكد أن هناك منفعة ما من وراء هذه الحكاية؟

- أنا متأكد أن كل التفاصيل الصغيرة مهمة للغاية، ونحن الآن قريبون من تحقيق الهدف، وعلينا أن نسرع؛ فالوضع خطير، والوقت يداهمنا.

قالت بهدوء وثبات وهي ترفع رأسها قليلًا:

- ليس لديَّ ما أخفيه، لقد كان ذلك أكثر الأوقات بؤسًا وخطورة في حياتي، إهانات مستمرة داخل بيتي، بينما في الخارج لقد كنت محاطة بالاحترام والتملق دائمًا، والكثير من الثناءات والإغراءات مثل أي امرأة يتخلى عنها زوجها، أحيي هذا التعامل الذكري داخلي، فقبل زواجي كان هناك رجل لطالما أحبني حبًّا جمًّا، ولكن كان هذا الحب مستحيلًا، وبعد فترة زمنية من زواجي مات هذا الرجل، لقد حفرت اسمه على الخاتم وارتديته دائمًا؛ كأني أرتدي تميمة ما، بينما في داخلي لم يكن هناك حب أبدًا؛ نظرًا لأنني متزوجة من شخص آخر، ولكن في أعماق قلبي لقد كانت ذكرى هذا الحب تشعرني دائمًا بالأمان والحماية.

كانت تتحدث ببطء ودون خجل، فلم يشك فليمونت للحظة بأنها تروي الحقيقة كاملة، ظل صامتًا لفترة؛ فشعرت بالقلق، وسألته:

- هل تعتقد بأن زوجي...

تناول يدها متفحصًا الخاتم، ثم قال:

- اللغز هنا، لا أعرف كيف علم زوجك بقصة التبديل، ولكن ستأتي والدته معه في الظهيرة، وأمام الشهود سيجبركِ على خلع الخاتم، وبهذه الطريقة سيتمكن من إدانتك والحصول على موافقة والدته على الطلاق، لقد تمكن من الحصول على الدليل الذي استغرق فترة طويلة وهو يبحث عنه.

صاحت بهلع:

- لقد ضعت.

- بالعكس، لقد تم إنقاذك، أعطيني هذا الخاتم، وعندما يأتي زوجكِ في الظهيرة سيجد خاتمًا آخر في يدك، سأحرص على إيصاله إليكِ قبل الظهر، وسيحمل تاريخ الثالث والعشرين من أكتوبر، وبالتالي... انقطع عن الحديث فجأة عندما لاحظ جمودها وشحوب وجهها، فسألها بقلق:

- ماذا هناك؟

أصابتها نوبة من اليأس المجنون، فأخذت تصيح بهلع ونظرة رعب في عينيها:

- لقد ضعت تمامًا، هذا الخاتم لا يمكنني خلعه، هذا الخاتم أصبح صغيرًا للغاية، هل تفهمني؟ لم يكن هذا ذات أهمية من قبل لأتصرف وأقطعه، ولكن اليوم أصبح هو دليل إدانتي، ما هذا العذاب؟ لقد أصبح جزءًا من إصبعي، لا أستطيع خلعه، لا أستطيع.

حاولت انتزاعه من إصبعها بكل قوتها حتى تورم حول الحلقة، ولكن دون جدوى.

تلعثمت بصعوبة:

- تذكرت الآن الكابوس الذي راودني ليلة أمس، بدا وكأن أحدًا دخل غرفتي وأمسك بيدي ولم أقوَ على النهوض، لقد كان هو، كان هو بالتأكيد، لقد قام بتخديري، كان ينظر إلى الخاتم لم أكن أحلم، وغدًا سيقطعه أمام والدته، الآن فهمت كل شيء؛ عامل الذهب هذا الذي سينتزعه من يدي حتى لو اضطر إلى قطع إصبعي، لقد ضعت تمامًا كما ترى، دفنت رأسها بين يديها ودخلت في نوبة من البكاء الشديد، قطعها صوت دقات الساعة الثالثة المتتالية، قفزت إيفون تصرخ:

- ها هو قادم الآن، إنها الثالثة، هيا بنا نهرب.

انقضت على معطفها، وركضت نحو الباب، ولكن لوبين استوقفها، وقال بنبرة آمرة:

- لن تغادري.

- ابني، أريد أن أسترجع ابني.

- هل تعلمي مكانه على الأقل؟

- أريد الذهاب لأعرف.

- لن ترحلي، سيكون هذا درب من دروب الجنون.

أمسكها من معصميها، أرادت أن تحرر نفسها، ولكن في هذا الوقت كان على فليمونت أن يتعامل معها بقسوة بعض الشيء؛ ليتمكن من السيطرة عليها، نجح في النهاية من سحبها إلى الأريكة، وقام بالتقاط الأربطة، وأعاد وثاقها مرة أخرى، ربط ذراعيها وكاحليها متجاهلًا شكواها ونحيبها.

أخذ يتحدث بينما كان يربطها:

- هل تعلمي لماذا هو الجنون بعينه؟ مَن الذي حرركِ؟ مَن الذي فتح هذا الباب؟ بالتأكيد شريك ما، يا لها من فكرة هائلة يستغلها زوجك أمام والدته لتأكيد إدانتك! وبعد ذلك، ما الهدف؟ أسوف ترضين الطلاق؟ فالهروب هو قبول الطلاق، لا بد أن تبقي حيثما أنتِ.

خرج منها صوت مبحوح يختلط بصوت بكائها المتواصل:

- أنا خائفة، هذا الخاتم يحرقني، خذه بعيدًا حيث لا يمكن لأحد رؤيته أبدًا.

- وإن حدث هذا ولن يجدوه في يدكِ، فمَن الذي ساعدكِ على خلعه؟ شريكك مرة أخرى؟ لا، ينبغي عليك المواجهة بشجاعة، سأرتب الأمر كله، لا تقلقي، حتى لو اضطررت إلى مهاجمة الكونتيسة دوريني لتأخير المقابلة، حتى لو حضرت بنفسي مرة أخرى قبل الظهر، سيتم انتزاع هذا الخاتم من يدكِ أقسم لكِ، وسأرجِع إليكِ ابنكِ.

بقيت إيفون صامتة بطبيعة الحال، مستسلمة للقيد، واستلقت على الأريكة كما كانت من قبل، فحص الغرفة للتأكد من عدم وجود آثار لدخوله، ثم انحنى على الشابة مرة أخرى هامسًا:

- فكري في ابنكِ بغض النظر عن أي شيء، لا تخافي؛ فأنا أعمل على حمايتكِ واستعادة ابنكِ وكرامتكِ.

سمعته يفتح باب الغرفة ثم يغلقه خلفه، وبعد دقيقة يغلق باب المنزل.

وفي تمام الثالثة والنصف توقفت سيارة أمام باب المنزل، وسمعت صوت إغلاق الباب مرة أخرى، على الفور رأت إيفون زوجها يركض نحوها ليتأكد من أنها ما زالت مقيدة، أمسك يدها وتفحص الخاتم؛ فخارت قواها وفقدت وعيها.

لم تكن إيفون قد استردت كامل وعيها بعد عندما فتحت عينيها وأحست بنور النهار يملأ الغرفة، ومع أول حركة قامت بها أدركت أنه قد تم فك قيدها، أدارت رأسها ببطء فرأت زوجها يراقبها، فصاحت بنبرة متوسلة:

- ابني، أريد ابني.

أجابها بنبرة استهزاء:

- ابننا في مكان آمن، الأمر يتعلق بكِ الآن وليس به، نحن نجلس معًا اليوم للمرة الأخيرة، والنتيجة التي سنتوصل إليها بعد هذه الجلسة خطيرة للغاية، كما يجب عليَّ تنبيهك بأن كل شيء سيتم أمام والدتي، هل لديكِ أي اعتراضات؟

حاولت إيفون إخفاء ارتباكها قدر الإمكان لتبدو متماسكة:

- أبدًا.

- هل يمكنني إحضارها الآن؟

- نعم، وخلال هذا الوقت أريد أن أبقى بمفردي قليلًا، سأكون جاهزة وقتما تأتي.

- تأتي؟ أمي هنا بالفعل.

- هنا؟

تذكرت وعد فليمونت هوراس لها، ارتبكت وشحب وجهها.

- ما الذي يدهشكِ إلى هذا الحد؟

- هل تلك الجلسة التي تريدها ستحدث الآن؟

- نعم.

- لماذا الآن؟ لم ليس في المساء أو غدًا؟

- اليوم، والآن (قالها الكونت في حزم) لقد حدث شيء غريب ليلة أمس، ولا يمكنني تفسيره حتى الآن، فقد تم استحضاري لمنزل والدتي بشكل عاجل؛ زعمًا بأنها مريضة، ولكني وجدتها في أفضل حال، واكتشفت أنها كانت مجرد خدعة لإبعادي عن المنزل، وهذا جعلني أُعجِّل باللقاء، ألا تريدين تناول بعض الطعام أولًا؟

- لا.

- إذن سأحضر والدتي.

مشى في اتجاه غرفة نوم إيفون، فاختلست إيفون نظرة إلى الساعة التي كانت تشير إلى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة.

- آه. تأوهت وهي ترتجف رعبًا، لم يستطِع فليمونت أو أي شخص في العالم إنقاذها، لا يمكن لأي معجزة أن تخفي الخاتم الذهبي من إصبعها.

عاد الكونت مرة أخرى ومعه والدته الكونتيسة دوريني، طلب منها الجلوس برفق، كانت امرأة حادة الطباع، طالما أظهرت مشاعر معادية تجاه إيفون، فلم

تلق السلام على زوجة ابنها؛ مما يؤكد بأنها على علم بتلك الاتهامات الباطلة.

قالت بجفاء:

- أعتقد أنه لا داعي للمقدمات، باختصار يعتقد ابني...

قاطعها ابنها صائحًا:

- لا أعتقد يا أمي، فأنا متأكد من كل ما أقول، قبل ثلاثة أشهر من الآن خلال الإجازة، وجد الخادم وهو ينظف سجادة الغرفة خاتم الزواج الخاص بزوجتي، كان قد وقع في فجوة صغيرة بين خشب الأرضية، ها هو والتاريخ محفور عليه من الداخل، الثالث والعشرون من أكتوبر.

- إذن ما هذا الخاتم الذي ترتديه زوجتك؟

- هذا الخاتم اشترته زوجتي بدلًا من الخاتم الأصلي، وبعد عمليات بحث مضنية قام بها مساعدي برنارد، اكتشفنا مكان الصائغ الصغير الذي ابتاعت منه الخاتم، يعيش بالقرب من باريس، وهو رجل ذو ذاكرة جيدة مستعد للإدلاء بشهادته، يتذكر جيدًا الزبونة التي طلبت منه هذا الخاتم تحديدًا؛ لأنها لم تطلب منه حفر تاريخ ما، ولكن حفرت اسم شخص، لم يستطِع تذكُّر الاسم بالطبع، ولكنه بالتأكيد يتذكر الزبونة، وبعد أن بعثت إليه برسالة تفيد بأني بحاجة إلى خدماته، بادر بالموافقة، مبديًا كامل التعاون، كما أكد أن باستطاعته المجيء اليوم، ذهب برنارد لاصطحابه في تمام التاسعة، وهما الآن يجلسان في غرفة مكتبي.

نطق كلماته الأخيرة وهو ينظر إلى زوجته ليرصد رد فعلها، ثم خاطبها قائلًا:

- هل ستعطيني هذا الخاتم الآن بكامل رضاكِ؟

- أنت تعلم جيدًا منذ تلك الليلة التي حاولت فيها نزعه من إصبعي رغمًا عني بينما كنت نائمة- أنه من المستحيل انتزاعه، لقد أصبح ضيقًا للغاية.

- في هذه الحالة سأضطر لإعطاء الأمر للرجل بالصعود؛ فلديه الأدوات اللازمة لذلك.

قالت بصوت واهن:

- كما تريد.

استسلمت إيفون تمامًا للأمر الواقع، ورأت مشاهد تمر أمام عينيها عن المستقبل؛ الفضيحة والطلاق الذي ستُجبَر عليه، ابنها الذي سيصبح تحت وصاية أبيه، فكرت بأنها ستتقبل كل هذه الأوضاع، وستقوم بخطف ابنها إلى أبعد مكان في العالم، وستتمكن من العيش معه بسعادة في النهاية.

قطعت حماتها تخيلاتها قائلة:

- لطالما كنتِ مخلصة وشريفة يا إيفون!

كانت إيفون على وشك الاعتراف لها بكل شيء وطلب حمايتها، ولكن ما الفائدة؟ كيف ستتمكن الكونتيسة دوريني من تصديق براءتها؟ فضلت الصمت، علاوة على ذلك؛ فقد عاد الكونت مرة أخرى، وتبعه مساعده ورجل يحمل حقيبة فوق ذراعه.

قال الكونت مخاطبًا الرجل:

- أنت تعلم بالطبع لماذا جئت إلى هنا، أليس كذلك؟

- نعم، بسبب خاتم إصبع ضيق للغاية، ويحتاج إلى القطع، أمر بسيط.

- وبعد ذلك ستؤكد لي إذا كان هذا النقش الموجود داخله أنت مَن قمت به أم لا.

نظرت إيفون إلى الساعة، وكانت الحادية إلا عشر دقائق، تناهى إلى سمعها صوت ضجة خفيفة، اعتقدت أول الأمر أنها داخل المنزل، داعبها أمل ضعيف، ربما نجح فليمونت في الوصول إليها، ولكن بعدما استمر هذا الضجيج أدركت أنها أصوات الباعة المتجولين يمرون بعرباتهم تحت النوافذ. لقد خاب ظنها، هوراس فليمونت لن يظهر أبدًا، وأدركت أنه من أجل الحصول على ابنها مرة أخرى عليها التعامل بمفردها، والاعتماد على قوتها الخاصة؛ لأن وعود الآخرين تذهب سدًى دائمًا، تراجعت قليلًا عندما رأت يد العامل القذرة تمسك ذراعها، أثارت هذه اللمسة البغيضة حنقها، اعتذر الرجل في خجل، فقال الكونت لزوجته بحدة:

- عليكِ أن تقرري الآن، أستتركين الرجل يعمل أم ماذا؟

مدت ذراعها مرة أخرى، فأمسك العامل يدها المرتعشة الضعيفة ثانيةً، أسندها على الطاولة باسطًا كف يدها، شعرت إيفون بالفولاذ يلامس أصابعها، فتمنت لو تموت الآن، وتشبثت بهذه الفكرة، فكرت بالسموم التي ستشتريها وتتناولها، والتي تجعلها تموت في أثناء نومها فلن يشعر بها أحد ولن تتألم.

كانت عملية سريعة، قامت الكماشة الحديدية الصغيرة بدفع الإصبع قليلًا للخلف؛ فأفسحت مجالًا لدخول اللهب وشق الخاتم، بمجهود بسيط تم قطع الخاتم أمام عيونهم، ولم يتبقَّ سوى إبعاد الطرفين بعيدًا عن بعضهما البعض؛ لإخراجها من الإصبع، وهذا ما فعله العامل، همس الكونت في فرح:

- أخيرًا سنتمكن من معرفة الحقيقة، ها هو الدليل أمامنا.

أمسك الخاتم بين يديه ونظر إلى النقش، وأطلق صيحة دهشة، فقد كان النقش هو تاريخ زواجه من إيفون بالفعل؛ الثالث والعشرين من أكتوبر.

كنا جالسين في واحدة من شرفات فندق مونت كارلو ([2]) عندما أنهى لوبين قصته، أشعل سيجارًا ونفث دخانها بهدوء في عنان السماء الزرقاء.

قلت له:

- وماذا بعد؟

- ماذا؟

- ماذا عن نهاية المغامرة؟

- نهاية المغامرة! لا يوجد شيء آخر.

- ها أنت تمزح الآن.

- على الإطلاق، ألا يكفيك هذا؟ لقد تم إنقاذ الكونتيسة، لم يجد الزوج أي دليل ضدها؛ فأجبرته والدته على التخلي عن فكرة الطلاق وإعادة الولد لأمه، هذا هو كل شيء، وقد ترك زوجته منذ ذلك الوقت، وأصبحت تعيش مع ابنها البالغ من العمر ستة عشر عامًا الآن على حد علمي.

- ولكن الحيلة التي تم إنقاذ الكونتيسة بها؟

انفجر لوبين ضاحكًا:

- يا صديقي العزيز، أنا أعلم أنك تملك مهارة عظيمة في إعادة سرد وصياغة مغامراتي، ولكن ينبغي عليك تفسير بعض الأمور البسيطة بمفردك من وقت لآخر، أقسم لك بأن الكونتيسة نفسها لم تحتَج إلى توضيح.

أجبته ضاحكًا:

- لقد ضاع عقلي تمامًا بفضلك، هيا، ضع لي النقاط فوق الحروف.

أخرج لوبين من جيبه ورقة مالية بقيمة خمسة فرنكات، وأحكم عليها قبضته، ثم سألني:

- ماذا يوجد في هذه اليد؟

- ورقة بقيمة خمسة فرنكات.

فتح يده ولم تكن الورقة النقدية موجودة.

- أترى كم هذا سهلًا؟ يقطع عامل الذهب الخاتم المحفور عليه الاسم، ولكنه يقدم خاتمًا آخر بتاريخ الثالث والعشرين من أكتوبر، مجرد خدعة بسيطة في فن الإخفاء، كان الآخر لديَّ في أسفل الحقيبة، لقد عملت مع بيكمان الساحر لمدة ستة أشهر.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ماذا أيضًا؟

- ماذا عن عامل الذهب؟

- لقد كان هوراس فليمونت بالتأكيد، الكونت الشجاع، أنا، فعندما غادرت

الكونتيسة في تمام الثالثة صباحًا استغللت الدقائق القليلة المتبقية في تفتيش مكتب زوجها الكونت قبل أن يصل، وفوق المنضدة وجدت الرسالة التي كتبها الصائغ، اكتشفت من خلال هذه الرسالة عنوانه، وبعد القيام ببعض التغييرات البسيطة حللت مكان العامل، وذهبت في الموعد ومعي الخاتم المقطوع سلفًا، والذي يحمل التاريخ الصحيح، بواسطة خدعة بسيطة ويد ماهرة لم يرَ الكونت سوى لهب أداة القطع الذي اصطنعته بحجة قطع الخاتم.

صحت في سعادة:

- رائع، ولكن -أضفت بنبرة سخرية- ألا تعتقد بأنه قد تم خداعك أنت أيضًا إلى حد ما؟

- خداعي أنا! ومَن الذي خدعني؟

- الكونتيسة.

- كيف ذلك؟

- أوه! هذا الاسم المحفور مثل تميمة مقدسة، هذا الرجل المخلص الذي أحبها ومات، كل هذا يبدو لي قصة مفبركة غير قابلة للتصديق، وأتساءل فعلًا إذا كانت قد وقعت في قصة حب حقيقة، ولكنها ليست بريئة للغاية؟

نظر إليَّ لوبين بغيظ، ثم قال:

- كلا.

- وكيف تعلم؟

- لقد أخبرتني الكونتيسة بالحقيقة منذ البداية، لقد عرفت هذا الرجل بالفعل، وأحبته قبل الزواج، واستطاعت أن تبقي هذا الحب داخل قلبها، على الأقل أنا لديَّ الدليل الذي لا يقبل الشك على أن هذا الحب كان مثاليًّا بريئًا.

- ما الدليل؟

- لقد حُفِر داخل الخاتم الذي قطعته بنفسي من إصبعها، أحمله في حقيبتي هنا الآن، ها هو يمكنك رؤيته.

ناولني الخاتم، وقرأت فوقه نقش اسم (هوراس فليمونت).

سادت لحظات من الصمت بيننا، لاحظت خلالها مسحة من الحزن بادية على وجهه، سألته:

- لماذا تخبرني بهذه القصة الآن، والتي أشرت إليها كثيرًا فيما مضى؟

- سأخبرك لماذا.

أشار إليَّ بإيماءة من رأسه نحو امرأة فائقة الجمال والأناقة كانت تمر جوارنا ومعها شاب صغير السن، رأت لوبين فألقت عليه التحية.

همس لي بعدها:

- إنها هي ومعها ابنها.

- هل تعرفتك؟

- دائمًا تتعرفني مهما كنت متنكرًا.

- ولكن منذ حادثة قصر التيمبرميسنيل أعلنت الشرطة بأن هوراس فليمونت هو نفسه أرسين لوبين.

- بالفعل.

- إذن هي تعرف الحقيقة! تعرف أنك أرسين لوبين!

- نعم.

- ومع ذلك قامت بتحيتك!

أمسك لوبين بذراعي بعنف قائلًا:

- هل تعتقد أني بالنسبة إليها أرسين لوبين السارق المحتال؟ هل تعتقد بأنها تراني وغدًا محترفًا؟ حتى لو كنت أكثر البشر شقاءً وخبثًا ودهاءً، حتى لو قتلت، ستظل دائمًا تحييني وتقدرني.

- لماذا؟ لأنها تحبك؟

- على العكس، هذا سبب أدعى بأن تحتقرني وتلومني دائمًا.

- لماذا إذن؟

- لأنني سأظل دائمًا في نظرها الرجل الذي أعاد إليها ابنها.

علامة الظل

- لقد تلقيت رسالتك منذ قليل وها أنا ذا، ماذا هناك؟

قال لي تلك الجملة رجل لطيف يقف على عتبة منزلي، ذو شارب رمادي ويرتدي معطفًا بني اللون وقبعة عريضة الجوانب، للوهلة الأولى كنت سأسأله مَن أنت؟ ثم تذكرت أني قد أرسلت تلغرافًا إلى أرسين لوبين، لولا ذلك لما كنت تعرفت إليه أبدًا، فبهذا التنكر المتقن يبدو كرجل عسكري متقاعد.

أجبته مراوغًا:

- ماذا هناك؟ ليس شيئًا ذا أهمية كبيرة، مجرد مصادفة غريبة بعض الشيء، وبما أنك مولع بكشف الألغاز الغامضة بقدر ولعك بتكوينها أيضًا، قررت الاستعانة بك.

- وماذا بعد؟

- هل أنت في عجلة من أمرك؟

- جدًّا، وخصوصًا إذا كان الأمر الذي استدعيتني من أجله لا يستحق، فأرجو منك الدخول إلى الموضوع مباشرةً.

- إذن كما تريد، سأمضي إلى الموضوع مباشرةً، من فضلك ألقِ نظرة على هذه اللوحة التي وجدتها الأسبوع الماضي في محل لبيع الأدوات المستعملة على الضفة اليسرى للنهر، اشتريتها خصيصًا من أجل الإطار ذي السعف المجدول، على الرغم من أن الرسم داخله مروع.

علَّق لوبين بعد نظرة متفحصة:

- مروع بالفعل، ولكن موضوع اللوحة نفسه لا يخلو من طرافة، هذه الزاوية من الفناء القديم في وسطه العمود اليوناني الدائري والساعة الشمسية ([3])، حوض الماء، هذه البئر المتداعية، ودرجات السلم الدائرية حولها، والمقعد الحجري؛ كل هذا يرجع لعصر النهضة، شيء مثير للإعجاب!

- وأصلية أيضًا -أضفت قائلًا- سواء كان الرسم جيدًا أم لا فلم يتم نزع القماش أبدًا من إطاره.. وبالمناسبة، لقد وجدت التاريخ مدونًا أسفل اليسار، ها هو، هذه الأرقام الحمراء المكتوبة بوضوح: (15 - 4 - 2)، والتي تشير إلى الخامس عشر من شهر أبريل عام 1802.

- هذا صحيح فعلًا، ولكنك كنت تتحدث منذ قليل عن مصادفة ما، وحتى الآن لا أرى...

ذهبت نحو ركن في الحجرة، التقطت منظارًا، وقمت بتثبيته فوق حامله ثلاثي القوائم، ووجهته نحو النافذة المفتوحة لغرفة نوم صغير تقع في مواجهة شقتي على الجانب الآخر من الشارع، وطلبت من لوبين أن يلقي نظرة،

انحنى ينظر، وكانت الشمس ساطعة في هذا الوقت؛ حيث أضاءت الغرفة جيدًا؛ فتمكنا من رؤية أثاث الغرفة الماهوجني ([4])المتواضع للغاية، وسرير طفل كبير الحجم مزين بستائر من الكريتون ([5]).

صاح لوبين بدهشة:

- آه! إنها نفس اللوحة هناك.

- بالضبط، هي نفسها.. حتى التاريخ، هل لاحظت هذا؟ ها هو التاريخ مكتوب باللون الأحمر أيضًا: (15 - 4 - 2).

- نعم، شاهدته، ومَن يعيش في هذا المنزل؟

- سيدة، أو بالأحرى عاملة فقيرة، يتعين عليها العمل لتعيش، تقوم بأعمال خياطة بسيطة، والتي بالكاد تطعمها هي وطفلتها.

- ما اسمها؟

- لويز ديرنيمونت، وهي حفيدة جنرال كبير تم إعدامه بالمقصلة في عهد الإرهاب.

استكمل لوبين حديثي قائلًا:

- تم إعدامه في نفس اليوم الذي أُعدِم فيه أندريه شينيه ([6])، فالجنرال ديرنيمونت هذا وفقا لذكريات هذا العصر كان رجلًا فاحش الثراء. ثم رفع رأسه وسألني:

- القصة مثيرة للاهتمام لماذا انتظرت حتى اليوم لتخبرني بها؟

- لان اليوم هو 15 إبريل.

- حسنًا، وما الغريب في هذا؟

- لقد علمت الامس من خلال الثرثرة مع البواب ان يوم 15 أبريل من كل عام هو يوم مميز بالنسبة للويز ديرنيمونت.

- وكيف هذا؟!

- فعلي عكس عادتها كل يوم، فهي تعمل طوال الوقت تستيقظ لترتب الغرفتين التي تعيش بهما، تحضر الغذاء لابنتها لتتناوله عندما تعود من المدرسة الحكومية، وتجلس لتعمل على الماكينة حتى وقت متأخر، ولكنها في هذا اليوم من كل عام تخرج مع ابنتها الصغيرة في حوالي العاشرة صباحا ولا تعود إلا بعد غروب الشمس، لسنوات وسنوات مهما كان الطقس وتحت كل الظروف، وهذا حدث غريب، هو ذاته التاريخ الذي أجده على لوحة مماثلة للوحة التي في بيتها ويمثل اليوم السنوي لخروج حفيدة الجنرال ديرنيمونت.

علق لوبين بصوت هادئ:

- غريب حقًّا، ولا نعرف إلى أين تذهب؟

- لا أحد يعلم أبدًا أنها لا تثق بأحد اطلاقا، كما أنها سيدة قليلة الكلام.

- هل أنت متأكد من معلوماتك؟

- متأكد تمامًا، والدليل على صحة كلامي ها هو، انظر أمامك، انفتح باب في الجهة الأخرى، ظهرت طفلة صغيرة في السابعة أو الثامنة من عمرها، جاءت لتقف عند النافذة، ظهرت خلفها سيدة طويلة إلى حد ما، ما زالت جميلة ورقيقة ولكن عيناها حزينة شاردة، كان الاثنان جاهزتين للنزول بملابس بسيطة ولكنها تدل على أناقة الأم.

تمتمت قائلًا:

- ها أنت ترى، سيخرجان.

وبعد دقيقة اصطحبت الأم الطفلة من يدها وغادرا الغرفة.

وبسرعة ترك لوبين المنظار وامسك قبعته قائلًا:

- هل أنت قادم معي؟

منعني الفضول الشديد من الاعتراض فهبطت معه مسرعًا، وعندما وصلنا الشارع شاهدنا جارتي وقد دخلت إلى المخبز القريب واشترت كعكتان، وضعتهما في سلة صغيرة حملتها ابنتها، يبدو أنها تحتوي بالفعل على طعام، ثم اتجهوا نحو الضواحي الخارجية حتى وصلوا ميدان (إيتوال) قادهم شارع كليبر إلى مدخل ميدان(باسي).

كان لوبين يسير بجواري مشغول البال، يبدو عليه القلق والتفكير بينما كنت سعيدًا؛ لأنني أنا من تسبب في ذلك، بين الحين والآخر كان يقول عبارة أو أخرى تثبت ان القضية قد أثارت اهتمامه مثلما حدث معي، اتجهت لويز ديرنيمونت إلى اليسار من شارع رينوار وهو شارع أثري قديم حيث كان يعيش فرانكلين([7]) وبلزاك([8])، تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحدائق الرائعة، يحمل انطباعًا ريفيًّا عتيقًا، وفي آخره عند سفح التل يتدفق نهر السين، وتنحدر الأزقة المتعرجة في اتجاه النهر، سلكت جارتي إحدى تلك الأزقة المهجورة على يمينها، كان هناك منزل تطل واجهته على شارع رينوار، ويليه جدار متهالك آيل للسقوط ذو ارتفاع منخفض، تعلوه العديد من الزجاجات المكسورة، في وسطه باب مقوس الشكل، توقفت أمامه لويز ديرنيمونت، وأخرجت من جيبها مفتاحًا بدا لنا ضخمًا بعض الشيء، ثم دخلت هي وابنتها، وأغلقت الباب خلفها.

قال لوبين:

- على الأقل ليس لديها ما تخفيه؛ لأنها لم تستدِر وراءها ولو لمرة واحدة.

بالكاد أنهى جملته عندما سمعنا خطى أقدام خلفنا، كانا متسولين عجوزين؛ رجل وامرأة، قذران وثيابهما رثة، مرا دون الانتباه لوجودنا، أخرج الرجل مفتاحًا مشابهًا للذي أخرجته جارتي، أدخله في الباب ودخلا، ثم أغلقا الباب خلفهما مجددًا، وفي نهاية الزقاق انتبهنا إلى صوت سيارة تتوقف، جرني لوبين على عمق خمسين مترًا أسفل الزقاق، وثبتني في فجوة كانت كافية لكلينا للاختباء والمراقبة، رأينا امرأة شابة أنيقة للغاية تهبط من السيارة مزينة بالمجوهرات، عيناها فاحمتا السواد، وشعرها أشقر منسدل فوق كتفيها، وشفتاها شديدة الحمرة، تحمل كلبًا صغيرًا فوق ذراعيها، وقفت أمام الباب، وتكرر نفس المشهد، أخرجت نفس المفتاح، فتحت الباب، ثم اختفت هي والكلب في الداخل، أصبحت الأمور أكثر تشويقًا، ما العلاقة التي تربط كل هؤلاء الأشخاص معًا؟ وعلى التوالي ظهرت سيدتان عجوزتان ونحيفتان حد المرض، بائستا المظهر، تشبهان بعضهما البعض كأنهما أختان، ثم خادم، ثم أمين شرطة من سلاح المشاة، وبعد ذلك رجل بدين وفقير يرتدي سترة مرقعة سيئة المظهر، ومن بعده أسرة أحد العمال مكونة من ستة أفراد وجوههم شاحبة؛ كأنهم مرضى يبدو عليهم الفقر المدقع؛ كأنهم لا يمتلكون ما يقتاتون به، كل مَن يأتي يحمل معه سلة أو شبكة مليئة بالطعام، فقلت هازئًا:

- تبدو وكأنها نزهة صيفية لطيفة.

قال لوبين:

- هذا الأمر يزداد غموضًا، ولن أرتاح حتى أعرف ما يدور خلف هذا الجدار.

كان التسلق مستحيلًا، علاوة على ذلك كان أول الزقاق مثل أقصاه؛ فالبيوت على الجانبين لا يوجد بها نافذة واحدة تطل على الجدار، أخذنا نفكر في حيلة ما دون جدوى، حتى انفتح الباب مرة أخرى، وخرج أحد أطفال أسرة العامل، ركض في اتجاه شارع رينوار، وبعد مرور بضع دقائق عاد مرة أخرى، وقد أحضر زجاجتين من المياه وضعهما على الأرض أمام الباب، ثم أخرج المفتاح الكبير من جيبه، في هذه اللحظة تمامًا كان لوبين قد تركني بالفعل، كان يسير ببطء على طول الجدار؛ كأنه شخص يتنزه بالجوار، وبعدما فتح الطفل الباب ودخل؛ دفعه وراءه لينغلق، في تلك اللحظة قفز لوبين وأدخل طرف سكينته الصغيرة في المزلاج، فلم ينغلق لسان القفل حتى النهاية، وبمجهود بسيط انفتح الباب، واستطعنا الدخول.

قال لوبين:

- ها نحن هنا.

خفض رأسه في حذر بعض الوقت وهو يمشي متمهلًا، ثم -ولدهشتي الكبرى- أخذ يمشي بكل ثقة، اتبعت خطاه وأنا متردد قليلًا، استطعت أن أشاهد على بعد عشرة أمتار من الجدار كمية ضخمة من أشجار إكليل الغار مثل ستارة عملاقة تكسو الجدار، دفع لوبين نفسه في منتصف هذه الستارة

من النباتات، مشيت جانبه، بينما دفعت بيدي أحد أغصان هذه الشجيرات جانبًا؛ لأتمكن من رؤية ما خلفها، مشهد رهيب ظهر أمامي فجأة! فلم أتمكن من كتمان صيحة دهشة، بينما قال لوبين مندهشًا بصوت منخفض:

- يا إلهي! يا لها من مزحة!

كان أمامنا في المساحة الصغيرة الممتدة بين المنزلين على جانبَي الجدار، نفس المشهد المتمثل في اللوحة القديمة التي اشتريتها من محل بيع الأدوات المستعملة، الديكور نفسه، القاعة اليونانية بعمودها اليوناني المستدير، المقاعد الحجرية تتوسط سلمًا دائريًّا مكونًا من أربع درجات، ينزلق إلى حوض مائي أرضيته بلاط متهالك، وعلى اليسار نفس البئر القديمة رُفِع غطاؤها الحديدي المزخرف، وعلى مقربة منها توجد الساعة الشمسية بسهمها وقاعدتها الرخامية، نفس المشهد تمامًا، وما زاد الأمر غرابة هو ذكرى التاريخ، إنه اليوم ذاته 15 أبريل، نفس التاريخ المدون في زاوية اللوحة، يوجد الآن حوالي ستة عشر شخصًا مختلفين تمامًا في العمر والطبقات الاجتماعية، اجتمعوا الآن في هذا اليوم خصيصًا، وهذا المكان البائس من باريس.

عندما نظرنا إليهم كانوا جميعًا جالسين على المقاعد الحجرية ودرجات السلم الأربع يأكلون منفردين، أسرة العامل والزوجان المتسولان يجلسون جانب جارتي وابنتها، وعلى مقربة منهم جلس الرجل البدين والشرطي والأختان يفترشون الأرض بطعامهم المكون من علب السردين وشرائح لحم الخنزير وجبن غروير([9])، عند الساعة الواحدة والنصف أخرج المتسول غليونه تبعه الرجل السمين، وبدءوا يدخنون بالقرب من القاعة المستديرة، ثم انضمت إليهما النساء وانخرطوا في حديث جماعي؛ كأنهم يعرفون بعضهم البعض، كانوا بعيدين بدرجة كافية؛ فلم نتمكن من سماعهم، ومع ذلك رأينا أن المحادثة كانت محتدمة، وخاصة الآنسة صاحبة الكلب الصغير، كانت تتحدث بعصبية، وتُحرِك يديها في انفعال؛ مما جعل الكلب الصغير ينبح بشدة، وفجأة دوت صيحة نجدة؛ فاندفع الجميع مسرعين، رجالًا ونساءً نحو البئر، أحد أطفال العامل كان معلقًا من حزامه على خطاف حديدي في نهاية حبل، وكان إخوته الثلاثة يسحبونه لأعلى بواسطة الحبل على آلة التدوير اليدوي، وبخفة انقض الشرطي على الطفل وتبعه الخادم والرجل البدين، أمسكوا جميعًا بالطفل، في حين كان المتسولون والأختان النحيفتان قد بدءوا مشاجرة مع أسرة العامل، وفي غضون ثوانٍ لم يبقَ على الطفل سوى قميصه، فقد انتزع الخادم باقي ملابسه وجرى؛ فلحق به الشرطي، واختطف منه الملابس الداخلية للطفل، ثم انتزعتها إحدى الأختين من يديه بقوة وهو يركض. كانت الأحداث تدور بسرعة أمام أعيننا، وكأنه سباق على كتلة ذهبية؛ فعلقت على المشهد قائلًا:

- إنهم حفنة من المجانين!

قال لوبين:

- لا، أبدًا.

- كيف هذا؟ هل تفهم شيئًا مما نراه؟

في النهاية نجحت لويز ديرنيمونت في تسوية النزاع، خاصةً وأنها كانت متحفزة لتهدئة الجميع منذ بداية الأحداث، كانت هذه الواقعة شديدة التأثير عليهم جميعًا، فجلسوا صامتين منهكين من التعب.

مضى الوقت ثقيلًا، وبدأ صبري ينفد، شعرت بالجوع الشديد؛ فذهبت خلسة إلى شارع رينوار لشراء بعض الطعام الذي تشاركته مع لوبين فيما بعد في أثناء متابعة هذه الكوميدية الهزلية التي تدور أمام أعيننا، كل دقيقة كانت تمضي كانت تزيدهم حزنًا وكآبة، ظهورهم للأمام سارحين في أفكارهم وتأملاتهم، تمتمت بملل:

- هل سيخلدون للنوم هناك؟

ولكن نحو الساعة الخامسة أخرج الرجل البدين ذو السترة المهترئة ساعة يد ونظر إليها، حذا الآخرون حذوه، فأخرج كل منهم ساعته وأخذ يحدق فيها، بدوا كأنهم ينتظرون وقوع حدث ما ذي أهمية كبيرة، ولكن لم يحدث شيء البتة، وبعد مُضِي عشرين دقيقة إضافية أو أكثر، قام الرجل البدين بإيماءة يأس من رأسه، ثم وقف وارتدى قبعته، وبعد ذلك سمعنا صوت النحيب والبكاء، سقطت الأختان النحيفتان وزوجة العامل على ركبهن واضعات علامة الصليب فوق صدورهن، وعانقت السيدة الشابة صاحبة الكلب الصغير المتسولة وأخذا تبكيان معًا، كما احتضنت لويز ابنتها الصغيرة في صمت كئيب.

قال لوبين:

- هيا بنا.

- هل تعتقد بأن الجلسة انتهت؟

- نعم، ولم يبقَ لنا سوى لحظات للتسلل من هنا دون ملاحظة أحد.

غادرنا دون عوائق إلى بداية شارع رينوار، انعطف لوبين على اليسار، ودخل أول منزل مجاور للجدار، بعد التحدث بضع دقائق مع البواب عاد إليَّ مجددًا، أوقف سيارة أجرة، فركبنا، وقال للسائق:

- 34 شارع تورين.

في هذا العنوان تحديدا، كان هناك مبنى قديم دلفنا إلى داخله، الطابق الأرضي يشغله مكتب محامٍ، دخلنا على الفور إلى مكتب السيد فالاندييه، وهو رجل ودود، متوسط العمر، تعلو وجهه ابتسامة مرحة، قدَّم لوبين نفسه على أنه نقيب شرطة متقاعد يُدعَى جانيوت، يريد بناء منزل حسب ذوقه، وقيل له إن هناك قطعة أرض بالقرب من شارع رينوار، اعترض فالاندييه بهدوء:

- ولكن هذه الأرض ليست للبيع.

- حقًّا! ولكن قيل لي...

- لا، لا.

نهض المحامي وأحضر شيئًا من الخزانة، وعرضه علينا، في تلك اللحظة ارتبكت بعض الشيء؛ فقد أحضر إلينا النسخة الثالثة من اللوحة التي اشتريتها، واللوحة ذاتها في غرفة لويز ديرنيمونت، ثم قال:

- هل هذه هي الأرض التي تتحدث عنها؟ أرض ديرنيمونت كما يسمونها؟

- نعم، هي تمامًا.

- حسنًا -تابع المحامي حديثه- كان هذا الفناء جزءًا من حديقة كبيرة يملكاها الجنرال ديرنيمونت، والذي تم إعدامه بالمقصلة خلال عصر الإرهاب، كل ما كان يملكه تم بيعه بالفعل من قِبَل الورثة شيئًا فشيئًا، ما عدا هذه الأرض؛ ستبقى ملكية مشتركة، إلا إذا...

ثم ضحك ضحكة ساخرة.

- إلا إذا ماذا؟ سأل لوبين.

- إنها قصة مثيرة حقًّا، فأنا أستمتع حتى الآن وأنا أتصفح ملفاتها.

- هل أكون متطفلًا لو سألتك عنها؟

- على الإطلاق. قال فالانديه الذي أبدى ترحيبه بسرد القصة، فبدأ دون أي مقدمات:

- منذ بداية الثورة، قام لويس أغريبا ديرنيمونت ببيع قصره في فوروج سان جيرمان، وأقال الخدم؛ بحجة الانضمام إلى زوجته التي عاشت في جنيف مع ابنتهما، وذهب ليختبئ في منزله الصغير في باسي بصحبة ابنه تشارلز؛ حيث لا يعرفه أحد سوى خادمة عجوز مخلصة بقيت معهما لخدمتهما، ظل هناك لمدة ثلاث سنوات؛ أملًا في ألا ينكشف مكانه، حتى نهار يوم ما وبعد الغداء ذهب الجنرال إلى غرفته ليستمتع بقيلولته، حين هرولت الخادمة إليه تبلغه بأنها رأت في نهاية الشارع مجموعة من الضباط المسلحين، الذين كانوا في طريقهم إلى المنزل، استعد لويس ديرنيمونت بسرعة، وعندما طرق الرجال الباب هرب من الباب الخلفي الذي يطل على الحديقة، وهو يصرخ في ابنه: آخرهم خمس دقائق فقط حتى أعود، هل حاول الهرب؟ هل وجد مخارج الحديقة محاصرة؟ هذا ما لم يعرفه أحد أبدًا، وبعد حوالي سبع أو ثماني دقائق عاد بكل هدوء وأجاب عن أسئلة الضباط، ولم يواجهوا أي صعوبة في اقتياده هو وابنه تشارلز، رغم أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره بعد.

- متى حدث هذا؟

- السادس والعشرين جرمينال ([10])، ثم أدار عينيه إلى التقويم المعلق على الحائط، وصاح:

- لكن اليوم يصادف الخامس عشر من أبريل؛ أي هو نفسه اليوم بالتقويم الميلادي، ذكرى اعتقال الجنرال.

قال لوبين:

- صدفة غريبة حقًّا! إذن كان لهذا الاعتقال عواقب وخيمة بلا شك.

- أوه! بالتأكيد، بعد ثلاثة أشهر تم إعدام الجنرال بالمقصلة، وظل ابنه تشارلز بالسجن، وتم صدور قرار بمصادرة كل ممتلكاتهم.

- لقد كان فاحش الثراء، ولديه ممتلكات ضخمة، أليس كذلك؟

- وهنا خصيصًا تعقدت الأمور، هذه الممتلكات الضخمة ظلت مفقودة، فقصر سان جيرمان تم بيعه قبل الثورة إلى رجل إنجليزي، وكذلك كل الأراضي والأملاك الريفية، وتم بيع كل المجوهرات والسندات المالية، وأصدرت الجمعية التأسيسية بيانًا بسرعة إجراء تحقيق مفصل بخصوص هذا الشأن، وبالتالي لم يسفر عن أي نتيجة.

- على الأقل بقي هناك منزل باسي.

- تم بيع هذا المنزل من قِبَل الحكومة إلى ضابط شرطة يُدعَى بروكيه بسعر زهيد، وهو نفسه ضابط البلدية الذي اعتقل الجنرال، ومن بعدها أغلق بروكيه على نفسه في هذا المنزل، وحصَّن الأبواب والجدران جيدًا، وعندما حان وقت إطلاق سراح تشارلز، وذهب إلى المنزل؛ استقبله بروكيه ببعض طلقات نارية من بندقيته؛ محاولًا تخويفه وإرهابه، رفع تشارلز دعوى قضائية وخسرها، وعرض مبالغ ضخمة على بروكيه الذي كان مستعصيًا على التفاوض، لقد اشترى المنزل واحتفظ به، وكان سيحتفظ به حتى وفاته؛ لولا حصول تشارلز على دعم بونابرت في الثاني عشر من فبراير عام 1803، وحينها ترك بروكيه المبنى؛ فكانت فرحة تشارلز هائلة للغاية، فقد عاش أوقاتًا صعبة ولحظات يأس كثيرة وسط كل تلك المحن التي واجهته، وعندما أصبح البيت ملكًا له مرة أخرى، وقف على عتبته، وقبل أن يدخله وقف يغني ويرقص ويضحك ضحكات منتصرة صاخبة، حتى طيرت الفرحة عقله بالفعل، لقد أصبح مجنونًا بالكامل.

- يا إلهي! وماذا حدث بعد ذلك؟

- ماتت أمه وأخته بولين التي انتهى بها الأمر إلى الزواج من أحد أبناء عمومتها، اعتنت الخادمة العجوز بتشارلز، وعاشوا معًا في منزل باسي دون أي أحداث مهمة تُذكَر، ولكن فجأة في عام 1812 وقع تحوُّل مأساوي في الحكاية، حين أدلت الخادمة العجوز بتصريحات خطيرة وهي على فراش الموت، قالت إنه في بداية الثورة حمل الجنرال أكياسًا مليئة بالذهب والفضة إلى منزله في باسي، واختفت هذه الحقائب قبل أيام قليلة من اعتقاله، ووفقًا للأسرار التي حصل

عليها تشارلز من والده كانت تلك الكنوز مدفونة في الحديقة عند الفناء المستدير بين الساعة الشمسية والبئر، وكدليل على هذه الأقوال، ظهرت ثلاث لوحات لم تكن قد وُضِعت في إطارها بعد، رسمها الجنرال في أثناء سجنه، وأرسلها إلى زوجته وابنه وابنته، ولكن فضَّل تشارلز والعجوز الصمت؛ تحت إغراء العثور على الأموال في يوم ما من جانب، وخوفًا من السرقة من جانب آخر، ثم جاءت بعد ذلك المحاكمات والقضايا وعودة القصر وجنون تشارلز وعمليات البحث المضنية للخادمة دون جدوى، فما زالت الكنوز المزعومة في مكانها حتى وقتنا هذا.

صاح لوبين بدهشة:

- ما زالت هناك؟!

- وستظل إلى الأبد، لو لم يكن قد تم اكتشافها بالفعل من قِبَل بروكيه، الذي كان يعلم الأمر بلا شك، ولكن نحن نعُد هذا الاحتمال ضعيفًا؛ لأن بروكيه قد مات فقيرًا.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك جاء أبناء بولين من جنيف، وتم اكتشاف أن تشارلز كان متزوجًا سرًّا، وأنجب أبناءً، كل هؤلاء أصبحوا ورثة الكنز، وبدءوا في عمليات البحث.

- ولكن بالنسبة لتشارلز؟

- لقد كان تشارلز يعيش منعزلًا، ولم يكن يغادر غرفته أبدًا.

- أبدًا؟!

- هذا شيء غريب آخر في هذه القصة، في الحقيقة كان يخرج من غرفته مرة واحدة فقط كل عام، متأثرًا بحركة لا إرادية تدفعه إلى الخارج، فيتتبع طريق والده إلى الحديقة، ويجلس على درجات السلم الدائري الذي ترونه في الرسم هناك، وأحيانًا على حافة البئر من الصباح وحتى الساعة الخامسة وسبع وعشرين دقيقة مساءً، ثم يعود مرة أخرى إلى غرفته، كان هذا يحدث كل عام حتى وقت وفاته عام 1820، لم يُفوِّت أبدًا هذه الرحلة غير المفهومة ولا مرة واحدة، والعجيب أن اليوم الذي كان يخرج فيه خلال السنة هو نفسه تاريخ ذكرى اعتقال والده، الخامس عشر من أبريل في كل عام!

لم يعد السيد فالاندييه يبتسم؛ فلقد أصبح منزعجًا من تفاصيل القصة الغامضة التي كان يرويها لنا.

بعد لحظة من التفكير، سأل لوبين:

- ومنذ وفاة تشارلز؟

- منذ ذلك الوقت -استكمل المحامي حديثه بنبرة جدية شديدة- ولما يقرب من مئة عام، واصل ورثة تشارلز وبولين من إرنيمونت زيارة المنزل في 15 أبريل من

كل عام، في السنوات الأولى، تم إجراء أعمال حفر دقيقة، لم يتركوا شبرًا واحدًا من الحديقة لم يفحصوه، ولا كتلة تراب واحدة إلا وحفروها، الآن انتهى الأمر، فهم بالكاد يبحثون أو ينهضون من أماكنهم، يقومون من وقت لآخر -دون سبب- برفع حجر أو استكشاف البئر، يجلسون على درجات السلم المستدير مثل جدهم الأحمق المسكين، وينتظرون مثله أيضًا كما ترى، هذا هو مصيرهم البائس منذ مئة عام، كل أولئك الذين خلفوا بعضهم البعض، الأبناء بعد الآباء، لقد فقدوا... كيف أصيغها؟ ... روح الحياة، بريق الأمل، لم يعد لديهم الشجاعة للمزيد من المحاولات، فقط ينتظرون... ينتظرون يوم 15 أبريل من كل عام، وعندما يصل يوم 15 أبريل، فإنهم ينتظرون حدوث معجزة. غزاهم اليأس في النهاية، لقد قمت أنا وأسلافي بعمليات البيع تدريجيًّا، أولًا لبناء منزل آخر ذي بنية تحتية قوية، ثم جزء من الحديقة، وقطع من الأراضي الأخرى، لكن هذه المنطقة خلف الجدار فإنهم يُفضِّلون الموت على بيعها. يتفق الجميع على هذا الأمر، وكذلك لويز ديرنيمونت، الوريثة المباشرة لبولين، والمتسولون والعامل والخادم وراقصة السيرك، وما إلى ذلك من ورثة تشارلز البائس.

- وما رأيك أنت يا سيد فالاندييه؟

- رأيي أنه لا يوجد شيء في الأساس، أي ثقة تلك التي نوليها لكلمات خادمة عجوز أضعفها تقدُّم العمر؟ وما أهمية تتبُّع أهواء المجنون؟ علاوة على ذلك، إذا كان الجنرال قد جمع مثل هذه الثروة بالفعل، ألا تعتقد أنه كان من الممكن العثور عليها خلال كل تلك السنوات؟ ففي مساحة صغيرة مثل هذه نستطيع أن نخفي قطعة من الورق، جوهرة واحدة، وليس كنوزًا.

- لكن اللوحات؟

- آه، بالتأكيد، هل هذا دليل كافٍ بالنسبة لك؟

انحنى لوبين على اللوحة التي أخذها المحامي من الخزانة، وبعد فحصها لفترة طويلة:

- هل ذكرت ثلاث لوحات؟

- نعم، واحدة هنا، أُعطِيت لسلفي، المحامي الذي سبقني من قِبَل ورثة تشارلز، ولويز ديرنيمونت تمتلك لوحة أخرى، أما الثالثة فلا أحد يعلم ماذا حدث لها.

نظر إلى لوبين، وتابع:

- وكل واحد منهم كان يحمل نفس التاريخ؟

- نعم، نقشها تشارلز ديرنيمونت، عندما وضعهم في أطر قبل وفاته بفترة وجيزة، نفس التاريخ، (15 - 4 - 2)؛ أي 15 أبريل؛ وفقًا للتقويم الثوري، منذ أن تم الاعتقال في أبريل 1794.

قال لوبين:

- حسنًا، رائع حقًّا، ولكن هذا الرقم (2) يرمز إلى...

ظل يفكر بضع لحظات، ثم قال:

- سؤال أخير من فضلك، هل تطوع أحد من قبل لحل هذه القضية؟

رفع السيد فالاندييه ذراعيه مندهشًا، ثم قال:

- ماذا تقول؟ لقد كانت هذه القصة كارثة هذا المكتب، منذ عام 1820 حتى عام ، فقد استدعى الورثة الأستاذ توريون أحد أساتذتي السابقين هنا في المكتب إلى باسي ثماني عشرة مرة بعد أن وعدهم المنجمون والمحتالون باكتشاف كنوز الجنرال، وبعد أن فاض الكيل تم وضع قاعدة: أي شخص غريب يريد إجراء بحث في هذا الشأن يجب عليه دفع مبلغ معين متفق عليه مسبقًا.

- كم المبلغ؟

- عشرة آلاف فرنك، إذا نجح فإن ثلث الكنز يذهب إلى الشخص، وفي حالة الفشل يذهب المبلغ إلى الورثة، وبهذه الطريقة عرف هذا المكتب طعم الراحة.

- إليك العشرة آلاف فرنك.

قفز المحامي ناهضًا:

- ماذا تقول؟

كرر لوبين وهو يُخرِج أوراقًا مالية من جيبه ويضعها على الطاولة بمنتهى الهدوء:

- أقول لك هذا هو المبلغ، عشرة آلاف فرنك، من فضلك أعطِني الإيصال، واستدعِ جميع ورثة ديرنيمونت في الخامس عشر من أبريل العام المقبل إلى باسي.

بدا المحامي مشوشًا قليلًا، لم يكن يصدق ما يسمعه، أنا أيضًا رغم أني كنت معتادًا على مثل تلك الأفعال الصادمة من لوبين؛ فإنني كنت في غاية الدهشة.

قال فالاندييه:

- هل هذا جاد؟

- جاد للغاية.

- لكني لم أخفِ رأيي عنك في هذا الشأن، كل هذه القصص لم يدعمها أي دليل سوى هذه اللوحات وبعض الأقاويل القديمة.

- وأنا لا أتفق معك في هذا الرأي.

نظر إليه المحامي نظرة شفقة وكأنه ينظر لرجل نبيل فقد عقله، ثم أخذ القلم وقد اتخذ قراره وحرر على ورقة مختومة عقدًا يذكر فيه إيداع النقيب المتقاعد جانيوت مبلغ عشرة آلاف فرنك، ويضمن له ثلث المبالغ التي سيكتشفها، ثم أضاف المحامي:

- إذا غيرت رأيك يُرجَى إبلاغي قبل ثمانية أيام، لن أخبر عائلة ديرنيمونت إلا في اللحظة الأخيرة، ليس الآن؛ حتى لا يعتمد هؤلاء الفقراء البائسون على الكثير من الأمل الكاذب.

- على العكس، يمكنك أن تخطرهم الآن يا سيد فالاندييه، بهذه الطريقة ستمنحهم سنة أفضل يعيشونها.

افترقنا، وبمجرد وصولي إلى الشارع سألته:

- هل تعلم شيئًا بالفعل؟

- لا شيء على الإطلاق، وهذا تمامًا ما يغريني.

- ولكنهم يبحثون منذ مئة عام.

- لا يتعلق الأمر بمدة البحث أكثر من التفكير المنطقي السليم، الآن لديَّ ثلاثمئة وخمسة وستون يومًا للتفكير في الأمر، مدة طويلة بالفعل، وأنا أخاطر وسط مشاغلي كلها بنسيان هذه القضية المثيرة للاهتمام، فلتتكرم يا صديقي العزيز بتذكيري إذا سمحت؛ فسيكون هذا لطف منك.

ولقد ذكَّرته بها بالفعل في عدة مناسبات في الأشهر الثلاثة التي تلت ذلك، رغم أنه لم يكن يوليها أهمية كبيرة، ثم مرت فترة كبيرة جدًّا لم تُتَح لي فرصة لرؤيته، كانت هذه الفترة أيام رحلته إلى أرمينيا كما علمت بعد ذلك؛ حيث الصراع المروع الذي واجهه ضد السلطان الأحمر، والذي انتهى بهزيمة الطاغية، ومع ذلك كتبت إليه تلغرافًا على العنوان الذي أعطاني إياه وتمكنت من إبلاغه ببعض المعلومات التي حصلت عليها من هنا وهناك عن جارتي لويز ديرنيمونت، والتي كشفت عن قصة حب وقعت بها قبل سنوات مع شاب ثري للغاية كان يحبها هو أيضًا، ولكنه اضطر إلى تركها تحت ضغط من عائلته، وقادها اليأس بعد ذلك إلى تلك الحياة البائسة التي تحياها برفقة ابنتها الآن.

لم يرد لوبين على أيٍّ من رسائلي، هل تلقاها في الأساس؟ كان الموعد يقترب، وكنت أتساءل إذا كانت ارتباطاته المتعددة ستمنعه من الحضور في الوقت المحدد.

وبالفعل جاء يوم الخامس عشر من أبريل، كنت قد أنهيت غدائي، ولم يظهر لوبين بعد، وعند الثانية عشرة وربع ظهرًا غادرت إلى ميدان باسي، عندما وصلت أول شارع رينوار رأيت أطفال العامل الأربعة يقفون أمام الباب، أسرع أحدهم لنداء السيد فالاندييه الذي هَم بلقائي صائحًا:

- حسنًا ها أنت هنا، ماذا عن النقيب جانيوت؟

- ألم يأتِ؟

- لا، نحن نتوسل إلى السماء ليأتي، ننتظره بفارغ الصبر منذ فترة.

تجمعت المجموعة بأكملها حول المحامي، كل الوجوه التي تعرفتها على الفور لم تعد تحمل نفس التعبيرات المحبطة التي رأيتها العام الماضي، قال لي السيد فالاندييه بصوت هامس:

- إنهم يأملون، هذه غلطتي، ولكن ماذا كان يتوجب عليَّ أن أفعل؟ لقد ترك لي صديقك انطباعًا محترمًا للغاية، لدرجة أني أخبرت هؤلاء المساكين بكل ثقة والتي لا أشعر بها اليوم كثيرًا، ولكن رغم ذلك فإن السيد جانيوت رجل عجيب فعلًا.

وجه إليَّ عدة أسئلة عن النقيب، وأغدقت عليه بمعلومات خيالية إلى حد ما لتهدئة الوضع؛ بينما كان الورثة ملتفين من حوله، يصغون إلى حديثي في اهتمام،، بعد فترة صمت قالت لويز:

- ماذا لو لم يأتِ؟

رد عليها المتسول:

- سيكون لدينا عشرة آلاف فرنك نتقاسمها معًا.

لكن قوله هذا لم يساعد كثيرًا؛ فقد بعث سؤال لويز داخلهم بعض اليأس، فعبست وجوههم، وساد جو من التوتر فيما بيننا، وفي الواحدة والنصف ظهرًا جلست الأختان النحيفتان وقد بلغ منهما التعب مبلغه، ثم ثار الرجل البدين ذو السترة المهترئة مخاطبًا المحامي بانفعال:

- أنت المسئول أمامنا الآن يا سيد فالاندييه، كان يجب عليك إحضاره طواعيةً أو بالقوة، ثم حدق في وجهي وهو يقول:

- إنه نصاب بالطبع. كما انفعل الخادم أيضًا وسمعته يوبخني من بين أسنانه بصوت منخفض.

ولكن جاء أحد الأطفال فجأة لينقذني قائلًا:

- هناك شخص ما بالخارج يركب دراجة نارية.

سمعنا صوت محرك يقترب، كان هناك رجل يسرع بدراجته النارية نحونا مجازفًا بتحطيم عظامه وهو يقود بهذه السرعة المهولة، توقف أمامنا وأغلق المكابح ثم هبط من فوق الدراجة، وتحت طبقة الغبار التي كانت تغطيه بأكمله كان بإمكاننا رؤية ملابسه الزرقاء القاتمة وسرواله المكوي بعناية، لم تكن ملابسه تدل على أنه نقيب متقاعد، لا قبعته السوداء ولا حذاؤه اللامع الطويل.

قال المحامي مترددًا بعض الشيء:

- ولكنه ليس النقيب جانيوت.

قال لوبين وهو يمد له يده مصافحًا:

- بل أنا النقيب جانيوت، لقد حلقت شاربي فقط، ها هو الإيصال الذي استلمته منك، ثم أمسك أحد الأطفال من ذراعه، وقال له:

- أسرِع إلى محطة السيارات بشارع رينوار، وائتِ بسيارة أجرة؛ فلديَّ موعد عاجل في الثانية والربع، ظهرت بوادر احتجاج حوله؛ فسحب النقيب جانيوت ساعته من جيبه، ونظر بها، ثم قال:

- ماذا هناك؟ إنها الثانية إلا اثنتي عشرة دقيقة، ما زال هناك أكثر من خمس عشرة دقيقة كاملة لأقضيها معكم، رباه كم أنا متعب وجائع!

ناوله الشرطي رغيف خبز من سلته، تناوله ثم جلس يأكل بنهم، وجميع العيون محلقة به، فقال:

- اعذروني أرجوكم؛ فقد وقع حادث بقطار مارسيليا السريع، لقد خرج عن مساره بين محطة ريجون ومحطة لاروش، مات خمسة عشر فردًا، وأصيب كثيرون بجراح بالغة، فكنت مضطرًّا إلى مساعدتهم، وقد وجدت هذه الدراجة بين الأمتعة.. سيد فالانديبه، سيكون لطفًا منك أن تعيدها إلى صاحبها، فما زال الاسم والعنوان موجودين على المقود، ها أنت عدت يا فتي! هل جئت بالسيارة؟

أومأ الطفل برأسه بالإيجاب؛ فقال له لوبين:

- أحسنت يا صغيري، ممتاز.

نظر إلى ساعته قائلًا:

- أوه! لا وقت لنضيعه.

نظرت إليه بفضول شديد، وشعرت بما يمكن أن يشعر به ورثة آل ديرنيمونت تجاهه، بالطبع لم يكن لديهم ثقة بالنقيب جانيوت كما كان لديَّ في لوبين، كانت وجوههم ممتعضة وشاحبة.

مشى لوبين جهة اليسار نحو الساعة الشمسية، كانت قاعدتها المسطحة تتكون من رجل يجلس القرفصاء ذو جذع قوي، يحمل طاولة رخامية فوق كتفه، سطحها العلوي متآكل بشكل كبير، لدرجة أننا نميز بصعوبة الخطوط المحفورة للأرقام اللاتينية وفوقها كيوبيد ([11])، يحمل سهمًا ضخمًا يُمثِّل عقرب الساعة، انحنى النقيب على هذا القرص متفحصًا لمدة دقيقة تقريبًا، ثم قال:

- أريد سكينًا من فضلكم.

في تلك اللحظة دقت الساعة الثانية من مكان ما، فوقع ظل السهم فوق القرص المضاء بنور الشمس على شق في منتصف القرص الرخامي تمامًا،

أمسك لوبين بالسكين الذي ناوله إياه وراح يكشط بنصلها التراب والطحالب والأعشاب النامية فوق هذا الشق الضيق، على عمق عشرة سنتيمترات فقط توقفت السكين، وكأنها اصطدمت بشيء ما، دفع لوبين سبابته وإبهامه، وسحب شيئًا صغيرًا فركه بين راحتَي يديه، ثم قدَّمه إلى المحامي قائلًا:

- تفضل يا سيد فالانديه، هنا، هنا يوجد شيء ما.

لقد كانت ماسة كبيرة بحجم حبة بندق مقطعة بشكل مبهر، عاد النقيب إلى العمل ثم توقف مرة ثانية، مخرجًا ماسة ثانية رائعة الجمال، ثم جاءت ثالثة ورابعة بعد مرور دقيقة، بينما كان يوسع النقيب الفجوة من جانب إلى آخر، ولم يحفر أكثر من عمق عشرة سنتيمترات فقط، استخرج ثماني عشرة ماسة بنفس الشكل وبأحجام مختلفة، خلال ذلك الوقت لم يُسمَع أي صوت ولا صيحة واحدة حول الساعة الشمسية، خيم صمت تام على الحضور، أخرستهم الدهشة، ثم تمتم الرجل البدين:

- يا إلهي!

تبعه الشرطي:

- يا لك من عبقري يا نقيبي العزيز!

سقطت الأختان على الأرض من هول الصدمة، وفقدت إحداهما الوعي، ركعت السيدة الشابة صاحبة الكلب على الأرض، بينما كان الخادم المذهول يترنح مثل المخمور، ممسكًا رأسه بكلتا يديه، أما لويز ديرنيمونت فقد وضعت يدها فوق فمها مذهولة واجتاحتها نوبة من البكاء العنيف، وعندما عاد الهدوء مرة أخرى والتف الجميع ليشكروا النقيب؛ اكتشفوا أنه قد رحل، لم تسمح لي الفرصة لسؤال أرسين لوبين عن سبب رحيله المفاجئ إلا بعد سنوات عديدة، فأجابني:

- أوه حكاية الماسات الثمانية عشرة، ما زلت لا أصدق أن ثلاثة أو أربعة أجيال ظلوا يبحثون عن هذا الكنز طوال هذه المدة دون جدوى، بينما كان أمامهم في هذه الفجوة الصغيرة تحت حفنة من التراب والطين.

- ولكن كيف خمنت هذا المكان؟

- لم أخمن؛ فكرت: هل كنت بحاجة فعلًا إلى التفكير في شيء مثل هذا؟ لا أعتقد؛ فمنذ البداية دُهِشت من أن القضية كلها تدور حول مسألة واحدة مهمة للغاية: التاريخ، قبل أن يفقد تشارلز عقله كتب تاريخًا مهمًّا على اللوحات الثلاث، بينما كان يتخبط وسط تلك العتمة التي يعيش فيها داخل رأسه، كان هناك بصيص من الأمل يدفعه إلى الخروج من غرفته والاتجاه إلى منتصف هذه الحديقة القديمة كل عام في نفس الوقت وحتى الخامسة وسبع وعشرين دقيقة في المساء؟ ما سر هذه الآلية التي اتبعها هذا العقل المضطرب؟ وما القوة الخارقة التي جعلت هذا البائس المسكين يتحرك من مكانه؟ لا شك أنه

المفهوم الغريزي للوقت الذي يمثله على لوحة الجنرال، وهو بالتأكيد: الساعة الشمسية، لفة الأرض حول الشمس، وهي أيضًا التي ترجعه إلى منزله حين تختفي في هذا الوقت تحديدًا، الساعة الخامسة وسبع وعشرون دقيقة؛ حيث إن الشمس كانت محاطة بمبانٍ مختلفة عن المباني الموجودة اليوم، فلم تعد تضيء الحديقة، نستنتج من كل تلك الأشياء الأمر الأكثر أهمية، وهو أن الشيء الذي يرمز لهذا التوقيت وهذا التاريخ هو الساعة الشمسية، لقد أرشدني هذا إلى معرفة من أين يجب أن أبحث.

- لكن كيف استطعت معرفة ساعة البحث تحديدًا؟

- بكل بساطة، لقد تم إعدام الجنرال في الخامس عشر من أبريل عام 1794، وليس 1802، يدهشني أنه لم يفكر أحد في هذا من قبل!

- إذن رقم 2 يشير إلى الساعة؟

- بالتأكيد، لقد بدأ الجنرال بتحويل ثروته لعملات من الذهب؛ كإجراء احترازي، واشترى بهذه العملات ثماني عشرة ماسة رائعة، وحين تفاجأ ذات يوم بوصول رجال الشرطة، هرب إلى الحديقة لإخفاء هذه الماسات، ووقعت عيناه بالصدفة على هذه الساعة التي تشير إلى الثانية ظهرًا؛ فاستجاب إلى علامة الظل التي أحدثها السهم على القرص الرخامي، ومن بعد أن أجاد إخفاء الماسات، عاد مرة أخرى إلى الحديقة.

- شيء محير! فظل السهم هذا يقع كل يوم في الثانية ظهرًا على الشق الرخامي، وليس في 5 أبريل فقط.

- هل نسيت يا صديقي، أن تشارلز هذا كان مخبولًا في هذا الوقت؟ بقيت ذاكرته محتفظة بهذا التاريخ فقط.

- حسنًا، ولكن بما أنك تمكنت من حل اللغز، فقد كان من السهل عليك الدخول إلى الحديقة وسرقة الألماس لمدة عام كامل.

- بالتأكيد فكرت في ذلك، أمر سهل للغاية، لم أكن لأتردد لو كنت أتعامل مع أناس آخرين، ولكني رثيت لحال هؤلاء المساكين، وأنت تعلم إلى حد ما تفكير صديقك لوبين الأحمق، لقد بدت لي فكرة الظهور فجأة لعمل الخير وإبهار هؤلاء الفقراء وإدخال البهجة على نفوسهم تستحق كل هذا العناء، ولو أني أعلم الآن بأنه كان مجرد هراء ما كان عليَّ الانصياع له.

- هراء؟ لقد كان هذا الهراء رائعًا، لقد فزت بست ماسات باهرة الجمال، لا بد أن ورثة ديرنيمونت أعطوك حقك من الماسات بامتنان.

نظر لوبين إليَّ في دهشة، ثم انفجر ضاحكًا:

- بامتنان؟ ألم تعلم إذن؟ حسنًا، لقد كسب النقيب الشجاع جانيوت في هذا اليوم أعداء شرسين، ففي صباح اليوم التالي نظم الأختان النحيفتان والرجل

السمين انقلابًا ضدي، ستتسأل بالطبع عن الإيصال والعقد المكتوب لدى المحامي، وما يتضمن من إثبات لحقوقي، لقد كان من السهل إثبات أنه لا وجود للنقيب جانيوت، إذن فمن أين جاء هذا الرجل النصاب بين ليلة وضحاها؟ ليلجأ إذن للقضاء إذا تجرأ، وسنرى ما يمكنه فعله.

- ولويز ديرنيموت، هل شاركتهم؟

- لا، لقد احتجت لويز ديرنيمونت على هذ الفعل المشين، ولكن لم يكن بيدها شيء لتفعله، علاوة على ذلك، فبعد أن أصبحت غنية عادت مرة أخرى إلى خطيبها، ولم أسمع عنها شيئًا بعد ذلك.

- ماذا حدث بعد ذلك إذن؟

- هكذا يا صديقي، وقعت في الفخ ولم يكن أمامي قانونيًّا سوى التفاوض بهدوء وقبول أصغر وأقل ماسة جمالًا، هذه المغامرة جعلتني أفكر كثيرًا قبل أن أُقدِّم يد العون لأحد، ثم تذمر مستكملًا:

- آه، لم يعد هناك مَن يعترف بالجميل، لحسن الحظ ما زال هناك القليل من الشرفاء مثلي يمتلكون ضمائر، ولا يشعرون بالرضا حتى يؤدوا واجبهم.

الفخ الشيطاني

اندفع طوفان من البشر على مقربة من مدخل مدرج سباق الخيول مرتطمين بنيكولاس دوجريفال، الذي كان واقفًا يضع يده في جيب سترته الداخلي في حذر، فقالت له زوجته:

- ماذا بك؟

- ما زلت قلقلًا بشأن هذه الأموال، أتوجس من وقوع مصيبة ما.

تمتمت متهكمة:

- لا أستطيع فهمك يا دوجريفال! فلماذا تخرج من المنزل إذن وأنت تحمل مبلغًا كهذا؟ تضع كل مدخراتنا وثروتنا في جيبك بكل بساطة، ولا تتذكر كل ما كابدناه من عناء في جمعها!

- أوف! قال بنفاد صبر، وهل من أحد يعلم بأمر هذه الأموال غيرنا؟

تذمرت قائلة:

- نعم، أولا تتذكر؟ هذا الخادم الصغير الذي طردناه الأسبوع الماضي يعلم بشأنها جيدًا، أليس كذلك؟

قال شاب يقف جانبها:

- نعم يا عمتي.

الزوجان دوجريفال وقريبهم الشاب من الوجوه المعروفة جدًّا في ساحات السباق، فكان الناس يشاهدونهم كل يوم تقريبًا بأحد المدرجات، السيد دوجريفال رجل بدين ذو بشرة سوداء، لديه مظهرٌ أنيق إلى حد ما، زوجته مكتنزة الجسم هي الأخرى، ترتدي ملابس مبتذلة نوعًا ما، أما ابن أخيها فكان شابًّا نحيفًا ذا وجه شاحب، عيناه سوداوان وشعره بني، كانت الأسرة تجلس طوال الوقت للمشاهدة، بينما اعتاد جابريل أن يراهن باسم عمه، يمشي هنا وهناك يراقب الخيول، ويستطلع الأخبار من المدرجات ومكاتب المراهنة، يندس بين صفوف الفرسان والساسة ليجمع المعلومات.

كان الحظ حليفهم هذا اليوم؛ فرأى مَن يجلسون جوار السيد دوجريفال أن الشاب قد ذهب وعاد ثلاث مرات إليه حاملًا أموال الفوز.

بمجرد انتهاء السباق الخامس، أشعل السيد دوجريفال غليونه عندما اقترب منه رجل يرتدي سترة بنية اللون ولحية رمادية، انحنى عليه قائلًا:

- هل هذه الأشياء تخصك يا سيدي؟

كان يمسك بيده ساعة ذهبية تتدلى منها سلسلة يلهو بها بين أصابعه.

هَمَّ دوجريفال ناهضًا:

- بالطبع إنها ملكي، ها هو نقش الحروف الأولى من اسمي فوقها (ن. د) نيكولاس دوجريفال، وعلى الفور وضع يده فوق جيب سترته بحركة مضطربة سريعة، ولحسن حظه كانت المحفظة ما زالت هناك.

ثم أردف مستاءً:

- يا إلهي! إنني محظوظ بالفعل، ولكن هل تعرف مَن ذلك الوغد السارق؟

- لقد تم الإمساك به بالفعل، هو الآن في حجرة الأمن، من فضلك اتبعني، سنوضح لك كل شيء.

- هل لي الشرف بالتعرف إليك؟

أجابه مصافحًا:

- المحقق ديلنجل، ولقد أرسلت فورًا لإبلاغ مدير الأمن السيد (ماكروين).

غادر المحقق بصحبة نيكولاس في طريقهما إلى حجرة الأمن، بينما كانا يسيران حول المدرجات، كان بينهما وبين حلبة السباق حوالي مئة وخمسون مترًا، اعترض سبيلهما رجل قال للمحقق بنبرة عاجلة:

- سيد ديلنجل، لقد اعترف السارق بأشياء خطيرة، نحن بصدد القبض على عصابة كاملة، يطلب منك السيد ماكروين انتظاره أمام مكتب الرهانات أمام النافذة الرابعة.

تذمر المحقق قائلًا:

- اللعنة! هناك حشد هائل من الناس أمام مكتب الرهانات، يا له من لقاء غبي! أنا أكره الانتظار، إن السيد ماركوين لن يخلط نفسه وسط هذا الحشد أبدًا.

دفع جانبًا بعض من الناس المحتشدين الذين كانوا يدفعونه بشدة، وقال:

- عليك أن تحمي نفسك ومحفظتك بذراعك جيدًا يا سيد دوجريفال وسط هذه الجموع؛ فهذه هي الطريقة التي تمت سرقتك بها.

- ما زلت لا أستطيع معرفة كيف تم ذلك؟!

- آه لو علمت كيف يعمل هؤلاء الناس؛ يمكنهم تشتيت انتباهك بأي خدعة، مثل: إجبارك على النظر إلى نار بعيدة مشتعلة، أحدهم يمشي ملتصقًا بجوارك، والآخر يربكك بعصاه، والثالث يسلبك محفظتك بخفة، وينتهي الأمر بكل بساطة في ثلاث خطوات سريعة، فأنا الذي أتحدث إليك الآن قد وقعت ضحية لألاعيبهم ذات مرة.

توقف عن الكلام، وقد بدا عليه الضيق:

- أوف! نحن لن نتعفن هنا وسط كل هذا الحشد، إنه أمر غير محتمل، آه، أخيرًا، ها هو السيد ماكروين هناك، هذا الذي يُلوِّح لنا بيده، لحظة واحدة من فضلك،

انتظِرني هنا.

شق المحقق طريقه بين الحشد، وتبعه نيكولاس دوجريفال بعينيه حتى اختفي وسط الزحام، تحرك نيكولاس نحو اليمين بعض الشيء؛ لينأى بنفسه عن الخبطات والتصادم، مرت عدة دقائق وكان السباق السادس على وشك البدء، عندما رأى السيد دوجريفال زوجته وابن أخيها يتجهون نحوه بعد أن أمضوا وقتًا لا بأس به في البحث عنه، فأوضح لهم الأمر، وقال إنه بانتظار المحقق دلينجل الذي ذهب ليتحدث مع مديره السيد ماكروين، سألته زوجته بلهفة:

- هل الأموال ما زالت بحوزتك؟

- نعم، أؤكد لكِ بأن المحقق كان يرافقني طوال الوقت، وما كان ليسمح لأحد بأن يسرقني مرة أخرى وهو بجواري.

وضع يده فوق صدره يتحسس سترته من الخارج، ثم أطلق صيحة فزع، أدخل يده إلى جيبه يتفحصه، ثم صرخ وبدأ يغمغم بكلمات غير مفهومة، قالت مدام دوجريفال بتلعثم:

- ماذا هناك؟

- لقد سُرِقت، المحفظة، الخمسون ورقة نقدية!

صاحت في حالة من عدم الإدراك:

- لا، غير صحيح، قل لي إن ذلك غير صحيح.

- إنه هو، هذا المحقق المحتال.

أخذت السيدة دوجريفال تصيح بأعلى صوت:

- النجدة! الشرطة! لص.. هناك لص هنا، لقد سلب زوجي أمواله، خمسين ألف فرنك، النجدة أرجوكم!

سرعان ما أحاطهم الضباط من كل جانب، وتم اقتيادهم إلى مركز الشرطة، بعد أن استوعب السيد دوجريفال الأمر بقي صامتًا مطرقًا بيأس، بينما كانت زوجته مستمرة في الصياح والحكي وشرْح الأمر لرجال الشرطة وهي تطالبهم بسرعة مطاردة السارق:

- لا بد من القبض عليه، عليكم إيجاده، رجل ذو لحية نامية يرتدي سترة بنية، اللص المحتال! سرق منا خمسين ألف فرنك.. لكن ماذا تفعل يا دوجريفال؟

قالت جملتها الأخيرة وهي تقفز في اتجاه زوجها، صائحة:

- دوجريفاااااااال!!!

ولكنها تأخرت جدًّا، لقد وجَّه السيد دوجريفال فوهة المسدس نحو صدغه

وضغط الزناد، دوى صوت انفجار هائل سقط على إثره السيد دوجريفال صريعًا في لحظة.

بالتأكيد لا يمكننا تجاهل الضجة التي حدثت في الصحف بشأن هذا الحادث المؤسف، وقد تم انتهاز الفرصة لاتهام الشرطة بالإهمال والحماقة، فكيف يمكن لسارق أن يتنكر في هيئة محقق شرطة في وضح النهار وسط جموع من البشر، ويسرق أموال رجل بريء ويدفعه للانتحار، ثم يهرب من العقاب بهذه البساطة؟!

أثارت زوجة نيكولاس دوجريفال عاطفة الناس خلال رثائها لزوجها في المقابلات والحوارات التي أجرتها في المجلات والصحف، فقد تمكَّن أيضًا صحفي مجتهد من التقاط صورة لها جانب جثمان زوجها لحظة انتحاره وهي تنتحب وتتوعد بالانتقام لزوجها المغدور، كان يقف جانبها جابريل ابن أخيها بوجه ممتعض يُحكِم قبضته بعصبية، ويقسم هو الآخر بملاحقة مَن تسبب في ذلك والوصول إليه، كما وصفت الصحف أيضًا المنزل المتواضع الذي يعيشون فيه بحي (باتنيول)، ولأنهم أصبحوا بين ليلة وضحاها دون أي مورد دخل؛ فقد خصصت لهم إحدى المجلات الرياضية بابًا لجمع التبرعات؛ من أجل مساعدة الأرملة وابن أخيها على المعيشة، أما بالنسبة لديلنجل (المحقق المزعوم) فقد كان من الصعب الوصول إليه، تم الاشتباه بشخصين، وتم القبض عليهما بالفعل، ولكن بعد التحقيقات تم إطلاق سراحهما، انطلقت الشرطة في عدة مسارات، ولكن سرعان ما باءت جميعها بالفشل، تم طرح عدة أسماء يُشتبَه بهم، وأخيرًا توصلت الشرطة إلى اتهام أرسين لوبين، أثار هذا الاتهام حفيظته بشدة؛ فأرسل برقية من نيويورك بعد ستة أيام من وقوع الحادث ونشرها في صحيفته المفضلة: «أحتج بشدة على هذا الاتهام الباطل الذي تدعيه الشرطة بظلم؛ لعجزها عن حل القضية، كما أُرسِل خالص التعازي إلى أفراد الأسرة التعيسة، وقد أعطيت أمري للبنك الذي أتعامل معه بتحرير شيك بقيمة خمسين ألف فرنك من أجلهم، أرجو قبول هذا التعويض البسيط؛ دليلًا صادقًا على مدى تعاطفي الكامل».

في صباح اليوم التالي كان هناك شخص غريب يقرع باب السيدة دوجريفال وترك مظروفًا بين يديها، كان المظروف يحتوي على خمسين ألف فرنك بالفعل في داخله، ونتيجة هذا المشهد المسرحي استقطب لوبين الجمهور في صفه كما يفعل دائمًا، ولم يمضِ يومان على هذه الواقعة حتى حدث أمر آخر أثار الرأي العام بشدة؛ استيقظ سكان المبنى الذي تعيش به السيدة دوجريفال وابن أخيها جابريل على صرخات مخيفة في الرابعة صباحا تقريبًا، هرع الجيران مسرعين نحو منزلهم، تمكَّن البواب من فتح باب الشقة، وعلى ضوء شموع الشمعدان الذي كان بيد أحد الجيران، وجدوا جابريل ملقًى على الأرض في غرفته مقيد اليدين والقدمين ومكمم الفم، بينما كانت السيدة دوجريفال في الغرفة المجاورة تنزف بغزارة؛ إثر جرح غائر في صدرها، أخذت تتمتم بصوت متحشرج:

- المال.. لقد سرقوا المال كله، ثم فقدت وعيها.

روى جابريل ما حدث بالتفصيل لضباط الشرطة بعد أن استعاد وعيه مرة أخرى وتمكَّن من الكلام، وأكدت السيدة دوجريفال من بعده نفس روايته تمامًا، فقد تم الاعتداء عليه بينما كان نائمًا من قِبَل رجلين؛ أحدهما كمم فمه، والآخر أوثق قيده، ولم يتمكن من رؤية وجوههم في الظلام الدامس، ولكنه سمع الصراع الذي خاضته عمته في مواجهتهم، قالت السيدة دوجريفال إنها خاضت صراعًا عنيفًا مع أحدهم، وتمكن الآخر من التوجه إلى قطعة الأثاث التي تحتوي على المال، وهو كرسي صغير مبطن بالقطن في جانب الغرفة، مسترشدًا ببعض الحدس، وكأنه يعرف مكانه مسبقًا، ونظرًا لصرخاتها العالية ومقاومتها؛ فما إن وضعا أيديهم على المال حتى هموا بالمغادرة، ولكنها تمكنت في اللحظة الأخيرة من الإمساك بذراع أحدهما وعضه؛ فأخرج على الفور خنجره وطعنها في صدرها، ثم فرا هاربين.

- من أي طريق؟

- من باب غرفتي، إلى الردهة، ثم باب الشقة.

- مستحيل! لو كانوا خرجوا من الباب الرئيس كان البواب سيوقفهم فورًا.

كانت هذه النقطة من أكثر الأشياء غموضًا في القصة، كيف دخل اللصوص إلى المنزل؟ وكيف تمكنوا من الخروج؟ لم يكن هناك مخرج آخر غير باب الشقة؟ فهل كان أحد جيرانهم؟ نفت التحقيقات فيما بعد هذه الفرضية، ومن بعد هذه الحادثة الغامضة تم عرض القضية على كبير المحققين جانيمار، والذي اعترف بدوره بأنه لم يصادف قضية أغرب من تلك التي أمامنا، وعلَّق على الأحداث صراحةً:

- إنه شديد الذكاء مثل لوبين، ولكنه ليس هو، اتهامه يُعَد غير منطقي، لو افترضنا بأنه أرسين لوبين، فلماذا يقاتل من أجل سرقة الخمسين ألف فرنك التي بعثها في الأساس بكامل إرادته؟ مسألة أخرى تحيرني، وهي العلاقة بين السرقة الأولى والسرقة الثانية، تلك التي حدثت في مضمار السباق، القضية يكتنفها غموض عجيب وأحداث غير مفهومة، ليس هناك شكوك تدور حول أي شخص، ولم يكن لهذه الأسرة أي أعداء؛ فإننا نبحث هنا عن سراب؛ لذا فأنا أرى أنه لا فائدة من البحث، وأنسحب من تلك القضية.

لكن قاضي التحقيقات لم ييأس من المحاولة، واستكمل التحقيق، بالإضافة إلى مجهودات الصحافة التي تعاونت بالكامل مع العدالة، جاء المحقق الإنجليزي الشهير عبر المحيط لاستطلاع الحقيقة، كما عرض رجل أمريكي واسع الثراء لديه شغف بحل القضايا الغامضة والمغامرات البوليسية مكافأةً كبيرةً جدًّا لأي شخص يكتشف الخيط الأول وراء الحقيقة.

مرت ستة أسابيع لم يحدث أي شيء جديد، وبالتالي خمدت همة الصحافة بعض الشيء، لم يتوصل أحد لأكثر من نفس الحقائق المعروفة للجميع، وبدأ

الجمهور يميل إلى رأي جانيمار، حتى قاضي التحقيقات قد سئم القضية بأكملها وسط هذه العوائق التي تزداد كلما توغل البحث، أما بالنسبة للأرملة دوجريفال، لقد مضت بها الحياة قدمًا تحت رعاية ابن أخيها، وسرعان ما تعافت من إصابتها، فكان كل يوم في الصباح يساعدها جابريل على الجلوس على كرسي المائدة في غرفة الطعام بالقرب من النافذة، بينما يقوم بأعمال التنظيف، ويخرج بعد ذلك للتسوق قليلًا، ثم يعود ليطهو الطعام دون مساعدة من أحد حتى زوجة البواب التي عرضت عليه المساعدة مرارًا وتكرارًا، لقد سئمت السيدة دوجريفال كثرة المقابلات والحوارات الصحفية؛ فلم تعد تستقبل أي شخص، حتى زوجة البواب نفسها، كانت محادثاتها تثير الملل والإرهاق للأرملة المسكينة، فلم يعد جابريل يسمح لها بالدخول، ولكنها ظلت تعترض طريقه كلما التقته مصادفةً في أثناء صعوده أو هبوطه الدرج، تزعجه بسرد هواجسها وكثرة ثرثرتها:

- لا بد أن أحذرك يا سيد جابريل، فيجب عليك توخي الحذر جيدًا؛ هناك رجال يراقبونكم، فقد شاهد زوجي ليلة أمس رجلًا ينظر إلى نوافذكم فترة طويلة.

- آه! لا بد أنها الشرطة، ما زالوا يتناوبون على حراستنا، هذا أفضل كثيرًا بالتأكيد.

ومع ذلك بعد ظهر أحد الأيام قرابة الساعة الرابعة، وقعت مشاجرة عنيفة في نهاية شارع السيدة دوجريفال بين تاجرين من تجار الفاكهة، اتجه حارس العقار وزوجته ليتابعا الحدث، فما كادوا أن يديرا ظهريهما، حتى تسلل شاب متوسط الطول إلى المنزل يرتدي ملابس رمادية أنيقة أسرع يصعد الدرج، توقف عند الطابق الثالث وقرع الجرس، لم يستجِب أحد، عاود المحاولة مرة أخرى، وعند المرة الثالثة فُتِح الباب، سأل وهو يخلع قبعته:

- السيدة دوجريفال موجودة من فضلك؟

- إن السيدة دوجريفال ما زالت مريضة ولا تستطيع مقابلة أحد.

- آه، يؤسفني ذلك، ولكن من الضروري حقًّا التحدث إليها.

- أنا ابن أخيها، ربما يمكنك التحدث معي أنا.

-فليكن، من فضلك أخبِر السيدة دوجريفال بأن الصدفة، والصدفة وحدها فعلًا قد زودتني بمعلومات مهمة للغاية عن السرقة التي تعرضت لها، وبناءً على ذلك كان لا بد أن أقوم بنفسي بفحص الشقة وأتأكد من بعض التفاصيل المهمة التي قد تُوصِلنا إلى معرفة اللصوص، أنا شخص معتاد هذه التحقيقات؛ نظرًا لأنها وظيفتي الفعلية، ومن المؤكد أن تدخُّلي في الأمر سيعود إلى صالحكم في النهاية.

تفحصه جابريل جيدًا من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، ثم قال له:

- في هذه الحالة، أعتقد أن عمتي ستوافق على مقابلتك ولو لبضع دقائق.

فتح باب الشقة، وأفسح مجالًا للزائر ليتمكن من الدخول، والذي بدوره مشى حتى عتبة باب غرفة الطعام، وفي تلك اللحظة رفع جابريل ذراعه وبحركة لم يكن يتوقعها أبدًا طعن الرجل في كتفه، ودوى صوت ضحكات صاخبة في الحجرة، كانت السيدة دوجريفال تضحك وهي تنهض من مقعدها صائحة:

- ممتاز يا جابريل! ولكنك لم تقتل هذا الوغد، أليس كذلك؟

- لا أعتقد هذا يا عمتي؛ النصل قصير، ولم أطعنه بعمق.

ترنح الرجل ومد يده للأمام يريد التشبث بشيء، بينما شحب وجهه كالميت.

قالت الأرملة بنبرة نصر:

- يا لك من أحمق! لقد وقعت في الفخ، حظك سيئ للغاية، كنا ننتظرك منذ وقت طويل، وها قد جئت بقدميك إلينا أيها الولد المطيع، هيا اجثُ على ركبتيك واسقط منهزمًا أمامي، أيزعجك هذا؟ يا إلهي! كم تمنيت أن يكون دوجريفال موجودًا هنا في تلك اللحظة ليراك، هيا يا جابريل أكمِل مهمتك.

ذهبت إلى غرفتها، وفتحت خزانة الملابس، دفعت الملابس جانبًا، وفتحت بابًا آخر في آخر الخزانة يؤدي مباشرةً إلى غرفة أخرى في المنزل المجاور، قالت مخاطبة ابن أخيها:

- ساعِدني على حمله يا جابريل، علينا أن نرعاه جيدًا في الوقت الحالي، حتى يحين وقت الحساب.

في الصباح استعاد الرجل وعيه، فتح أجفانه ونظر حوله، كان مستلقيًا في غرفة أكبر من تلك التي كان بها، حوله بعض الأثاث والنوافذ مغطاة بستائر سميكة من أعلى إلى أسفل، ومع ذلك كان هناك ما يكفي من الضوء الذي تمكَّن خلاله من رؤية الشاب جابريل والأرملة دوجريفال جالسين يراقبانه في صمت، وما إن رأى الشاب حتى قال له:

- ها أنت ذا يا صغيري، أهنئك كثيرًا لديك يد ماهرة في استخدام الخنجر، وهذا يبشر بمستقبل ناجح، ثم فقد وعيه مجددًا.

استيقظ أكثر من مرة في هذا اليوم والأيام التي تلت ذلك، في كل مرة يفتح عينيه يرى أمامه الشاب النحيف ذا الوجه الشاحب والعينين السوداوين، يحمل وجهه تعابير قاسية؛ على الرغم من رقة ملامحه، قال له ذات مرة:

- أنت تخيفني حقًّا أيها الفتي، فلو كنت أقسمت على قتلي فلا تتردد، أنا شخص يرحب بالموت في أي وقت، وأعتقد أنه من أظرف الأشياء التي يمكن أن تحدث لي يومًا ما، لا مانع لديَّ بأن يكون على يدك، ولكنك تجعل من الأمر شيئًا مروعًا بوجهك المتجهم دائمًا هذا، ولذلك أُفضِّل الرجوع للنوم مرة أخرى، عمت مساءً.

ورغم ذلك فإن جابريل كان يعتني بالرجل جيدًا؛ بأمر من السيدة دوجريفال،

كان يوليه الكثير من الاهتمام والرعاية اللازمة حتى استعاد صحته شيئًا فشيئًا، لم يعد يعاني من الحمى، وبدأ بتناول بعض الحليب والمرق، كما بدأ في التحدث لفترات أطول واستعادة روح التهكم والسخرية في كلامه، فقال مازحًا:

- متي تنتهي فترة النقاهة لديكم؟ عليَّ الخروج في مهمة عاجلة وسيارتي جاهزة، وأعدك بأني سآتي مرة أخرى بعد فترة لزيارتكم، هيا أيها الولد ابتسامة واحدة على الأقل، فإنك تبدو مثل شجرة الصفصاف الذابلة.

ذات صباح حينما استيقظ من النوم تملَّكه شعور قوي بالعجز الفعلي، وبعد أن بذل مجهودًا لرفع رأسه قليلًا من على الوسادة؛ أدرك أنه مقيد الذراعين والصدر والساقيين بأسلاك معدنية رفيعة للغاية وقوية مثبتة بالفراش، تحز بجسده كلما تحرك محدثةً ألمًا رهيبًا؛ كأنها تقطع جلده عند القيام بأقل حركة، فقال بتهكم:

- إنها المواجهة الكبرى إذن، الدجاجة معدة للذبح الآن، أأنت مَن سيقوم بهذه العملية الصعبة يا جابريل الملاك؟ في هذه الحالة أرجو التأكد من تعقيم الخنجر بعد إذنك، أرجو أن يتم كل شيء بمنتهى النظافة والدقة هذه المرة، كما أرجو...

قاطعه صوت مزلاج الباب وهو يدور، ثم فُتح الباب، ودخلت السيدة دوجريفال، اقتربت منه ببطء حاملةً كرسيًّا خشبيًّا خفيفًا وجلست بجواره، أخرجت مسدسًا صغيرًا من جيبها وضعته فوق المنضدة بجوارها، فقال الرجل بنفس نبرته الساخرة:

- إحم، إحم، يا له من رعب حقًّا! تبدو مواجهة شرسة، ليلة الحكم النهائي، هل سيُنفَّذ حكم الإعدام على يد الجنس اللطيف؟ يا له من شرف سأناله يا سيدتي العزيزة دوجريفال! أنا أعتمد عليكِ الآن، أرجو ألا يصيبني تشوه بالغ الصعوبة.

قالت السيدة في نبرة قاطعة:

- اخرس يا لوبين.

- آه، لقد توصلتِ إلى هذا بمفردكِ حقًّا؟ ما أشد نباهتكِ!

- لقد قلت لك اخرس.

كانت نبرتها قوية، أثارت إعجاب الأسير وأجبرته على الصمت أيضًا، أخذ يُحوِّل نظره بينهما، الأرملة دوجريفال القوية ذات الوجه الممتلئ وابن أخيها الضعيف ذو الوجه الشاحب والملامح الرقيقة، كان كلاهما لديه نفس الوجه المتجهم والتعبيرات القاسية التي لا تلين، انحنت الأرملة، وقالت:

- هل أنت مستعد الآن لتجيب عن أسئلتي؟

- لم لا؟

- إذن اسمعني جيدًا.

- كلي آذان مصغية.

- كيف علمت في يوم السباق أن دوجريفال كان يحمل معه كل أمواله؟

- ثرثرة الخادمين.

- الخادم الصغير الذي كان يعمل لدينا، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل أنت مَن سرق ساعة دوجريفال في البداية ثم أعدتها إليه فيما بعد لتكسب ثقته؟

- نعم، أليست خدعة بسيطة وظريفة؟

حاولت قمع غضبها ولكنها لم تتحكم بنبرة صوتها العالية، وصاحت بغضب عارم:

- مجرم، يا لك من مجرم! تسرق مدخرات زوجي بأكملها وتدفعه للانتحار، ثم ويا للبجاحة! بدلًا من أن تختبئ في الجانب الآخر من العالم، تظهر بكل جرأة وتستكمل لعبتك من وسط باريس، لقد نسيت بأني أقسمت برأس زوجي المغدور بأن أسترد حقه وأجد المذنب الحقيقي.

- هذا ما يحيرني تمامًا، لماذا اشتبهتِ بي أنا خصيصًا؟

- لماذا؟! لأنك مَن كشفت نفسك أيها الغبي.

- كيف ذلك؟

- أنسيت الخمسين ألف فرنك؟

- مهلًا، وماذا في ذلك؟ إنها هدية لطيفة، تعويض قدمته إليكم بكل لطف.

- هدية؟ نعم، هدية مقبولة، تلك الهدية التي أرسلتها بالبريد؛ لكي توهم الناس بأنك كنت في أمريكا يوم السباق، يا لها من خدعة ماهرة، لقد أزعجك ضميرك إلى حد ما بسبب هذا الرجل الأبله الذي قتل نفسه إثر فعلتك الحمقاء؛ فأرسلت الأموال مرة أخرى لأرملته البائسة وبشكل علني؛ لأنك مولع بهذه الأفعال المبالغ فيها لاكتساب عطف وإبهار العالم، لتظهر كم أنت شخص طيب وشريف، لكنك ارتكبت خطأً فادحًا هذه المرة، لم يكن من المفترض يا سيدي الخبير أن ترسل نفس الأوراق المالية التي سرقتها من دوجريفال أيها المغفل، لقد كنت أعرف أرقامها جيدًا أنا وزوجي، لقد كنت غبيًّا كفاية لترسل الأموال نفسها، هل أدركت مدى غبائك الآن؟

ضحك لوبين وهو يقول:

- حماقة واضحة فعلًا، لكن صدقيني لم أكن أنا المسئول عن تلك الغلطة الفظيعة، لقد أعطيت أوامري ليس إلا، ومع ذلك لا يمكنني إلا أن ألوم نفسي.

- ها أنت تعترف، لقد كان هذا الطرد البريدي وثيقة إدانتك ودمارك، لم يبقَ أمامنا سوى البحث عنك وإيجادك، والحكمة تقول إذا تعذر عليك الوصول لشخص ما فعليك أن تجعله هو بنفسه يصل إليك، وهذا ما فعلناه تمامًا، والفضل في هذه الخطوة يرجع إلى ابن أخي جابريل، والذي يكرهك بقدر ما أفعل، يعرف شخصيتك تمامًا مما تتداوله الصحف والمجلات من مغامرات وألاعيب أرسين لوبين الشهير، يعرف طبيعتك التي تسعى وراء كل ما هو غامض، ودس أنفك في كل ما لا يخصك، يعرف هذا الوجه الطيب المصطنع والعاطفة الزائفة التي تجعلك تذرف دموع التماسيح على مرأى ومسمع ضحاياك؛ فقام بتخطيط كامل لسيناريو السرقة الثانية، دخول لصين وسرقة الخمسين ألف فرنك، آه! أقسم لك بأن جرح السكين الذي صنعته بنفسي لم يسبب لي أي ألم على الإطلاق، لقد كنت ممتلئة بشعور الحقد والرغبة في الثأر، وما كنت أفعله كان هو السلوى الوحيدة لتعزيتي، وأنا أدبر لك المكيدة التي ستجعلك تأتي بين يدي بسهولة، لقد قضيت فترة أمل كبيرة بينما كنت أنتظرك، تجاهلت شركاءك الذين كانوا يتجولون كل ليلة تحت نوافذنا، يدرسون المكان جيدًا استعدادًا لمجيئك، لم يكن هناك أي احتمال للخطأ، كنت على يقين من قدومك بما أنك أعدت الخمسين ألف فرنك إلى الأرملة المسكينة؛ فلن تقبل بسهولة سرقتهم هكذا دون معرفة هوية السارق، لقد توجب عليك المجيء منجذبًا برائحة الغموض التي تأسرك، مغرورًا بقدرتك ومهارتك في حل أصعب الألغاز وها أنت ذا هنا، لقد وقعت في الفخ؛ تمامًا كما توقعت. ثم أخذت تضحك بتشفٍّ وغل واضح من أعماق قلبها، وبعد لحظات توقفت قائلة:

- هل أعجبتك هذه الخطة يا لوبين، يا سيد الألغاز؟ لقد وقع من لا يُقهَر ولا يُهزَم في فخ نصبته امرأة وشاب مراهق، ها هو الأحمق المغرور بشحمه ولحمه مقيد اليدين والقدمين، لم يعد خطيرًا بعد الآن، ليس سوى جبان أعزل.

كانت فرحة النصر تجتاحها، نهضت وأخذت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهي تراقب لوبين والشرر يتطاير من عينيها المليئتين بالحقد والشر مثل حيوان مفترس يراقب فريسته، لم يرَ لوبين مثل هذا الغل الدفين في عدو له -وخاصةً امرأة- من قبل.

تمتمت بصوت منخفض:

- يكفي كلامًا بلا طائل.

ثم عادت إلى مقعدها مسيطرة على انفعالاتها، وقالت بنبرة قوية وصوت هادئ:

- على مدى الاثني عشر يومًا الماضية يا لوبين، بينما كنت مريضًا، وبفضل الأوراق التي وجدتها في جيوبك ومحفظتك لقد قمت باستغلال الوقت جيدًا

في دراستها، وأصبحت أعرف أشياء كثيرة عنك وعن مغامراتك وأسمائك المستعارة وأفراد عصابتك، كل المنازل التي تمتلكها في باريس، حتى إنني قمت بزيارة أحدها بنفسي، وهو المكان الأكثر سرية، مخبؤك الآمن لكل أوراقك وسجلاتك المالية وتواريخ عملياتك السابقة، ولن أخفي عنك؛ لقد كانت نتيجة هذا البحث مذهلة، لقد استطعت الحصول على أربعة شيكات انتزعتها من دفاتر شيكاتك الأربعة التي تعود لأربعة حسابات مختلفة في البنوك، وقد ملأت كل منها بمبلغ مالي بسيط قيمته عشرة آلاف فرنك؛ لو زدت المبلغ كان من الممكن أن أثير الريبة، والآن لن ينقص سوى توقيعك، والذي سيملأ الفراغ هنا حالًا بكل هدوء.

قال لوبين مندهشًا:

- يا له من ابتزاز صريح يا سيدة دوجريفال!

- هل يدهشك هذا؟

- للأسف.

- إذن هل تجد عدوك يساويك في الكفاءة؟

- نعم، بل تفوقت عليَّ أيضًا كما أرى؛ فإن هذا الفخ، ودعينا نسميه (الفخ الشيطاني) الذي وقعت فيه لم يُنصَب من قِبَل امرأة متعطشة للانتقام فقط، ولكن سيدة أعمال محترفة تحرص على زيادة ثروتها.

- بالضبط.

- أهنئكِ حقًّا يا سيدتي، ولكن بينما أفكر في الأمر جيدًا، دعيني أسألك سؤالًا يحيرني، هل كان السيد دوجريفال زميلًا لي في نفس المهنة؟

- ها قد عرفت يا لوبين، لماذا عليَّ الإنكار؟ هل الاعتراف بذلك سيريح ضميرك بعض الشيء؟ إذن نعم، لقد كان له نفس مهنتك، ولكن ليس مثلك بالتأكيد، لقد كنا نقوم بأعمال متواضعة، عملة ذهبية من هنا، وعملة فضية من هناك، وبعض المحافظ التي يسرقها جابريل في أثناء السباق بعد أن علمناه جيدًا أصول مهنتنا البسيطة، وبهذه الطريقة جمعنا ثروة لا بأس بها، تكفي لشراء منزل صغير في الريف.

- أتمنى أن أحيا حياة بسيطة كهذه.

- لك أن تتمنى، الآن قد أخبرتك بهذه الحقيقة؛ حتى لا تأمل كثيرًا، فأنا لست مبتدئة، والتفكير في الفرار لن يفيدك، هذه الغرفة التي نحن بها الآن متصلة تمامًا بغرفتي، وليس هناك سوى مخرج واحد فقط لا يعلمه أحد إطلاقًا، لقد كانت هذه شقة دوجريفال الخاصة؛ حيث اعتاد أن يقابل أصدقاءه ومعاونيه في العمل، يحتفظ فيها بأدواته ومعداته وملابسه التنكرية وهاتف خاص به أيضًا؛ لذا لا يوجد الكثير لتتطلع إليه، أما بالنسبة لباقي أفراد عصابتك فقد توقفوا عن

البحث عنك، أو بالأحرى لقد ضلوا طريقهم في البحث عنك بعد أن خدعتهم باتباع أثر زائف، لقد خسرت هذه المرة يا لوبين، هل أدركت وضعك الحالي؟

- نعم.

- إذن وقِّع الأوراق.

- وبعد أن أوقع، هل سأنال حريتي؟

- لا بد أن تعطيني الأوراق أولًا.

- هل تعطيني وعدًا بذلك؟

- أقسم لك بروحي بأنك ستغدو حرًّا وقتها.

- يا إلهي! لا أستطيع أن أثق بامرأة مثلك.

- وهل لديك خيار آخر؟

- هذا صحيح، أعطيني الشيكات.

أزالت قيد يده اليمنى، وناولته القلم وهي تقول:

- تذكر أن الشيكات الأربعة تحتاج إلى أربع توقيعات مختلفة، وعليك تغيير خطك في كل مرة.

- لا تقلقي، أدرك تلك الأمور.

ثم وقَّع الشيكات، تناولتها المرأة وهي تقول لابن أخيها:

- يا جابريل، الساعة الآن العاشرة لو لم أكن هنا بحلول الظهيرة، فمن المؤكد أن هذا البائس قد خدعني، فحطِّمْ رأسه على الفور، سأترك لك المسدس نفسه الذي انتحر به دوجريفال، ما زال به خمس طلقات من أصل ستة، سيكون هذا عادل إلى حد كبير.

غادرت الغرفة وهي تدندن بأغنية مشهورة، ساد صمت طويل بعدها قطعه لوبين فجأة قائلًا:

- لم أتخيل أبدًا أني سوف أنفق فرنك واحدًا ثمنًا لحياتي في يوم ما.

أغمض عينيه بعض اللحظات، ثم قال لجابريل:

- كم الثمن؟ كم تريد؟

وبما أن الآخر لم يبدُ عليه بأنه سمع شيئًا؛ فكرر لوبين كلامه حانقًا:

- هيا أيها الفتى، أنا أتحدث هنا، كم تريد من المال؟ نحن أبناء مهنة واحدة، أنا أسرق وأنت تسرق؛ لذا يجب أن نتوصل إلى أمر ما يجعلنا رابحين معًا، ساعِدني لنفر من هنا، سأعرض عليك وظيفة دائمة ومكانًا مرموقًا في

عصابتي، أجرًا عظيمًا لن تتخيله، هيا حدِّد كم تريد لنفسك، عشرة آلاف؟ عشرين ألفًا؟ حدّد السعر المناسب لك دون تردُّد؛ فخزانتي تحت أمرك في تلك اللحظة.

انتفض من الغضب عندما رأى وجه الشاب الهادئ ينظر إليه في جمود دون أي تعبير؛ فقال بعصبية:

- ما بك أيها الشقي؟! لم تكلف نفسك عناء الرد حتى! لماذا؟ أمن الممكن أن تكون مخلصًا للسيد دوجريفال إلى هذا الحد؟ اسمعني جيدًا، لو أنك ستساعدني على الهروب من هنا، إذن عليك...

ولكنه توقف عن الحديث عندما رأى هذا التعبير القاسي يعتلي وجه الشاب من جديد؛ فأدرك أنه لا جدوى من الحديث معه؟ هل يأمل فعلًا من هذا الوجه المتجهم شديد الحقد والكره أن يخلصه؟

تمتم بينه وبين نفسه في حنق:

- اللعنة! اللعنة عليهم جميعًا، لا يمكن أن أظل قابعًا هنا عديم الحيلة، لو استطعت فقط أن أتخلص... وجمد عضلاته فجأة محاولًا التخلص من قيده، ولكن دون جدوى، لقد أطلق صرخة ألم رهيبة، ثم تهاوى خائر القوى يائسًا فوق السرير مرة أخرى، وتمتم:

- يبدو أن الأرملة كانت على حق فعلًا، لقد خسرت المعركة، ولم يتبقَّ لي شيء لفعله، يا للخسارة يا لوبين!

مرت ربع ساعة ثم نصف ساعة أخرى، مضى جابريل في اتجاه السرير يستطلع حال لوبين؛ فوجده مغمض العينين، تنفسه منتظم وهادئ، ظن أنه نائم، ولكن لوبين قال فجأة:

- لا تعتقد أني نائم أيها الساذج، لا يستطيع أحد أن ينام وهو مقيد هكذا، أنا أفكر قليلًا، إنه الشيء الوحيد المسموح لي به الآن على الأقل، أفكر فيما سيحدث بعد الموت؛ الحياة الأخرى! أعتقد بأن لديَّ وجهة نظر حول هذا الموضوع، أنا شخص أؤمن بعملية التناسخ وانتقال الأرواح، سيستغرق مني الأمر وقتًا طويلًا لشرح ذلك، ولكن بما أنها النهاية، فقبل أن نفترق إلى الأبد، عليك أن تصافحني كرجل، لقد اعتنيت بي جيدًا في آخر أيام حياتي، وأود شكرك على ذلك، كلا أيضًا؟ حسنًا إذن وداعًا، وأرجو لك عمرًا طويلًا وحياةً هانئةً يا جابريل، ثم أغمض عينيه، وعم الصمت حتى عادت السيدة دوجريفال بعد الظهيرة بقليل، بدت متحمسة للغاية وهي تقول لجابريل:

- هيا، لقد حصلت على المال، اسبقني إلى السيارة أمام المنزل، وسوف ألحق بك على الفور.

- ولكن هل ستتمكنين وحدك من فعل ذلك؟

- بالتأكيد، لست بحاجة إليك لأتخلص من هذا الوغد، أستطيع القيام بذلك بمفردي، ولكن إذا كنت تفضل مشاهدته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فليس لديَّ مانع، أعطِني المسدس من فضلك.

ناولها جابريل المسدس، فسألته:

- هل قمت بإحراق جميع الأوراق والمستندات التي تخصنا في هذه الشقة؟

- نعم.

- إذن فلتركض فور إطلاق النار إلى الخارج؛ لأنه بمجرد سماع صوت الرصاص سيهرع الجيران إلينا، ولا بد حينها أن يجدوا الشقتين فارغتين.

وقفت جوار السرير، ثم قالت:

- هل أنت مستعد يا لوبين؟

- نعم، فأنا لا أطيق الانتظار.

- أليس لديك أي أمنية أخيرة قبل أن تصبح جثة هامدة؟

- لا اعتقد هذا.

- إذن...

قاطعها قائلًا:

- مجرد سؤال أخير بعد إذنك، إذا قابلت السيد دوجريفال في الحياة الأخرى، فماذا عليَّ أن أخبره عنكِ؟ هل لديك أي رسالة تريدين إيصالها إلى زوجكِ العزيز؟

هزت كتفيها في لا مبالاة، ووجهت فوهة المسدس إلى جبين لوبين الذي قال مشجعًا:

- لا ترتجفي يا سيدتي، الأمر بسيط للغاية، اضغطي الزناد بعد العد؛ واحد، اثنان، ثلاثة.. ودوى صوت انفجار بالفعل.

ولكنهم بعد لحظة سمعوا صوت لوبين يقول:

- أهذا هو الموت؟ غريب جدًّا! لقد كنت أعتقد بأنه مختلف بعض الشيء عن الحياة.

دوى صوت المسدس مرة أخرى، ثم سحب جابريل المسدس من يد عمته وفحصه:

- لقد تم نزع الرصاص، لم يبقَ سوى الطلقات الزائفة، توقفا مذهولين بلا حراك لفترة، ثم تلعثمت قائلة:

- هل من الممكن أن يكون المحقق الذي تولى القضية من بعد موت دوجريفال

هو الذي نزعها؟ لقد كان المسدس في خزانة الشرطة بعدها.

بقي جابريل صامتًا، بينما قالت:

- ما هذا؟ أسمع صوت ضجة بالخارج.

ذهبت لتسترق السمع، ثم عادت مرة أخرى لتقول:

- لا أحد في المنزل، ولكن لا بد أن الجيران سيجتمعون بعد قليل ليتساءلوا عن سبب هذه الأصوات، ما زال أمامنا بضع دقائق، ثم قالت بنبرة ساخرة:

- هل بدأ الأمل يتسرب إلى قلبك مرة أخرى يا لوبين؟ عليك قتله إذن، أعطِني الخنجر يا جابريل.

- إنه بغرفتي.

- اذهب وأحضِره فورًا.

- أسرع جابريل راكضًا نحو غرفته، بينما كانت السيدة دوجريفال تستشيط غضبًا:

- لقد أقسمت بأن أجعلك تعاني، أقسمت بروح دوجريفال صباحًا ومساءً وأنا جاثية على ركبتَي أمام الله الذي يسمعني، أن أسترد حقي منك وأنتقم لزوجي، ماذا بك يا لوبين؟ أرى أنك أصبحت لا تبالي، لقد غادرتك نبرة السخرية وروح الدعابة والعند إلى غير رجعة، لا أرى سوى وجه مرتعب أمامي، أستطيع أن أرى الخوف في عينيك، تعالَ يا جابريل لترى هذا المنظر، هاتين الشفتين المرتجفتين، هيا يا جابريل، أعطِني هذا الخنجر لأغرزه في قلبه وأرحمه من هذا الرعب، يا لك من جبان! أسرِع بالخنجر يا جابريل.

قال الشاب وهو يركض نحو الحجرة لاهثًا:

- لم أستطِع إيجاده، لقد اختفى من غرفتي، ولا أفهم كيف حدث هذا؟

صاحت المرأة بجنون:

- حسنًا، هذا أفضل، سيسعدني الآن أن أقبض أنفاسه بيدي.

وانقضت على لوبين ممسكة برقبته بين يديها تغرز أصابعها القوية في رقبته، واستسلم لوبين مطلقًا صيحة نجدة مكتومة، عيناه جاحظتان في رعب، وفجأة! تحطم زجاج إحدى النوافذ محدثًا صوتا هائلًا؛ نهضت السيدة مذعورة تنظر حولها:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

تمتم جابريل ووجهه شاحب أكثر من المعتاد:

- لا أعرف ماذا حدث؟!

لم تجرؤ الأرملة على التحرك قيد أنملة، بقيت ساكنة متجمدة في مكانها تقول بصوت منخفض:

- مَن يستطيع فعل هذا؟

سيطر على تفكيرها شيء مهم، لم يكن على الأرض أي أثر لقطع الزجاج المحطم، مع أن النافذة قد تحطمت بالفعل أمامها؛ بسبب إلقاء جسم ثقيل خلالها، قطعة من الحجر مثلًا، بعد لحظات تمكنت من الحركة؛ فذهبت لتفتش الخزانة وتحت السرير؛ فلم تجد شيئًا، وقالت:

- لا شيء أبدًا!

وقال ابن أخيها الذي ذهب ليبحث هو الآخر:

- لا شيء أيضًا!

قالت بصوت خفيض لابن أخيها:

- أنا خائفة، لقد خذلتني يدي، ولن أقوى على القيام بشيء.

- لقد ازداد قلقي أيضًا.

- ولكن يجب أن أقتله، لقد أقسمت على هذا.

عادت نحو لوبين مرة أخرى، أمسكت برقبته بقوة بين أصابعها المرتعدة، لكن لوبين كان يتفحص وجهها الشاحب، وكان متأكدًا بأنها لن تقوى على قتله، لقد بدأت ترتجف خائفة، لقد أصبح الأمر وكأنه لعنة ما تلاحقها لا تستطيع قتله أو خنقه؛ كأن هناك قوة خفية تحميه وتحفظه من أي عدوان، لقد نجا من الموت ثلاث مرات بطرق غامضة، وبالطبع كلما حاولت كان هناك طرق أخرى تجنبه الموت، وربما تتسبب في إيذاء نفسها لو حاولت أكثر.

أرخت قبضتها أخيرًا في حركة يائسة، ثم قالت:

- بالطبع تريد الشماتة والتهكم الآن؟

- إطلاقًا، لو كنت مكانك لأصابني الرعب أيضًا.

- أتسخر مني أيها الوغد؟ تتخيل أنك ستنجو وأن أصدقاءك المخلصين قد حضروا لمساعدتك؟ يا لك من مغفل إذن!

- لا أظن ذلك، لقد أدركت جيدًا أنه ما من أصدقاء مخلصين لنجدتي، لا يوجد ولا شخص واحد يستطيع الدفاع عني هنا.

- جيد.

- على الرغم من ذلك على القول إن هناك شيئًا غريبًا يحدث، قوة خفية ما تجعلك ترتعدين أيها السيدة الجميلة.

- إنك بائس، اضحك كما شئت، فلن تتمكن من ذلك بعد الآن.

- أشك في هذا.

- سترى.

أطرقت طويلًا، ثم حدَّثت ابن أخيها بصوت منخفض:

- ماذا ترى الآن؟

- نُحكِم وثاقه جيدًا مرة أخرى ونهرب.

كان اقتراحًا قاسيًا بالطبع، لو تم تنفيذه لقُضِي أمر لوبين حتمًا، وبأبشع طريقة يمكن تخيلها، سيموت بردًا وجوعًا.

قالت الأرملة:

- لا، ربما سيجد وسيلة للهرب، هذا الشيطان لا يمكن الوثوق به حتى لو كان مقيدًا بكل حبال العالم، هناك طريقة أفضل من ذلك.

التقطت سماعة الهاتف، وطلبت الرقم (82248)، قائلة:

- قسم الشرطة من فضلك؟ آه، مرحبًا، هل يمكنني التحدث إلى المحقق جانيمار؟ سيأتي بعد عشرين دقيقة؟ يا له من حظ سيئ! حسنًا، عندما يصل أرجو منك إبلاغه بهذه الرسالة نيابةً عني، أنا السيدة دوجريفال، أخبِره أن يأتي إلى منزلي، ويفتح باب خزانة الملابس الخاصة بحجرتي ويدير المرآة، سيجد أنه هناك ممر خفي يؤدي مباشرةً إلى غرفتين سريتين، يوجد بإحداهما رجل مقيد، إنه اللص الذي سرقني وسرق زوجي، أنت لم تصدقني بالتأكيد، ولكن يتوجب عليك توصيل هذه الرسالة تمامًا إلى جانيمار، هو سيصدقني.. آه، نسيت أن أخبرك باسم اللص: أرسين لوبين.

ودون إضافة كلمة أخرى أغلقت السماعة.

قالت بنبرة نصر ساخرة:

- ما رأيك يا لوبين؟ تعجبني هذه الطريقة في الثأر كثيرًا، سأستمتع بقراءة خبر القبض عليك في الصحف غدًا، ومتابعة تطورات محاكمتك، هيا يا جابريل، وداعًا يا لوبين، بالتأكيد لن أراك مرة أخرى؛ لأننا سنترك فرنسا بأكملها، ونسافر إلى الخارج، أوعدك بإرسال بعض الحلوى عندما تذهب للسجن.

رد عليها لوبين متهكمًا:

- يا للكرم! أحب الشيكولاتة كثيرًا، أتمنى أن نأكلها معًا ذات يوم، إلى اللقاء.

خرجت الأرملة مع ابن أخيها، وتركا لوبين بمفرده ما زال مقيدًا فوق السرير، قام على الفور بتحريك ذراعه الحرة محاولًا تحرير نفسه، وبمجرد المحاولة تأكد من

استحالة قطع الحبال الفولاذية التي تقيده، كما أنه خائر القوى، جسده يؤلمه من آثار الحمى والجرح، أخذ يفكر فيما يمكن أن يفعله خلال عشرين أو ثلاثين دقيقة قبل وصول جانيمار إليه، لم يعد يعتمد على أي فرد الآن، لقد تم إنقاذه ثلاث مرات، ومن الواضح أن ذلك كان ضربة حظ ليس إلا، كان عليه التخلي عن أي أمل، جانيمار على وشك الوصول، وسيجده مقيدًا في حالة يُرثَى لها، هذه النتيجة الحتمية لا مفر منها، لقد استطاع خياله تصوير ضحكات السخرية من عدوه القديم؛ فسمعها وكأنها حقيقية تتردد في أذنه بقسوة، وفي اليوم التالي ستنشر الصحف الخبر المثير: إلقاء القبض على أرسين لوبين في أثناء القيام بإحدى مغامراته، لقد سقط في يد أعدائه بعدما وقع في فخ مُحكَم، يا لها من نهاية ساخرة لرجل مثله! لقد كان غبيًّا بما فيه الكفاية ليسمح بتلك النهاية السخيفة؛ أن يُقدَّم إلى رجال الشرطة كصيد ثمين مطهو بعناية فوق طبق فاخر، صاح في حنق بنبرة شرسة:

- اللعنة على تلك الأرملة! كان من الأفضل لو قطعت رقبتي بكل بساطة.

وفجأة! تناهى إلى سمعه صوت خطى أقدام هادئة في الغرفة المجاورة، أهو جانيمار؟ فمهما كانت سرعته لن يستطيع الوصول إلى هنا بهذه السرعة القياسية، علاوة على ذلك، لا يمكن لجانيمار أن يسير بهدوء هكذا، فُتِح الباب بلطف، تذكر لوبين المحاولات الثلاث الفاشلة لقتله، هل من الممكن أن يكون هناك شخص ما يحاول إنقاذه؟ في هذه الحالة مَن يا تُرَى هذا الشخص المجهول؟

ودون أن يرى لوبين وجه الشخص الغريب أحس بأنه هناك خلف السرير، وسمع صوت الكماشة تقطع الأحبال الفولاذية، بدأ بفك ذراعه، ثم صدره، وأخيرًا ساقه، همس الشخص الغريب بصوت هادئ:

- عليك أن ترتدي ملابسك.

رفع لوبين جسده بوهن، واعتدل ليجلس على السرير، بينما كان الشخص منتصبًا أمامه، رفع لوبين عينه ببطء قائلًا:

- مَن أنت؟

ولدهشته الكبرى! كانت أمامه سيدة صغيرة تتشح بالسواد من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وجهها مغطًّى بالدانتيل الأسود أيضًا، وحسب خبرته فقد كانت فتاة صغيرة السن، كرر سؤاله مرة أخرى:

- مَن أنتِ؟

- عليك أن تسرع، الوقت ينفد.

- لا أستطيع -قال لوبين محاولًا النهوض- لا أقوى على القيام بذلك.

- اشرب هذا.

سكبت بعض الحليب في كوب، وعندما ناولته إياه رفعت الغطاء الدانتيل عن وجهها.

- أنتِ! إنه أنت؟! تلعثم لوبين.

نظر متفحصًا في هذه المرأة الصغيرة التي أظهرت ملامح تشبه ملامح جابريل تمامًا، وجهه الشاحب نفسه وفمه الصغير، نفس التعبيرات العدوانية القاسية، لا يمكن لأخين أن يتشابها بمثل هذا التطابق، لم يكن هناك شك بأنهما شخص واحد، لم يفكر لوبين أبدًا بأن جابريل متنكر في ملابس سيدة بل بالعكس، لقد تيقن من أن هذه التي تقف بجواره امرأة حقًّا، إذن فإن هذا الشاب الذي بقي لمدة اثني عشر يومًا بجانبه يرعاه في صمت وداخله حقد وكراهية مكتومة، ما هو إلا شابة صغيرة وجميلة متنكرة لممارسة مهنتها بسهولة، لا شك أن مَن أجبرها على فعل ذلك هما الزوجان دوجريفال، قال لوبين في حيرة:

- أنتِ! مَن كان يصدق هذا؟!

أفرغت محتويات زجاجة صغيرة في كوب، ثم قالت له:

- اشرب هذا الدواء.

تردد لحظة مفكرًا في احتمال كونه سمًّا أو شيئًا من هذا القبيل، فقالت له على الفور، وكأنها قرأت أفكاره:

- أنا مَن أنقذتك.

- هل هذا صحيح؟ أنتِ مَن أفرغ المسدس من الطلقات؟

- نعم.

- وأنتِ مَن أخفى الخنجر؟

- نعم، إنه هنا في جيبي.

- وأنتِ من حطم النافذة عندما كادت عمتك أن تخنقني؟

- نعم، بثقالة الورق ([12]) التي كانت فوق الطاولة هنا، ألقيت بها من النافذة.

سألها بذهول:

- ولكن لماذا؟

- هيا اشرب.

- ولكن إذا كنتِ لا تريديني أن أموت، فلماذا طعنتِني بالخنجر منذ البداية؟

- اشرب من فضلك.

أفرغ الكوب دفعة واحدة في فمه، لم يعرف من أين جاءته هذه الثقة! ارتدى

ملابسه مسرعًا، بينما اتجهت الفتاة نحو النافذة تراقب الشارع، ثم عادت إليه مرة أخرى عندما سقط على الكرسي منهكًا.

- عليك استجماع كل قوتك، لا بد من مغادرة هذا المكان فورًا.

انحنى متكئًا على كتفها، قادته إلى المخرج السري، كان درجًا مخبأً في أرضية الحجرة، كان لوبين يمشي مترنحًا، وكأنه داخل حلم من تلك الأحلام التي تتداخل أحداثها غير المرتبطة، حلم نهايته سعيدة؛ نظرًا للكابوس الذي كان يحيا داخله لأكثر من أسبوعين، طرأ في ذهنه أمر ما؛ فبدأ في الضحك فجأة قائلًا:

- يا لك من مسكين يا جانيمار! لم يحالفه الحظ أبدًا، مستعد أن يدفع نصف عمره ليشهد لحظة اعتقالي!

بعد نزوله الدرج وبفضل رفيقته المخلصة التي ساندته بكل قوتها؛ وجد نفسه في الطريق العام، وأمامه إحدى السيارات، ساعدته الفتاة على ركوب السيارة، وأمرت السائق أن يسير، لم ينتبه إلى معالم الطريق، وكأنه داخل إغفاءة بسيطة، رأسه ثقيل وجسده منهك، ولكنه استعاد كل حواسه عندما وجد نفسه في أحد منازله، تولت رفيقته مساعدته على بلوغ الدرج، ثم نادت أحد الخدم لمساعدتها، وأعطته بعض التعليمات بمراعاة السيد جيدًا، ما إن دخلا الغرفة حتى قال لوبين للخادم:

- اذهب الآن.

وعندما حاولت أن تبتعد هي الأخرى، أمسكها من ثنية ردائها، قائلًا:

- لا، لن تغادري، يجب أن توضحي لي كل شيء أولًا، لماذا أنقذتِني؟ هل رجعتِ إليَّ دون علم عمتك؟ لماذا خاطرتِ بالرجوع؟ هل بدافع الشفقة؟

ظلت صامتة، رأسها مرفوع، محتفظة بملامحها الصارمة التي ظلت متمسكة بها منذ البداية، ومع ذلك استطاع لوبين أن يميز في عينها السوداوين الواسعتين لمحة من الحزن العميق أكثر من القسوة، لم يفهم لوبين سبب التحول المفاجئ في ملامحها، ولكنه أحس بما يختلج في قرارة نفسها من اضطراب واضح، أمسك بيدها، ولكنها أبعدته في حركة عصبية أحس فيها ببعض النفور تجاهه، ثم قالت بنبرة أرادت أن تجعلها قوية بقدر المستطاع:

- دعني من فضلك، ألا تعلم بأني أكرهك كثيرًا؟

نظر في عينيها للحظة، كان لوبين في حيرة من أمرها، بدت متوترة يكسو وجهها الشاحب حمرة غير عادية، قال لها بهدوء:

- إذا كنتِ تكرهيني إلى هذا الحد لِمَ لَمْ تتركيني للموت؟ لماذا لم تفعلي ذلك ببساطة؟

- لماذا؟ أنا حقًّا لا أعلم!

تقلصت ملامح وجهها الذي أخفته بين يديها، سمع لوبين تنهيداتها ورأى الدموع تنساب من بين أصابعها، كان متأثرًا جدًّا، وكان على وشك أن يضع يده على كتفيها ويواسيها قليلًا ببعض الكلمات الحانية، وينتشلها من الحزن كما يتوجب على أي رجل نبيل أن يفعل مع شابة صغيرة أجبرتها الظروف على أن تحيا مثل تلك الحياة الفاسدة، ولكن بدت كل الكلمات التي خطرت بباله عبثية إذا قالها في هذا الموقف، لم يكن يعرف ماذا يتوجب عليه قوله الآن بعد أن فهم الحكاية بأكملها، قصة الفتاة التي طعنت رجلًا لأول مرة في حياتها، فحمَّلها ضميرها مسئوليته، وأخذها العطف والشفقة تجاهه، فمكثت تعتني بهذا المريض معجبة بشجاعته وحسه الفكاهي؛ فتعلقت به، ووقعت في حبه على الرغم منها، وحاولت إنقاذه من الموت ثلاث مرات بكل ما لديها من حيل؛ بسبب اندفاع فطري مسيطر عليها يستحيل التحكم به، كل شيء بدا له غريبًا جدًّا وغير متوقع نهائيًّا، أثرت هذه الدهشة والأفكار المضطربة على لوبين؛ فلم يستطِع منعها هذه المرة وهي تتجه نحو الباب، أزاحت كفيها عن وجهها وهي ترجع للخلف دون أن ترفع عينيها عنه، وعند عتبة الباب أخفضت رأسها، وابتسمت ابتسامة حزينة ثم خرجت، وفور خروجها رن جرس بجانبه، أتاه الخادم على الفور، فقال له:

- اتبع هذه السيدة، ثم تردد لحظة، وقال: لا، ابقَ هنا، هذا أفضل.

ظل شاردًا يفكر لبعض الوقت، تطارده صورة الفتاة الجميلة، مرت أمام عينيه أحداث تلك المغامرة المثيرة منذ البداية بكامل أحداثها المأساوية الصعبة التي أوشك على الموت خلالها، ثم تناول مرآة صغيرة كانت فوق الطاولة بجواره، وأخذ يحدق في وجهه الذي لم يغيره المرض والألم كثيرًا، تمتم معجبًا بنفسه:

- أعتقد أن للوسامة فوائدها أحيانًا!

الوشاح الحريري الأحمر

في صباح يوم ما، عندما غادر المحقق جانيمار منزله في الساعة المعتادة للذهاب لعمله، لاحظ المشية الغريبة لشخص ما يمشي أمامه على طول شارع بيرجيلوس، كان هذا الرجل يرتدي ملابس رثة، معتمرًا قبعة من القش فوق رأسه، بالرغم من أننا في شهر نوفمبر، كان ينحني كل خمسين أو ستين خطوة؛ بحجة ربط حذائه، أو التقاط عصاه، أو لأي سبب آخر، في كل انحناءة كان يُخرِج قطعة من قشر البرتقال ويضعها فوق الرصيف، قد يكون رجلًا مخبولًا يقوم بحركات طفولية لا قيمة لها، ما كان أحد ليهتم بهذا المشهد، لكن جانيمار كان ذا عين ثاقبة، لا يمر حدث مثل ذلك من أمام عينيه بسهولة، لا يشعر بالرضى إلا عند تفسير وتحليل كل ما يرتاب فيه، ولذلك بدأ في تتبع الشخص جيدًا ومراقبته، انعطف يمينًا نحو شارع جراند أرمييه، وعندها لاحظ المحقق جانيمار أن الرجل يبادل بعض الإشارات مع صبي صغير في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، كان يسير على طول الرصيف المقابل بجوار المنازل، وبعد عشرين مترًا انحنى الرجل مرة أخرى ليُنزل حافة سرواله، ووضع قشرة أخرى من البرتقال، كانت هذه علامة متفق عليها لتدل على مروره من هنا، وفي تلك اللحظة أخرج الصبي من جيبه قطعة من الطباشير، ووضع علامة صليب أبيض محاط بدائرة على جدار البيت الذي كان يقف بجواره، استكمل الرجلان سيرهما، وبعد دقيقة واحدة انحنى الرجل مرة أخرى ملتقطًا دبوسًا من فوق الأرض، وأسقط قشرة أخرى، على الفور رسم الصبي صليبًا آخر داخل دائرة على الحائط، تمتم المحقق جانيمار في حنق واضح:

- اللعنة! ماذا يفعل هذان الرجلان بحق الجحيم؟!

هبط الرجلان شارع فيرلاند وفوبورج سانت أورنييه وهما يستكملان عمليتهما المزدوجة بصورة آلية، وكأنهما اعتادا فعل ذلك منذ فترة، لاحظ جانيمار أن الرجل ذا القبعة هو الذي يختار المكان المناسب، أو بالأحرى المنزل المناسب لينحني، وبدوره فإن الصبي الصغير لا يضع العلامة إلا إذا تلقى إشارة من زميله، أصبحت العملية واضحة بعض الشيء، وأثارت المحقق كثيرًا، عند ميدان بوفاو تردد الرجل لحظة، فوقف ينظر يمينًا ويسارًا، ثم بدا وكأنه اتخذ قراره؛ فانحنى يرفع حافة سرواله ويُنزِلها مرتين متتاليتين؛ فجلس الصبي فورًا على حافة الرصيف في مواجهة الجندي الواقف أمام مبنى وزارة الداخلية، ووضع علامة على الجدار خلفه؛ صليبين صغيرين داخل دائرتين متجاورتين، في أعلى شارع الإيليزيه حدثت نفس العملية، تكررت نفس الحركة، ولكن هذه المرة جلس الصبي على الرصيف المواجه للطريق التي يسير فيها حراس الرئاسة، ورسم على الجدار خلفه ثلاثة صلبان داخل ثلاث دوائر.

تمتم جانيمار مندهشًا:

- ماذا يعني هذا؟ وقد خطر على باله فجأة -رغمًا عنه- عدوه اللدود أرسين لوبين؛ فدائمًا ما تراوده صورته عند ظهور أي موقف أو أحداث غامضة يستعصي

عليه فهمها، لوهلة كان سينقض على الرجلين ممسكًا بهما ويستجوبهما، لكن ذكاءه منعه من أن يرتكب مثل هذه الحماقة، أشعل الرجل ذو قشور البرتقال سيجارة، فاقترب منه الصبي الذي يحمل هو الآخر سيجارة بين أصابعه بحجة واضحة، وهي استعارة عود ثقاب لإشعالها، تبادلا بعض الكلمات، وسرعان ما سلم الصبي رفيقه شيئًا ما بدا للمحقق وكأنه مسدس محفوظ في غمده، أخفاه الرجل سريعًا في جيبه، وسار نحو الحائط في مكان ظليل بعيد عن الأنظار، ثم وضع يده في جيبه، وقام بتكرار حركة معينة ست مرات متتالية وهو ينظر لأسفل؛ كما لو أنه يحشو المسدس بالطلقات، بمجرد انتهائه من العمل عادا إلى استكمال طريقهما حتى بلغا شارع دو سيرين، ومن خلفهما المحقق الذي كان يراقبهم على بعد كافٍ وبحرص؛ حتى لا يلفت انتباههما إليه، دخلا خلف بعضهما إلى مبنًى قديم كانت كل نوافذه مغلقة، باستثناء نوافذ الطابق الثالث والأخير، وصل جانيمار إلى باب المبنى، ووقف يراقبهما؛ فرأى فناء المنزل الكبير فارغًا وإلى اليسار كان السلم، أسرع يصعده خلفهما، تخطى الطابق الأول بهدوء، ثم أخذ يضاعف سرعته بعد أن تناهى إلى سمعه صوت ضجيج في الأعلى، وكأنها ضربات صاخبة لمطرقة ما على سطح صلب، عندما وصل إلى الطابق الأخير كان الباب مفتوحًا، دخل بينما كانت الضوضاء مستمرة إلى جانب صوت مشاحنة ما تدور في الداخل، ركض نحو الغرفة التي يصدر منها الصوت ووقف عند عتبة بابها متفاجئًا برؤية الرجل صاحب قشور البرتقال والصبي المرافق له كل منهما يمسك بكرسي معدني ويضربان الأرض بعنف، في تلك اللحظة وعندما شاهداه خرج رجل ثالث من حجرة مجاورة، كان شابًّا في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره، ذا سوالف عريضة، ويرتدي نظارة وسترة مبطنة بفراء من الأستراخان([13])، وكأنه روسي الجنسية.

قال الرجل وهو يبتسم:

- مرحبًا يا جانيمار.

ثم توجه إلى الرجلين، وقال لهما:

- شكرًا لكما يا صديقَيَّ، أهنئكما على هذه النتيجة الرائعة التي حققتموها، هذا تمامًا ما كنت أريده، وها هي المكافأة المتفق عليها. ثم ناولهما ورقة مالية بقيمة مئة فرنك، أشار إليهما بالخروج، وبعد أن أغلقا الباب خلفهما عاد لجانيمار مرة أخرى، وقال:

- أرجو المعذرة يا صديقي، لقد كنت في حاجة إلى التحدث معك في أمر طارئ.

ثم مد يده ليصافحه، ولكن جانيمار وقف مذهولًا من هول المفاجأة؛ فلم يستجِب له، فأردف قائلًا:

- يبدو أنك لم تسمعني جيدًا، الأمر في غاية البساطة، أنا في حاجة للتحدث

معك، هل هذا واضح الآن؟ ثم أكمل مجيبًا عن سؤال لم يطرحه جانيمار بعد، وكأنه يقرأ ما يدور في باله:

- لا يا عجوزي العزيز، فلو كنت أرسلت إليك تلغرافًا أو اتصلت بك تليفونيًّا للتواصل معك، من خلال هذه الوسائل الطبيعية؛ ما كنت ستأتي أبدًا، أو كنت ستأتي بصحبة قوة خاصة، لقد أردت أن أراك بمفردك؛ فرأيت أنه من الضروري القيام بشيء يثير انتباهك لتمهيد طريقك إلى هنا؛ فأرسلت هذين الرجلين مع بعض الأفكار برمي قشور البرتقال ورسم الصلبان، وتلك الأفعال غير المفهومة. ها، ماذا الآن؟ إلى متى ستظل مصدومًا هكذا؟ ألم تتعرفني بعد؟ حسنًا، أنا لوبين، أرسين لوبين صديقك المخلص، فتِّش في ذاكرتك جيدًا؛ ألا يُذكِّرك هذا الاسم بأحد؟

صاح جانيمار، وهو يجز على أسنانه:

- أيها اللعين!

بدا لوبين آسفًا، ثم قال بنبرة ودود:

- هل أنت غاضب مني؟ نعم، من المؤكد أنك غاضب مني، يمكنني رؤية ذلك في عينيك، إنها قضية دوجريفال إذن، أليس كذلك؟ هل كان يجب أن أنتظرك لتأتي؟ هل كنت تفتقدني؟ يا إلهي كم أنت حساس يا جانيمار! لم يخطر هذا الاحتمال في بالي مطلقًا، ولكن أقسم لك أنه في المرة المقبلة س.....

قاطعه جانيمار صائحًا، والغضب يطفح من وجهه:

- يا لك من وغد!

- توبخني وأنا الذي كنت أفكر في مصالحتك؟! وقلت لنفسي: لقد اشتقت لصديقي العجوز، فلم أرَه منذ فترة طويلة، من المؤكد أنه سيقفز لمعانقتي فور رؤيتي!

كان يبدو على جانيمار أنه لم يخرج من صدمة المفاجأة، أخذ ينظر حوله، ثم ينظر إلى لوبين؛ في محاولة منه لاستيعاب الأمر، فبدأ يسيطر على انفعاله ويهدأ، أمسك بكرسي وجلس عليه؛ فقد قرر الاستماع إلى خصمه، وقال:

- هيا تحدث الآن، ودعك من هذا الهراء.

- حسنًا، لنتحدث جديًّا، لا يمكنني أن أجد مكانًا مناسبًا أكثر من هنا للتحدث معك، إنه منزل قديم تابع للدوق رودشيلو، والذي لم يسكن هنا أبدًا، فقد قام بتأجير هذا الطابق لي، وأعطاني كامل الحرية في إدخال تعديلات النقاشة التي أريدها، ولديَّ أيضًا الكثير من الأماكن المماثلة؛ فهي عملية وبسيطة مثل هذا المنزل، أنت تعلم حاجتي الدائمة إلى لتنقل، وكما ترى؛ فأنا لورد روسي محترم أُعرَف باسم جان دوبريل الوزير السابق، بالتأكيد تفهم أني اخترت هذه المهنة المعروفة؛ حتى لا يحتاج أحد إلى التحقق من شخصيتي...

قاطعه جانيمار في غضب:

- وما يهمني أنا في هذا الأمر؟

- في الواقع أنا أرغب في بعض الدردشة، ولكن من الواضح أنك في عجلة من أمرك؛ معذرةً، سأكف عن الثرثرة الآن، لن يستغرق الأمر طويلًا، فقط خمس دقائق، سأبدأ فورًا، أتريد سيجارًا؟ لا؟ ممتاز، ولا أنا أيضًا.

جلس خلف البيانو، وبدأ في العزف وهو شارد قليلًا، وكأنه يرتب أفكاره، ثم توقف ونظر إلى جانيمار، وقال بجدية:

- السابع عشر من أكتوبر، كان يومًا مشرقًا جميلًا، هل أنت منصت جيدًا؟ حدثت واقعة غريبة فوق جسر نُف ([14])، في الواقع أتسأل هل من الضروري أن نعود إلى عهد هنري الرابع وتوثق بنفسك أحداث ووقائع بناء جسر نُف؟ لا، ليس عليك ذلك؛ فلن أجعلك تتوغل في تاريخ فرنسا إلى هذا الحد؛ فمن الممكن ان يشوش هذا أفكارك قليلًا، يكفي فقط أن تعلم أنه في تلك الليلة، حوالي الواحدة صباحًا، لاحظ أحد البحارة الذي كان يمر تحت القنطرة الأخيرة من جسر نُف من ناحية الساحل الشمالي سقوط شيء ما من أعلى الجسر، مرتطمًا بحافة زورقه، ومستقرًّا في النهاية في قاع نهر السين؛ اندفع كلبه مسرعًا نحو حافة الزورق وهو ينبح، وعندما تبعه البحار رأى الكلب ممسكًا بفمه قطعة من ورق الجرائد كانت ملفوفة حول أشياء مختلفة، التقط هذه الأشياء التي لم تسقط في المياه، وعاد إلى منزله ليتفحصها، وكان هذا الاكتشاف مثيرًا للاهتمام حقًّا، وبما أن هذا الرجل تربطه علاقة جيدة بواحد من أصدقائي؛ فقد أطلعني على الأمر للتدخل، وفي صباح اليوم تم إيقاظي مبكرًا جدًّا وإخباري بتلك الحكاية، بالإضافة إلى الاحتفاظ بالأشياء التي تم اكتشافها، وها هي:

ثم وضع الأشياء على الطاولة بالترتيب؛ كانت هناك قصاصات ممزقة لعدد من الصحف، ثم محبرة بلورية كبيرة غطاؤها مربوط بخيط طويل من الدوبارة، وقطعة صغيرة من الزجاج، ثم علبة من الكرتون تحولت إلى مزقة بالية، وفي النهاية كان هناك جزء من وشاح حريري باللون الأحمر القرمزي الصارخ مزين في حوافه بشرابة من نفس المادة ونفس اللون، قال لوبين:

أترى هذه الأدلة التي أمامك يا صديقي؟ بالتأكيد كان سيصبح الأمر أسهل وأوضح لو أننا تمكنا من الحصول على الأشياء الأخرى التي سقطت في الماء، ولكن ما زال يمكننا حل هذا اللغز بقليل من التفكير المنطقي والحدس، وهما من أهم خصالك الرئيسية، ما رأيك؟

لم يصدر جانيمار أي رد فعل، كان على استعداد للاستماع لكلام لوبين، ولكن منعته كرامته من تبادل الحوار معه أو حتى القيام بأي إيماءة تدل على القبول أو الرفض، فتابع لوبين:

- أرى أننا متفقان حتى الآن -متجاهلًا صمت كبير المحققين- والآن سوف

ألخص هذه القضية بطريقة أخرى حسب توقعاتي؛ بناءً على ما تخبرنا به هذه الأدلة الجنائية، في مساء ليلة أمس بين التاسعة حتى منتصف الليل، تم طعن سيدة شابة غريبة الأطوار، ثم خنقها حتى الموت من قِبل رجل نبيل يرتدي مونوكل ([15]) فوق عينه، من الواضح أنه أحد المهتمين بسباقات الخيول، في البداية كان بصحبة هذه الفتاة الشابة، وقد تناولا معًا بعضًا من الكعك في المقهى. أشعل لوبين سيجارًا، ثم قال لجانيمار:

- هيا أيها المحقق، اعترِف، تعجبك هذه الحكاية وهذه التفسيرات، أليس كذلك؟ أكنت تتخيل أن هذه الاستنباطات البوليسية هي حكر على رجال الشرطة ولا يستطيع العامة تخيلها؟ مخطئ يا سيدي؛ فلوبين يجيد التخيل والتفسير ككاتب روائي مبدع وأدلتي دامغة وغير متوقعة في الوقت ذاته. ثم استأنف حديثه، مشيرًا إلى الأشياء فوق الطاولة:

- الليلة الماضية؛ لأن هذه الجريدة تحمل تاريخ أمس، وبعد التاسعة؛ لأن هذه الجريدة مسائية، يمكنك أن ترى هنا ملصقًا من تلك الأشرطة الصفراء التي يضعونها فوق الجريدة لإرسالها إلى المشتركين؛ عن طريق تدوين أرقامهم وعناوينهم، وتوصيلها في البريد في التاسعة، كما تلاحظ أيضًا هذه الشظية الزجاجية هنا، يوجد في أحد أطرافها ثقب دائري يدل على أنها مونوكل، وكما تعلم فإن المونوكل أداة أرستقراطية؛ إذن فإن الجاني رجل راقٍ حسن المظهر، دخل هذا الرجل متجرًا للحلويات، وهذا ما يشير إليه الورق الكرتوني؛ فهي عبارة عن علبة صغيرة للحلويات ما زال عالقًا بها بعض من حلوى المارينج المستخدم في تزيين الكعك، يخرج الرجل من المحل بعد أن يشتري ما يريد وينضم إلى فتاة شابة ترتدي وشاحًا من الحرير الأحمر؛ مما يدل على غرابة مظهرها، وبعد أن اصطحبها، ولأسباب غير معروفة حتى الآن، طعنها أولًا، ثم خنقها بالوشاح الحريري، تناول عدستك المكبرة يا سيدي المحقق؛ فستلاحظ على الفور بقع الدم الداكنة هنا علامات مسح الخنجر، وهنا علامة يد ملطخة بالدماء تتشبث بقطعة القماش، وبعد ارتكاب جريمته، وحتى لا يترك أثرًا من خلفه؛ مسح القاتل الخنجر بالوشاح، ثم أخرج من جيبه أولًا: الجريدة المشترك بها، وكما تقرأ في هذا الجزء منها أنها صحيفة خاصة بسباقات الخيول؛ فمن السهل التعرف عليها، ثانيًا: أخرج حبلًا من الدوبارة الذي يُستخدَم مع الأحصنة، وهذه التفاصيل تؤكد أن صاحبنا هنا ليس مولعًا بالسباقات فقط، ولكنه يهتم بالخيول بنفسه أيضًا، ثم يجمع شظايا عدسته المونوكل التي تحطمت في أثناء الصراع، ويستخدم مقصًا للتخلص من الجزء الملطخ بالدماء من الوشاح، انظر إلى حزات المقص في القماش لتتأكد من كلامي، ويترك باقي الوشاح بين يدَي الضحية المتشبثة به، يكور علبة الحلويات وباقي الأشياء التي تدينه ويلقي بها في الماء كالخنجر مثلًا، من المؤكد أنه من الأشياء التي انزلقت إلى قاع النهر، يلف كل هذه الأشياء بأوراق الجرائد ويربطها جيدًا بهذه المحبرة الثقيلة ويلقي بها لتنزلق في أعماق نهر السين، ثم يهرب، ولكن لسوء حظه سقط جزء منها فوق زورق أحد البحارة، وهكذا

ينتهي كل شيء، أوف! لقد أصبح الجو حارًّا للغاية هنا، ما رأيك في تلك القضية الشائكة؟

أخذ يراقب جانيمار ليعرف تأثير خطابه على المحقق، ولكن بقي جانيمار صامتًا لا يبدي أي رد فعل، فبدأ لوبين يضحك:

- في داخلك أنت مندهش ولكنك مرتاب، لا تثق بي، تقول في نفسك: لماذا يخبرني هذا الشيطان لوبين بهذه التفاصيل بدلًا من الاحتفاظ بها لنفسه والسعي خلف القاتل لسرقته، إذا كان هناك عملية سرقة، من الواضح أنه سؤال بديهي وجيد، ولكن هناك سبب لذلك، وأنه ببساطة ليس لديَّ وقت للعمل على هذه القضية في الوقت الحالي؛ فأنا غارق في العمل الآن، عملية سطو كبيرة في لندن، وأخرى مثلها في لوزان، حل لغز تبديل طفل في مارسيليا، وإنقاذ فتاة صغيرة يتربص بها الموت في كل مكان، آه! يجب عليَّ الاهتمام بكل ذلك في نفس الوقت، فقلت لنفسي: لماذا لا أعهد بهذه القضية التي فككت نصف ألغازها بالفعل إلى صديقي الطيب جانيمار؟ يا لها من خدمة سأقدمها له ليتمكن من إثبات جدارته، ومن ثَم أرسلت الرجل صاحب قشور البرتقال في الثامنة، وقد التقطت الطُّعم، وتم اقتيادك إلى هنا بكامل إرادتك في تمام التاسعة.

اعتدل لوبين واقفًا بثبات وهو ينظر إلى المحقق جانيمار، ثم قال:

- هذا كل شيء، لقد أنهيت حديثي، ولكن على الأرجح ستتعرف على الضحية، إنها راقصة أو مغنية معروفة في المقاهي، ومن ناحية أخرى هناك احتمال مُرجح بأن يكون الجاني أحد سكان الضفة الشمالية من جسر نُف، في النهاية أمامك كل الأدلة اعتبرها هدية مني لتعمل على القضية، لن أحتفظ سوى بقطعة الوشاح هذه، فلتحضر لي الجزء الآخر لو استطاعت الشرطة استخراجه من حول رقبة الضحية، أو لو كنت بحاجة لأن تجمع الوشاح إلى بعضه مجددًا بعد شهر من الآن؛ أي في الثامن عشر من نوفمبر المقبل الساعة العاشرة صباحًا، من المؤكد أنك ستجدني، اعمل جيدًا ولا تخف، أقسم لك يا صديقي أن كل هذا جاد للغاية، وأني لا أخدعك، يمكنك البدء فورًا، بالمناسبة؛ هناك تفصيلة أخرى مهمة جدًّا، عندما تلقي القبض على صاحب المونوكل تذكَّرْ جيدًا أنه أعسر، وداعًا أيها الرجل العجوز، أرجو لك كل التوفيق.

اتجه لوبين نحو الباب، فتحه واختفى، وقبل أن يفكر جانيمار في اتخاذ القرار اندفع نحو الباب مسرعًا، ولكنه اكتشف أن مزلاج الباب لا يعمل بواسطة آلية ما لا يمكنه معرفتها، استغرق فتح هذا المزلاج عشر دقائق، ومن بعد ذلك عشر دقائق أخرى لفتح مزلاج الباب الرئيسي، وعندما هبط الطوابق الثلاثة لم يكن لديه أي أمل في تعقُّب أثر لوبين، علاوة على ذلك فقد خلَّف لوبين في نفسه مشاعر مختلطة وأفكارًا غريبة، فكان لديه خوف واستياء وإعجاب لا إرادي بهذه الشخصية الفريدة، فعلى الرغم من كل جهوده في التقصي والتفسير؛ فإنه لن يصل أبدًا إلى استنتاجات مثالية مثل تلك التي يصل إليها خصمه في دقائق

معدودة، لقد جلس ليسمعه بدافع الواجب والضمير، ولكن ينتابه خوف من أن يتم خداعه بواسطة هذه القضية، ويُعرّض نفسه للخسارة مرة أخرى أمام جمهور مستعد دائمًا لانتقاده ومتابعة إخفاقاته الدائمة أمام لوبين خصيصًا، ولكن تلك القضية خاصة؛ فهي غامضة ومثيرة إلى حد ما، ولكن من جانب آخر بدت غير قابلة للتصديق؛ فعلى الرغم من تفسيرات لوبين المنطقية المنمقة؛ فإنها ضعيفة أمام التحليل الدقيق، فقال لنفسه:

- هذه مجرد خدعة أخرى للتلاعب بي، مجموعة من التخمينات والافتراضات التي لا تستند على شيء واقعي، أنا لا أقتنع بهذه القصص المفبركة.

وعندما وصل إلى شارع أوفيفر كان مقتنعًا تمامًا أن هذه القضية كلها محض كذب وباطلة تمامًا، صعد إلى مركز الشرطة عندما قابله أحد زملائه قائلًا:

- هل التقيت بالرئيس؟

- لا.

- لقد كان يحتاج إليك منذ قليل.

- حقًّا؟

- نعم، اذهب والحق به فورًا.

- إلى أين؟

- شارع بيرن، إنها قضية قتل ليلة أمس.

- يا إلهي! ماذا عن الضحية؟

- لا أعرف تحديدًا، هي امرأة، مغنية في مقهى على ما أعتقد.

تمتم جانيمار:

- اللعنة!

بعد انقضاء نحو عشرين دقيقة كان جانيمار قد خرج من المترو واتجه نحو شارع بيرن، القتيلة مشهورة في أوساط الغناء والمقاهي باسم (جيني الياقوتة)، كانت تسكن في شقة متواضعة في الطابق الثاني من مبنًى قديم، اجتاز جانيمار غرفتين؛ مسترشدًا برجل شرطة ممن كانوا يهتمون بمعاينة مسرح الجريمة، ثم اتجه إلى الغرفة التي تمت بها الجريمة؛ حيث كان يوجد قاضي التحقيق، ورئيس الأمن السيد ديدوا، والطبيب الشرعي، أجفل جانيمار للوهلة الأولى؛ فكانت أمامه جثة امرأة شابة ملقاة على الأريكة ممسكة بقطعة من الوشاح الأحمر بين أصابعها، يظهر فوق كتفها جرحان غائران تجمد الدم حولهما، وجهها متشنج محتفظ بتعبير من الرعب الهائل، قال الطبيب الشرعي الذي كان قد أنهى فحصه للتو:

- الاستنتاج الأول واضح، لقد تم طعن المجني عليها مرتين بواسطة خنجر، ثم

خنقها حتى الموت، علامات الموت خنقًا مرئية للغاية ومؤكدة.

تمتم جانيمار لنفسه وهو يتذكر كلام لوبين ووصفه لتفاصيل الجريمة:

- يا له من أمر غريب!

اعترض قاضي التحقيقات قائلًا:

- ولكن الرقبة ليس بها أي كدمات أو علامات أصابع.

رد الطبيب قائلًا:

- من الممكن أن يكون الخنق قد تم عن طريق هذا الوشاح الحريري الذي كانت الضحية ترتديه، وما زالت هذه القطعة بين يدها، ولكن لماذا لم يتبقَّ سوى هذا الجزء فقط؟ ماذا حدث للباقي؟

قال السيد ديدوا:

- الجزء الآخر ربما يكون ملطخًا بالدماء، وقد أخذه القاتل حتى لا يترك أثر بصمات خلفه، يمكننا أن نرى حز المقص المتسرع على قطعة القماش هنا.

كرر جانيمار وهو يجز على أسنانه بغيظ:

- اللعنة! اللعنة! لقد رأى هذا الشيطان كل شيء دون أن يكون موجودًا هنا!

تابع السيد ديدوا رئيس الأمن حديثه:

- يمكنني على الأقل طرح بعض التخمينات بناءً على أقوال الخادمة، كانت الضحية تمتلك موهبة غنائية متواضعة، ولكنها كانت معروفة بجمالها الباهر، فقد قامت برحلة إلى روسيا قبل عامين، وعادت منها بحجر من الياقوت الرائع، كان قد أهداه إليها رجل من البلاط الملكي، كانت هذه الياقوتة الجميلة تُعرَف باسم جيني، وقد اتخذت هذه المطربة هذا الاسم شهرةً لها منذ ذلك الوقت، لقد كانت فخورة جدًّا بهذه الهدية القيمة؛ رغم أنها لم تكن ترتديها بدافع الحذر، أعتقد أن هذه الياقوتة هي الدافع الخفي وراء ارتكاب الجريمة.

سأل قاضي التحقيقات:

- هل كانت الخادمة على علم بمكان الياقوتة؟

- لا، لم يكن يعرف أحد مكانها إطلاقًا، كما أن الفوضى العارمة في هذه الغرفة تخبرنا أن القاتل أيضًا كان يجهل مكانها.

رد القاضي:

- سأذهب لاستجواب الخادمة.

سحب السيد ديدوا المحقق جانيمار من ذراعه جانبًا، وقال له:

- ماذا بك يا جانيمار؟ تبدو غريبًا للغاية، هل لديك شكوك في شيء ما؟

- أبدًا أيها الرئيس.

- شيء مؤسف للغاية، نحن بحاجة إلى تعزيز قوات الأمن؛ فهناك عدة جرائم ارتُكِبت في الآونة الأخيرة ولم يتم اكتشاف مرتكبها، في هذه المرة ليس أمامنا سوى الوصول إلى الجاني بسرعة.

- صعب للغاية.

- لا بد من ذلك يا جانيمار، أنصِت إليَّ جيدًا؛ فطبقًا لأقوال الخادمة كانت هذه المغنية الشابة تحيا حياة هادئة نوعًا ما، ولكن في الفترة الأخيرة منذ شهر تقريبًا عند عودتها من المقهى؛ أي في حوالي العاشرة مساءً كانت تستقبل بشكل يومي شخصًا ما، ويجلس في ضيافتها حتى منتصف الليل، كانت تقول إنه رجل من رجال المجتمع، ولا يفضل الظهور كثيرًا، وإنه سيتزوجها قريبًا، اتخذ هذا الرجل كل الاحتياطات كي لا يراه أحد، كان يرفع ياقة قميصه ويُنزِل حواف قبعته فوق وجهه عندما يمر من أمام البواب، وكانت جيني تعمل على صرف خادمتها مبكرًا قبل مجيئه، هذا الشخص هو مَن يجب أن نبحث عنه.

- ألم يترك أي أثر خلفه؟

- لا شيء، من الواضح أننا نواجه رجلًا متمرسًا أعد جريمته مسبقًا ونفذها بدقة، ومع الأخذ في الاعتبار بأنه تتبع كل الفرص الممكنة للإفلات من العقاب، سيكون إلقاء القبض عليه ضربة موفقة لك، أنا أعتمد عليك يا جانيمار.

- أوه! لقد كلفتني بها إذن.. سنرى.

بدا متوترا بعض الشيء، أثار ارتباكه قلق السيد ديدوا؛ فاستكمل جانيمار حديثه:

- ولكني أقسم لك يا سيدي... ثم صمت مفكرًا.

- تقسم لي بماذا؟

- لا شيء، سأعمل جيدًا ليس إلا.

وفقط عندما خرج جانيمار من مسرح الجريمة استطاع أن يكمل جملته بصوت عالٍ وهو يضرب الأرض بقدمه:

- أقسم بأني سأتمكن من اعتقال القاتل بوسائلي الخاصة دون اللجوء لأي معلومات من هذا الوغد، ومضى يلعن لوبين غاضبًا من التورط في هذه القضية، ومع ذلك كان مصممًا على حلها، سار متخبطًا في الشوارع، عقله مضطرب قليلًا، حاول أن يجمع شتات نفسه ويرتب أفكاره، ربما يكتشف من بين تلك الحقائق المتناثرة بعض التفاصيل التي لم يلحظها أحد، ربما ينجح هذه المرة، تناول وجبة غداء سريعة بمطعم صغير في طريقه، ثم استكمل سيره حتى وجد نفسه يدخل شارع دو سيرين الذي استدرجه لوبين إليه قبل ساعات قليلة، لقد أعادته قوة ما إلى هذا المكان مرة أخرى، تولد لديه إحساس أنه هنا

في هذا المكان تكمن عناصر الحقيقة؛ فكل استنتاجات أرسين لوبين كانت سليمة مهما حاول الإنكار، وصفه وتحليله للجريمة كان دقيقًا للغاية لدرجة أنه شعر بأنه لن يستطيع استكمال التحليل إلا في المكان الذي تركه فيه عدوه، صعد الطوابق الثلاثة، كانت الشقة لم تزل مفتوحة كما تركها، لم يلمس أحد الأدلة فوق الطاولة، وضعها في جيوبه، ومنذ ذلك الوقت أخذ يسير على خطى لوبين.

بناءً على فرضية أن القاتل يعيش بالقرب من جسر نُف، فكان من الضروري العثور على متجر حلويات يقع في الطريق من الجسر إلى شارع دي بيرن؛ حيث تسكن الضحية، لم يدم بحثه طويلًا؛ فبالقرب من محطة سان لازار وجد المحل، وأظهر له صانع الكعك العلب الصغيرة من الكرتون التي يبيعون بها الحلويات، وكانت متطابقة تمامًا في الشكل والمادة مع تلك التي كانت بحوذة جانيمار، بالإضافة إلى ذلك تمكن من التحدث مع إحدى البائعات التي كانت تعمل في الليلة السابقة؛ حيث أكدت أنها باعت أمس لرجل أنيق يرتدي معطفًا من الفرو يغطي رقبته ويرتدي مونوكل فوق عينه، تمتم جانيمار لنفسه:

- ها قد تأكدنا من إثبات أول دليل، رجلنا المنشود يرتدي مونوكل بالفعل.

قام بجمع قصاصات الجريدة، وعرضها على بائع صحف في الجوار فتعرف بسهولة اسم الجريدة: (سباق الخيول المصورة)، ذهب على الفور إلى مقر الجريدة، وسأل عن قائمة المشتركين، وأخذ نسخة ورقية من أسماء وعناوين كل المشتركين بالجريدة قرب جسر نُف، خصيصًا على الضفة اليسرى، ثم عاد إلى قسم الشرطة، وأعطى أوامره إلى نصف دزينة من المجندين، وأرسلهم بالتعليمات اللازمة إلى هذه العناوين للتحقيق في الأمر.

عاد آخر هؤلاء الرجال في السابعة مساءً، ونقلوا إليه الأخبار السارة؛ إنهم بالفعل وجدوا رجلًا يُدعَى بريفاي من مشتركي الجريدة يعيش في الدور الأرضي في أحد منازل شارع أوجستين، وإنه قد خرج ليلة أمس مرتديًا معطفًا من الفرو، تلقى من يد البواب بريده اليومي من جريدة سباق الخيول المسائية، ثم عاد مرة أخرى بعد منتصف الليل، كان منتظمًا في سباقات الخيل، ويمتلك هو نفسه بعض الخيول يركبها أو يؤجرها، كان التحقيق سريعًا للغاية، وكانت النتائج تتطابق مع استنتاجات أرسين لوبين لدرجة أن جانيمار كان يستمع إلى تقرير ضابط الشرطة مستاءً كاظمًا غيظه، مرة أخرى أدرك المهارات التي يمتلكها لوبين، لم يسبق أن رأى مثل هذا الاستبصار، مثل هذا الذهن المتيقظ والرؤية الثاقبة خلال حياته الطويلة؛ على الرغم من طول خبرته في هذا المجال، ذهب لإخبار السيد ديدوا:

- كل شيء أصبح جاهزًا يا سيدي.

- ماذا؟

- كنت أقول إن كل شيء أصبح جاهزًا من أجل إلقاء القبض على القاتل.

- هل عرفت مَن الذي قتل الياقوتة جيني؟

- نعم.

- بهذه السرعة! كيف هذا؟!

شعر جانيمار ببعض الارتباك، واحمر وجهه خجلًا، ومع ذلك أجاب:

- صدفة يا سيدي، لقد ألقى القاتل كل ما يُعرِّضه للخطر من أدلة في نهر السين، وقد تم جمع جزء من الأشياء الملقاة في طرد بريدي وإرساله لي.

- ومَن فعل ذلك؟

- أحد البحارة الذي سقطت هذه الأدلة في زورقه في أثناء مروره من تحت الجسر، رفض ذكر اسمه، ربما خوفًا من الانتقام، لكن النتيجة أنه أصبح لديَّ الدلائل التي مكنتني من حل القضية بسهولة.

أخبر رئيس الأمن بتفاصيل عمله، وكيف وصل إلى الشخص المطلوب تحديدًا؛ فصاح السيد ديدوا معجبًا:

- هذه من أفضل القضايا التي وُكِلت إليك يا عزيزي، أهنئك بالوصول إلى تلك النتيجة، هيا بقيت خطوة واحدة، كن حذرًا.

أسرع جانيمار بالاتجاه إلى شارع أوجستين، مصطحبًا معه قوة من رجال الشرطة، قام بتوزيعهم حول المنزل، وبعد استجواب حارسة العقار قالت إن المستأجر يأكل كل وجباته بالخارج، ولكنه يعود بعد العشاء دائمًا قبل التاسعة بقليل، ثم أخبرت جانيمار وهي تطل من النافذة أن الرجل المنشود في طريقه إلى المنزل؛ فأطلق جانيمار صفيرًا خافتًا عندما رأى رجلًا يرتدي قبعةً ومعطفًا من الفرو يسير على الرصيف الذي يمتد على طول نهر السين، عبر الطريق متوجهًا نحو المنزل، مضى جانيمار إليه وهو يسأله:

- هل أنت السيد بريفاي؟

- نعم، مَن أنت؟

- أنت متهم بـ...

لم يكمل جملته، فعندما رأى بريفاي ظلال رجال الشرطة؛ تراجع بحدة ملتصقًا بباب متجر في الطابق الأرضي، مواجهًا خصومه وجهًا لوجه، قال بنبرة متقطعة ممتلئة بالرعب:

- تراجعوا إلى الخلف، أنا لا أعرفكم.

كان يلوح بعصا ثقيلة في يده اليمنى، بينما كانت يده اليسرى تنزلق خلفه، اعتقد جانيمار بأنه يحاول فتح باب المحل، وأنه يستطيع الهرب منه إذا كان هناك مخرج سري أو شيء من هذا القبيل، فقال له:

- لا داعي للمراوغة؛ المكان بأكمله محاصر، سلِّمْ نفسك الآن.

ولكن بينما كان يحرك العصا بصعوبة، تذكر جانيمار تحذير لوبين أن القاتل أعسر، إذن فإنه يبحث عن مسدسه بواسطة يده اليسرى تلك، انحنى المحقق فورًا عندما رأى حركة الرجل السريعة، وسمع دوي طلقتين متتاليتين، لكنه لم يصب أحد، وما هي إلا لحظات حتى سقط بريفاي على الأرض بعد أن انقض عليه جانيمار وضربه بمقبض المسدس على ذقنه، وفي تمام التاسعة تم اقتياده إلى مركز الشرطة.

بعد هذه المهمة الناجحة تمتع جانيمار بحفاوة وتقدير المجتمع؛ لما حققه من نجاح في عملية الاعتقال السريعة التي ذاعت في الصحف والمجلات التي أشادت ببراعته وخطته المحكمة؛ مما أضاف إليه شهرة واسعة، فسرعان ما تم توجيه كل التهم السابقة التي أُغلِقت وأفلت المجرم دون عقاب، إلى هذا المدعو بريفاي. كانت القضية تسير جيدًا في البداية، اكتشفوا أن بريفاي ما هو إلا اسم مستعار، وأن الرجل كان اسمه الحقيقي توماس ديروك، وأنه بالفعل من أصحاب السوابق، فكان قد واجه مشكلات مع الشرطة من قبل، وبعد تفتيش منزله تم اكتشاف بعض خيوط الدوبارة مثل تلك التي استُخدِمت في ربط الأشياء معًا ورميها، وتم اكتشاف بعض الخناجر التي تُحدِث جروحًا كتلك التي كانت فوق كتف الضحية، ولكن بحلول اليوم الثامن من الاعتقال تغير كل شيء؛ فقد رفض الرجل الاعتراف بالجريمة، كما رفض الرد على أي سؤال، وقد قام المحامي الخاص به بتقديم حجة غياب في تلك الليلة التي تمت بها الجريمة، وهي أنه كان في ذلك الوقت داخل فولي برجر ([16])، وبالفعل وجدوا في جيب سترته التذكرة وبرنامج العروض في تلك الليلة، اعترض قاضي التحقيقات، وقال إنها حجة معدة مسبقًا، وقال بريفاي حينئذٍ: برهِنْ على ذلك لو استطعت.

تم استجواب الشهود: البائعة في محل الحلويات، وقالت إنها تعتقد أنه هو صاحب المونوكل، ولكنها ليست متأكدة، كما قالكما قال بواب الضحية بأنه يظن أيضًا أن هذا الرجل هو نفسه السيد الذي كان يأتي لزيارة الياقوتة جيني من حيث الطول والهيئة فقط، وبالتالي لم يجد قاضي التحقيقات أساسًا صلبًا لإثبات الجريمة؛ فاستدعى جانيمار لمناقشة ذلك الأمر.

- للأسف لا أستطيع إثبات التهم.

- ومع ذلك فأنت متأكد يا سيدي أن الرجل ما كان ليسمح بإلقاء القبض عليه، والصمت كل هذه المدة لو لم يكن مذنبًا.

- يدعي أنه اعتقد أنه كان هجومًا، كما ادعى أنه لم يرَ جيني من قبل، والحقيقة أننا لا نستطيع العثور على أي دليل ينفي صحة أقواله، كما أننا لم نجد الياقوتة بمنزله؛ فلا يوجد دافع للقتل، حتى لو أثبتنا أنه هو مَن كان يقابلها بالفعل.

- إذن فهو يخبئها في مكان ما.

- لا يمكننا الاعتماد على هذه الفرضية، أتعلم ما نحن بحاجة إليه فعلًا لإثبات هذه التهمة يا جانيمار؟ النصف الآخر من الوشاح.

- النصف الآخر؟!

- لأن من الواضح أن المتهم قد تخلص منه لإخفاء آثار بصماته الملطخة بالدماء فوق القماش، لو استطعنا إيجاد هذه القطعة الناقصة سنتمكن من إثبات التهمة بدليل لا يمكن دحضه.

لم يرد جانيمار، في الأيام التالية كان اليأس يزحف إلى قلبه، فكان يشعر بأن القضية تتجه نحو الخاتمة، هو المسئول عن هذ الاعتقال، وبسببه أصبح ذائع الصيت، ولو تم إطلاق سراح بريفاي حقًّا سيُعرِّض نفسه للكثير من السخرية والاستهزاء، ولسوء حظه كان الدليل الذي يحتاَج إليه بشدة في جيب أرسين لوبين؛ فكيف سيحصل عليه؟ أخذ جانيمار يعمل جاهدًا في طرق أخرى، قام بعمل الكثير من التحقيقات والأبحاث، قضى الكثير من الليالي دون نوم يتجول في شارع بيرن؛ لعله يرى لوبين مرة صدفة أو يتعرف إليه متنكرًا في شخصية ما، لجأ للبحث في كل كبيرة وصغيرة في حياة بريفاي، حث رجال الشرطة على البحث عن الياقوتة ولكن كل هذا بلا جدوى، في اليوم السابع عشر من نوفمبر أوقفه قاضي التحقيقات في أحد أروقة قسم الشرطة:

- حسنًا يا جانيمار، هل يوجد جديد بقضية جيني الياقوتة؟

- لا يا سيدي.

- في هذه الحالة سيتم إغلاق القضية.

- هل يمكننا الانتظار يومًا آخر؟

- لماذا؟ نحن لسنا بحاجة سوى لقطعة الوشاح الناقصة كما أخبرتك سابقًا، هل تمكنت من معرفة مكانها؟

- ربما سأعلم مكانها غدًا.

- غدًا؟

- ولكني أريد النصف الآخر المتحفظ عليه هنا مع ممتلكات الضحية.

- لماذا؟

- سيدي القاضي، ثق بي؛ فأنا أتعهد بإعادة الوشاح الحرير كاملًا.

- حسنًا، أنا أثق بك، يومًا آخر لن يضر في شيء.

دلف إلى مكتب القاضي، وخرج بعد ذلك بالنصف الآخر من الوشاح الحريري، ثم تمتم وهو يقبض عليه بقوة بين أصابعه:

- اللعنة! لعل السيد لوبين يتجرأ على الحضور في الموعد غدًا. لا بد أن أحصل على النصف الآخر بأي ثمن.

في أعماقه كان جانيمار متيقنًا من جرأة أرسين لوبين للقدوم، وهذا تمامًا ما أزعجه، وطرأ في ذهنه بعض الأسئلة الغامضة: لماذا حدد لوبين هذا اللقاء تحديدًا؟ ما هدفه من وراء ذلك؟ ما الفائدة التي ستعود عليه من وراء هذه المقابلة؟

تملكه الغضب والكراهية؛ فعقد العزم على اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة، ليس فقط من أجل ألا يقع في فخ ما، ولكن أيضًا كي لا يُفوِّت عليه الفرصة في إيقاع عدوه.

في اليوم التالي الثامن عشر من نوفمبر، اليوم الذي حدده لوبين بنفسه، بعد أن قضى اليوم كله يراقب المنزل في شارع دو سيرين، وبعد أن تيقن بنفسه أنه لا يوجد مخرج آخر غير البوابة الرئيسية، وبعد أن أخطر رجاله بأنه سيقوم بمهمة خطيرة، وصل برفقتهم إلى ميدان المعركة، أمرهم بالجلوس في مقهًى مقابل للمنزل، وأعطاهم تعليمات بأنه إذا ظهر من إحدى نوافذ الطابق الثالث، أو أنه لم يخرج بعد ساعة؛ فعليهم اقتحام المنزل فورًا. تأكد جانيمار بأن مسدسه مملوء بأكمله ويمكنه إخراجه بسهولة من جيبه في اللحظة المناسبة.

دخل المنزل وصعد الطوابق الثلاثة، وتأكد بأن كل شيء في موضعه مثلما تركه تمامًا، كانت الأبواب مفتوحة؛ دخل إلى الحجرة الرئيسية؛ فوجد أنها تطل على الشارع، ثم دلف إلى الحجرة الأخرى؛ فلم يجد أحدًا أيضًا، تمتم لنفسه:

- السيد لوبين خائف إذن.

- أنت غبي. جاء هذا الصوت من خلفه؛ فاستدار بسرعة ليرى عامل دهان عجوز ثوبه ملطخ بالألوان يقف عند عتبة الباب.

- لا تندهش، أنه أنا، أعمل منذ الصباح في الطابق الأسفل والآن حان وقت الغداء، فصعدت إلى الطابق العلوي لآخذ استراحتي، كان ينظر إلى جانيمار وهو يبتسم في مرح، واستكمل قائلًا:

- في الحقيقة إن هذه اللحظة التي تجمعنا رائعة، فلم تكن تحلم بها ولو بعد عشر سنوات، الآن أخبِرني؛ ما رأيك في هذه القضية؟ ألم تكن قضية مربكة بعض الشيء على الرغم من وضوح الأدلة؟ آه، عليك الاعتراف، ألم أكشف لك عن سر الوشاح الأحمر؟ لا أنكر أنه من الممكن أن يكون هناك بعض الثغرات في تنبؤاتي، حلقات صغيرة ناقصة لإكمال السلسلة، ولكن لا يمكنك إنكار صدق تخميني وتوقعاتي منذ البداية وحتى لحظة وصولك إلى هنا.

- هل الوشاح معك؟

- تقصد نصفه؟ نعم، هل لديك النصف الآخر؟

- ها هو.

قاموا بضم القطعتين من الوشاح الحريري معًا فوق الطاولة، كان الحز المصنوع بالمقص متطابقًا تمامًا.

قال لوبين دون أن يرفع عينيه عن الوشاح:

- أعتقد يا جانيمار أنك لم تأتِ إلى هنا من أجل إعطائي النصف الآخر فقط، ما يثير اهتمامك هو رؤية بقع الدم الداكنة، اتبعني؛ فالإضاءة غير مناسبة هنا، مضيا إلى الغرفة المجاورة التي تطل على الشارع، كانت أكثر إضاءة من الأخرى بالفعل، وضع لوبين الوشاح فوق لوح من الزجاج وهو يفسح المجال لجانيمار، قائلًا:

- انظر جيدًا، ها هي.

التمعت عينا جانيمار بنشوة النصر؛ فقد رأى بوضوح آثار الأصابع الخمسة وبصمة راحة اليد، هذا تمامًا ما كان يبحث عنه؛ دليل قاطع لا يمكن ضحده، يد القاتل الملطخة بالدماء وهو يمسك الوشاح ويلفه حول عنق الضحية، قال لوبين:

- إنها راحة الكف اليسرى، ومن هنا جاء تحذيري لك بأن القاتل أعسر، وهو تخمين سهل يمكن أن يُعرِّفه أي محقق لو أنه تأمَّل هذه البقع لبعض الثواني؛ فأنا شخص سريع البديهة بدرجة هائلة، لست ساحرًا أو بطلًا خارقًا أو شيئًا من هذا القبيل.

أسرع جانيمار بوضع الوشاح الملطخ بالدم بسرعة في جيبه؛ فقال لوبين:

- لا تخف يا صديقي؛ فإنه لك الآن لا أحتاج إليه في شيء، إنه من دواعي سروري أن أساعدك، وكما ترى لم أقم بإعداد فخ ما، كل ما في الأمر أنها خدمة بسيطة من صديق إلى صديقه القديم، لكني لا أنكر فضولي أيضًا في فحص القطعة الثانية من الوشاح التي كانت بحوذة الشرطة، دعني أنظر إليها عن قرب بعد إذنك، لا تخف سأعيدها إليك مرة أخرى.

تناولها لوبين برفق، وأخذ يعبث بالشرابة الحريرية التي تزين نهايتها، بينما كان جانيمار ينظر إليه في لا مبالاة، قال لوبين:

- يا لها من ماهرة هذه الفتاة! هل لاحظت هذا التفصيل في أثناء التحقيق، كانت جيني امرأة ماهرة في أعمال الحياكة والتطريز، كانت تصنع لنفسها الفساتين والقبعات، ومن الواضح أنها قد صنعت هذا الوشاح أيضًا، بالمناسبة لقد لاحظت شيئًا منذ اليوم الأول، وفقًا لطبيعتي الفضولية التي أخبرتك بها منذ قليل؛ فقد أمضيت بعض الوقت وأنا أتفحص قطعة القماش الحريري الأحمر التي في جيبك الآن، واكتشفت أنه في نهاية الشرابة توجد ميدالية صغيرة لإحدى القديسات، صنعتها المرأة المسكينة كتميمة لجلب الحظ، لقد كانت هذه التفصيلة الصغيرة مؤثرة جدًّا، أليس كذلك يا جانيمار؟ تميمة صغيرة من

كنيسة (نوتردام دي بون سيكور)، لقد كانت امرأة بسيطة متدينة.

بقي جانيمار عيناه مثبتتان على لوبين يحاول الوصول إلى ما يرمي إليه، بينما تابع لوبين مكملًا حديثه:

- ولذلك قلت لنفسي: كم سيكون مثيرًا للاهتمام استكشاف النصف الآخر من الوشاح، الذي أخذته الشرطة كدليل جنائي من فوق عنق الضحية، التي تمسكت به حتى النهاية؟! وذلك لأن النصف الآخر سينتهي بنفس الشرابة، وعليَّ أن أعرف ماذا يحتوي داخله، وها هو النصف الآخر، يا لها من بارعة! لقد غزلت بعض خيوط الحرير الأحمر حول قطعة دائرية صغيرة في حجم حبة الزيتون؛ لتصنع فجوة صغيرة الحجم تكفي لتضع تميمة أخرى أو شيئًا أكثر أهمية، جوهرة مثلًا، ياقوتة على سبيل المثال.

قال هذه الجملة وهو يرفع عينيه لتقابل عينَي جانيمار المندهشة، بينما أخذ يفك الخيوط الحريرية من حول قطعة خشبية دائرية في حجم زيتونة بالفعل، ثم أخرج منها حجرًا أزرق رائعًا ونقيًّا للغاية، وضعه بين السبابة والإبهام، وأخذ يتأمله وهو يقول:

- ها، ماذا قلت لك يا صديقي؟

شحب وجه جانيمار وهو يحدق بهذا الحجر الأملس الذي يتلألأ أمام عينيه، محاولًا إدراك ذكاء لوبين في تنسيق القضية منذ البداية، ثم تمتم ساخطًا:

- أيها الماكر اللعين!

وقف الرجلان أحدهما في مواجهة الآخر، صاح جانيمار:

- أعطِني هذا الحجر.

ناوله لوبين نصف الوشاح، ولكن المحقق صاح مرة أخرى:

- الياقوتة!

- هل أنت غبي كفاية لتطلب هذا الطلب؟

- أعِدها إليَّ وإلا...

- وإلا ماذا أيها الأحمق؟ (صاح لوبين) أتظن أنني أعطيتك هذه القضية على طبق من فضة من أجل سواد عينيك؟ ألا ترى؟ لقد جعلتك تمشي متباهيًا كالملك بعد النجاح الذي حققته لمدة أربعة أسابيع، والآن بعد كل ذلك ترغب في... يا إلهي يا جانيمار! من فضلك ابذل بعض الجهد لتفهم حقيقة الأمر، لقد كنت جيدًا للغاية لمدة شهر كامل تنفذ ما طلبته منك تمامًا، وتسير على نفس الطريق التي وجهتك إليها مثل الكلب المطيع الذي يأتي سيده بالصيد الثمين، لقد أحسنت صنعًا يا صديقي.

كظم جانيمار غيظه مفكرًا في أمر واحد، وهو سرعة استدعاء رجال الشرطة

المنتظرين بالخارج، وبما أن الحجرة التي كان بها تطل على الفناء؛ فقد حاول الاقتراب من الباب شيئًا فشيئًا ليتمكن بحركة سريعة من فتحه والوصول إلى النافذة في الغرفة الأخرى، ولكن لوبين عاد يستكمل حديثه:

- لا يتوجب عليك الآن سوى أن تشعر بالندم أنت ورؤساؤك، وتُخرِج هذه المشاعر المكبوتة التي من الممكن أن تؤثر عليك فيما بعد، فلم يفلِح أحد منكم -بينما كانت هذه القطعة بحوذتكم طوال هذه المدة- أن يتفحص الوشاح جيدًا، أو على الأقل يتساءل لماذا ظلت هذه المرأة متشبثة بالوشاح حتى اللحظة الأخيرة من حياتها، أنت دائمًا تتصرف بعشوائية يا جانيمار دون تفكير متقن وتخطيط.

بلغ المحقق هدفه من الوصول إلى الباب بحركة دائرية سريعة؛ مستفيدًا من الثواني التي كان لوبين منهمكًا في الحديث خلالها بعيدًا عنه، فدار حول نفسه فجأة وأمسك مقبض الباب، ولكنه أفلت من بين قبضته، أمسكه مرة أخرى، ولكن المقبض لا يتحرك، أخذ لوبين يضحك، قائلًا:

- أنت لن تفلح أبدًا، ولا حتى في هذا، لقد نصبت لي فخًّا، وأنت تعلم أنه بإمكاني شم رائحة المكر مسبقًا، الأقفال مزودة بآلية خاصة تمنع فتحها، والآن بكل جدية، ما رأيك في هذه الآلية الحديثة؟

صاح جانيمار:

- أيها الوغد! وسرعان ما أخرج مسدسه من جيبه ووجهه في وجه عدوه صارخًا:

- ارفع يديك فوق رأسك!

لم يتحرك لوبين قيد أنملة، وقف ثابتًا يهز كتفيه في لا مبالاة، وقال بنبرة ساخرة:

- نفس الخطأ مرة أخرى.

- أكرر ثانية، ارفع يديك!

- اهدأ قليلًا، وارمِ لعبتك تلك؛ فهي لا تعمل.

- ماذا؟

- خادمتك الأمينة، أقصد كاترين العجوز، لقد جندتها في خدمتي، ولقد تأكدت تمامًا أنها قد بللت الطلقات جيدًا هذا الصباح بينما كنت تحتسي القهوة باللبن، مشروبك المفضل!

وبدفعة غضب مهول وضع جانيمار المسدس في جيبه، وانقض على لوبين ممسكا برقبته بشدة، فركله لوبين بقوة في ساقه، قائلًا:

- ها، وماذا بعد؟

نظر كل منهما للآخر في تحدٍّ واضح وحالة من التأهب للقتال، القتال الذي لم يقع أبدًا، لقد حالت ذكرى الصراعات السابقة دون وقوع هذا الصراع، فتذكر جانيمار كل إخفاقاته السابقة أمام هذا الرجل الذي تتحطم أمامه أي قوة فردية، قال لوبين بنبرة متهكمة:

- فكِّر جيدًا ولو لمرة؛ ما الجدوى من ذلك؟ ثم أردف بنبرة ودود بعض الشيء:

- من الجيد التوقف هنا، وتذكَّرْ جيدًا المكاسب التي عادت عليك نتيجة هذه القضية، الشهرة الواسعة وثقة الجمهور فيك مرة أخرى، وبفضل ذلك ستحيا شيخوخة سعيدة، أتطمع في الياقوتة ورأس لوبين المسكين أيضًا؟ يا لك من ناكر للجميل إذن! لقد أنقذت حياتك يا صديقي، نعم، مَن الذي حذرك بأن بريفاي أعسر؟ لولا ذلك لكان أصابك يومها، وكنت الآن في عداد الأموات، هل هكذا تشكرني؟ ليس هذا تصرفًا لائقًا يا جانيمار، أنت تؤذي مشاعري حقًّا بأفعالك هذه.

في أثناء هذا الحوار فعل لوبين مثل جانيمار، واقترب من الباب ليفتحه؛ فأحس جانيمار بأن العدو يفلت منه؛ تحرك فورًا، أراد أن يمنعه ويسد طريقه، ولكنه تلقى ضربة قوية في صدره من رأس لوبين ألقته على ظهره فوق الأرض، وجعلته يتدحرج حتى الحائط المقابل، وبواسطة القيام بثلاث حركات سريعة قام لوبين بتنشيط الزنبرك، ثم قلب المزلاج وفتح الباب، ابتعد تاركًا صدى ضحكاته يتردد في المنزل من خلفه.

بعد مرور عشرين دقيقة تمكن جانيمار من الهبوط والانضمام لرجاله، جاءه واحد منهم مسرعًا يحمل بيده ورقة، ويقول:

- كان هناك عامل نقاشة خرج من المنزل منذ قليل والتقى برفاقه الذين كانوا عائدين إلى المنزل بعد فترة استراحة تقريبًا، وقال لي أن أتأكد من إيصال هذه الرسالة لرئيسي في العمل، وعندما نظرت إلى الرسالة سألته: إلى أي رئيس؟ كان قد ابتعد عني بالفعل، أعتقد أن هذه الرسالة لك.

- أعطِني إياها.

فتح جانيمار الخطاب كانت رسالة قصيرة مكتوبة بقلم رصاص وخط سريع:

«هذا درس بسيط يا صديقي لتحذيرك من أن تقع مرة أخرى ضحية هذه السذاجة المفرطة، عندما يخبرك شخص ما أن الطلقات الموجودة في مسدسك مبتلة لا تصدقه أرجوك، مهما كنت ثقتك به أوخوفك منه، حتى لو أطلق على نفسه اسم أرسين لوبين، فقط عليك ضغط الزناد فورًا، لو انتقل هذا الشخص إلى الحياة الأخرى؛ فستتأكد من أمرين:

الأمر الأول: أنه لم يتم خداعك، وأن رصاصاتك ليست مبتلة، والأمر الثاني: أن خادمتك كاترين العجوز من أكثر مدبرات المنازل نزاهةً، فلتبلغها تحياتي حتى أتشرف بمعرفتها عن قرب، وأخيرًا: أرجو أن تتقبل مشاعر المحبة الخالصة

والامتنان يا صديقي.

صديقك المخلص أرسين لوبين».

الموت المتربص

بعد أن تجاوز أرسين لوبين جدران القصر، عاد مرة أخرى إلى نقطة البداية؛ فقد تأكد من عدم وجود أي ثغرات تُمكِّنه من الدخول لقصر موبيرتوس وحديقته الواسعة، لا يوجد سوى باب منخفض الارتفاع صغير ومغلق بإحكام من الداخل في الحديقة الخلفية، أو البوابة الرئيسية التي يحرسها رجل يعيش في غرفة صغيرة بالقرب منها مباشرةً، تمتم لنفسه قائلًا:

- إذن سأضطر للجوء إلى الحيل التقليدية القديمة.

تجول حول الغابة؛ حيث كان يخفي دراجته البخارية، أخرج من تحت مقعدها حزمة من الحبال، ومضى مبتعدًا عن الطريق حتى وصل إلى حافة الحديقة؛ حيث امتدت الأشجار على طول الجدار المحيط بالقصر، ثبَّت لوبين حجرًا ثقيلًا في نهاية الحبل، وألقى به فوق أحد الأغصان، ثم تسلقه إلى أعلى الشجرة، وبعد ذلك قفز برفق على العشب داخل الحديقة، كان صباحًا شتويًّا هادئًا، وبين الأغصان التي جردها الخريف من أوراقها والمروج الممتدة، رأى لوبين قصر موبيرتوس، اختبأ خلف مجموعة من أشجار التنُّوب([17])، وهناك أخرج منظاره، وأخذ يراقب الواجهة الكئيبة للقصر، جميع النوافذ مؤصدة، والأبواب محكمة الغلق وكأنه قصر مهجور، تمتم بينه وبين نفسه:

- كئيب للغاية، لا أتمنى أن أقضي آخر أيام حياتي في مكان كهذا.

وعندما دقت الساعة الثالثة انفتح أحد أبواب الطابق السفلي الذي يطل على الشرفة الكبيرة المستديرة، وظهر ظل امرأة نحيفة ترتدي معطفًا أسود، أخذت تتجول في الشرفة ذهابًا وإيابًا لبضع دقائق وهي تلقي بفتات الخبز للطيور التي أحاطتها، نزلت على الدرجات الحجرية التي تؤدي إلى الحديقة الرئيسية، سارت إلى الأمام ثم انحرفت نحو اليمين، ومن خلال منظاره رأى لوبين الفتاة بوضوح وهي تتقدم، كانت طويلة شقراء ذات بنية رشيقة، سارت بخفة تحت شمس ديسمبر الخافتة مستمتعة بتكسير أغصان الأشجار الصغيرة تحت أقدامها، كانت قد بلغت ثلثَي المسافة التي تفصلها عن لوبين عندما اندلع صياح غاضب، خرج كلب ضخم داكن اللون من كوخ قريب منعته السلسلة المعدنية التي تحيط برقبته من التقدم، تراجعت الفتاة قليلًا، ثم استكملت طريقها جواره بكل هدوء، لا يبدو عليها الاهتمام؛ فهو حادث يقع كل يوم، ولكن الكلب زمجر غاضبًا مرة أخرى، وضاعف من نباحه، كان يشب على قدميه ساحبًا السلسلة حول عنقه مخاطرًا بخنق نفسه، مشت ثلاثين أو أربعين خطوة أخرى، كان صبرها قد نفد؛ فلوحت بيدها في ضجر، ازداد غضب هذا الوحش الدنماركي العملاق؛ فرجع إلى الخلف، ثم انطلق بكل قوته إلى الأمام، لا شيء يمنعه، أطلقت الفتاة صرخة رعب عندما اتجه الكلب في اتجاهها ساحبًا سلسلته المكسورة خلفه، ثم بدأت في الركض بكل قوتها وهي تصيح مستنجدة، ولكن بعد عدة أمتار باغتها الكلب؛ فسقطت أرضًا وهي واثقة من الموت المحتم، لقد كان الكلب فوقها بالفعل، وفي تلك اللحظة دوى

صوت عيار ناري؛ فاندفع الكلب إلى الأمام منتصبًا يخدش الأرض بمخالبه، أطلق عواءً أجش وصيحات مبحوحة، قبل أن يهوي على الأرض جثة هامدة، جاء لوبين مسرعًا وهو يقول:

- اطمئني؛ لقد مات. كان متأهبًا لإطلاق رصاصة أخرى من مسدسه.

نهضت الفتاة عن الأرض تنفض ملابسها وهي شاحبة الوجه تترنح، ولكنها أخذت تتأمل هذا الرجل الغريب الذي ظهر من العدم فجأة لإنقاذها، ثم تمتمت قائلة:

- شكرًا لك، لقد أوشكت على الموت، لقد ظهرت في الوقت المناسب يا سيدي.

خلع لوبين قبعته، وانحنى لها:

- اسمحي لي أن أُقدِّم نفسي يا آنستي، أنا جان دوبريل، حمدًا لله على سلامتك، هل تسمحين لي بلحظة من فضلك؟

انحنى فوق جسد الكلب الضخم، متفحصًا السلسلة التي استطاع الوحش كسرها، قال بصوت خفيض، وكأنه يُحدِّث نفسه:

- تمامًا كما توقعت، اللعنة! لقد بدأت الأحداث تتسارع، كان لا بد أن أصل قبل ذلك. ثم عاد مرة أخرى إلى الفتاة، قائلًا:

- آنستي، ليس لدينا وقت لنضيعه، وجودي في هذه الحديقة الآن آمر خطير للغاية، لا أريد أن أتفاجأ بشيء لا أتوقعه، بما أنني ما زلت في وسط عملية البحث والتحقيق؛ لذا دعيني أطرح عليكِ سؤالًا ما، وتأكدي أن كل هذا لأسباب تخص سلامتك وحدك ليس إلا: هل تتوقعين أن أحدًا في المنزل قد سمع الرصاص؟

بدت الفتاة حائرة لا تفهم أي شيء، وبعد لحظات بدا عليها الانتباه، وكأنها قد استفاقت من إغماءة للتو؛ فأجابت بتأكيد كشف عن طبيعتها الشجاعة:

- لا أعتقد هذا يا سيدي.

- هل والدك في القصر؟

- والدي مريض منذ شهور لا يغادر فراشه، بالإضافة إلى ذلك تقع غرفة نومه في الجانب الآخر من القصر.

- ماذا عن الخدم؟

- هم أيضًا يعيشون ويعملون في الجانب الآخر من القصر، لا أحد يأتي إلى هنا غيري.

- جيد جدًّا، إذن فلم يرَني أحد، خاصةً أن هذه الأشجار ساعدتني على الاختباء جيدًا.

- نعم.

- هل من الممكن أن أتحدث إليكِ بحرية الآن؟

- أتمنى ذلك؛ فأنا لا أفهم أي شيء!

- سوف تفهمين كل شيء الآن.

اقترب منها قليلًا، ثم بدأ في الحديث بنبرة جدية:

- سوف أحاول الاختصار قدر المستطاع، منذ أربعة أيام كتبت الآنسة جين دارسو... قاطعته قائلة:

- إنها أنا.

استكمل لوبين:

- كتبت الآنسة جين دارسو رسالة إلى إحدى صديقاتها تُدعَى مارسيلين تعيش في فرساي.

قالت الفتاة بنبرة ذهول:

- كيف عرفت هذا؟! لقد مزقت الرسالة قبل أن أكملها...

- قمتِ بإلقائها على الطريق الممتد أمام القصر إلى (فاندوم).

- في الحقيقة لقد كنت أتنزه بعض الوقت هناك بمفردي في هذا اليوم.

- تم تجميع القطع ووصلتني في اليوم التالي.

- إذن لقد قرأتها. قالتها بنبرة انزعاج واضحة.

- نعم، لقد قمت بهذا الفعل الطائش، ولن أندم عليه أبدًا؛ لأني نتيجة ذلك أستطيع أن أنقذك.

- تنقذني! من ماذا؟

- من الموت.

قال لوبين هذه الكلمة بصوت راسخ وهو يحدق بثبات في عينيها، ارتجفت الفتاة الصغيرة، وقالت متلعثمة:

- ولكني لست مهددة بالموت يا سيدي، هناك خطأ ما بالتأكيد!

- استمعي إليَّ جيدًا، قرب نهاية شهر أكتوبر عندما كنتِ جالسة تقرءين على مقعد في الشرفة حيث اعتدتِ أن تجلسي كل يوم في نفس الوقت، سقطت من الدور العلوي قطعة كبيرة من الحجر، هوت على قيد أنملة منكِ، وكان من الممكن أن تسحقكِ فورًا.

- إنها صدفة.

- وفي أمسية هادئة أخرى من شهر نوفمبر، عندما كنتِ تسيرين بمفردكِ في البستان الخاص بالخضراوات تحت ضوء القمر، انطلقت رصاصة من مكان مجهول لتمر بالقرب من أذنيكِ...

- رصاصة؟! لقد كنت أظن...

- وأخيرًا الأسبوع الماضي، كنتِ تمرين فوق الجسر الخشبي الصغير فوق النهر على بعد مترين من الشلال، أنهار الجسر من تحت قدميكِ وكدتِ أن تسقطي في الماء، لولا أنكِ استطعتِ التشبث بأحد فروع الأشجار.

حاولت جين دارسو أن تداري اضطرابها بابتسامة، ولكنها لم تستطِع إخفاء خوفها الذي ظهر في صوتها وهي تقول:

- على كلٍّ؛ لا أرى في أيٍّ من تلك الأحداث -كما كتبت لمارسيلين- سوى سلسلة من المصادفات الغريبة، مجرد سوء حظ.

- إنكِ مخطئة يا آنستي، صدفة من هذا النوع ممكن أن تحدث فعلًا، ولو تكررت فيمكننا أن نقول فعلًا سوء حظ، ولكن من غير المنطقي الافتراض أن الصدفة تتكرر ثلاث مرات على التوالي، وبطرق مخيفة؛ لذا قررت أن أُقدِم على الفور لإنقاذك، ومساعدتي لا يمكن أن تكون مفيدة إلا إذا أتيت سرًّا؛ لذلك دخلت من هنا بدلًا من الباب الخلفي، ولقد كان دخولي في الوقت المناسب بالفعل كما قلتِ، لقد حاول العدو مهاجمتك مرة أخرى.

- كيف؟ هل تعتقد فعلًا أن هناك مَن يحاول قتلي؟ لا أستطيع أن أصدق هذا.

التقط لوبين السلسلة وعرضها عليها:

- انظري إلى الحلقة الأخيرة، ليس هناك شك أنها قد فُتِحت بمبرد قوي، لولا هذا فلا يمكن لسلسة بهذه القوة أن تنقطع، علاوة على ذلك فإن علامة المبرد واضحة للغاية.

امتُقِع وجهها، وبدأت علامات الخوف تعلو ملامحها الرقيقة، ثم أخذت تتساءل:

- لكن مَن الذي يحاول قتلي؟ مَن الذي يكرهني إلى هذا الحد؟ فلم أؤذِ أحدًا طوال حياتي. سكتت لحظات، ثم أكملت:

- ولكن أنت على حق فعلًا، لا أنكر بأني حاولت تجاهل الأمر، ولكن لا فائدة الآن، كما أنني.. تنهدت بحرقة، ثم قالت: أتساءل لو كان هذا الخطر المحيق بي يهدد والدي أيضًا؟

- هل تعرَّض لأي حادث مؤخرًا هو الآخر؟

- لا، وذلك لأنه لا ينتقل من غرفته أبدًا؛ فمرضه غريب للغاية، لم يعد يقوى على القيام بأي شيء، حتى إنه لا يستطيع المشي، ويعاني من اختناق مفاجئ في بعض الأحيان؛ كما لو أن قلبه سيتوقف، يا إلهي! كم هذا مخيف!

شعر لوبين في تلك اللحظة أن الفتاة ضعيفة للغاية، وأنها لحظة مناسبة لمحاولة اكتساب ثقتها الكاملة، فقال لها:

- لا تخافي يا آنستي، ما عليكِ سوى أن توليني كامل ثقتكِ؛ فأنا أؤكد لكِ أن بإمكاني مساعدتكِ، فقط أريد أن أستفسر منكِ عن بعض الأشياء.

وعلى الفور وجَّه لوبين إليها بعض الأسئلة السريعة، وقد استجابت جين دارسو بالرد عليها جميعًا بكل شجاعة:

- هل تم إطلاق سراح هذ الكلب من قبل؟

- مطلقًا.

- مَن يقوم بإطعامه؟

- الحارس، يضع له الطعام الخاص به عند حلول الليل.

- إنه يستطيع إذن الاقتراب منه دون أن يتعرض للهجوم؟

- نعم، هو فقط مَن يستطيع التعامل معه؛ فلقد كان شرسًا للغاية.

- ألا تشكين في هذا الحارس؟

- أوه! بابتيست؟! أبدًا.

- ألا تشكين في أحد من الخدم؟

- لا، الخدم هنا مخلصون للغاية، إنهم بمثابة أهلي؛ فهم يحبونني كثيرًا.

- ليس لديكِ أصدقاء بالجوار؟

- لا.

- ولا إخوة؟

- لا.

- إذن ليس لديكِ سوى والدكِ، هو فقط مَن يستطيع حمايتكِ هنا؟

- نعم، ولقد أخبرتك بحالته بالفعل.

- هل أخبرتِه عن هذه الأحداث الأخيرة؟

- نعم، لقد ندمت كثيرًا بعدها؛ فلقد منعني الطبيب من إخباره بأي شيء من الممكن أن يؤثر سلبًا على نفسيته.

- ماذا عن والدتكِ؟ أين هي؟

- لا أتذكرها تقريبًا، لقد ماتت منذ ما يقرب من ستة عشر عامًا.

- كم كان عمرك وقتها؟

- أقل من خمس سنوات تقريبًا.

- ماذا عنكِ؟ هل قضيتِ حياتكِ بأكملها هنا؟

- لا، كنا نعيش في باريس، لقد عدنا إلى هذا القصر في العام الماضي فقط.

صمت لوبين بعض لحظات، ثم قال:

- حسنًا، شكرًا يا آنستي، هذه المعلومات كافية لي في الوقت الحالي، كما أنني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك.

- ولكن بعد قليل سيجد الحارس الكلب ميتًا، فمَن الذي قتله؟

- أنتِ يا آنستي، لقد كنتِ تدافعين عن نفسكِ.

- ولكني لا أحمل مسدسًا.

- عليكِ الادعاء بأنك تملكين واحدًا بالفعل -قال لوبين هذه الجملة وهو يبتسم- ولقد قمتِ بقتل هذا الكلب عندما هاجمكِ فجأة، فمَن يستطيع فعل هذا غيركِ؟ عندما تقتنعين بذلك سيصدقكِ الجميع، أهم شيء ألا يشعر أحد بوجودي على الإطلاق، خاصةً عندما أعود لدخول القصر أمام العلن.

- تعود للقصر؟ هل تنوي فعل ذلك حقًّا؟

- بالتأكيد، لم أتوصل إلى طريقة بعد، ولكني سأعود هذا المساء؛ لذا أكرر: عليكً أن تبقي هادئة ومطمئنة، سوف أقوم بحل كل الأمور.

ابتسمت جين وهي تنظر إليه، وقد غزاها شعور بالثقة والأمان كانت تفتقده، ثم قالت بنبرة هادئة:

- أنا مطمئنة.

- كل شيء سيغدو على ما يُرام، أراكِ في المساء يا آنستي.

- إلى اللقاء.

ابتعدت قليلًا وتابعها لوبين بعينيه، حتى اختفت بالقرب من باب القصر، فتمتم لنفسه:

- يا لها من فتاة رقيقة! من الظلم أن يحدث لها أي مكروه، لحسن الحظ أن أرسين لوبين بجانبها.

لم يُلقِ بالًا بوجود أحد يراقبه، أخذ يتجول في الحديقة؛ بحثًا عن الباب الصغير الذي رآه بالخارج، وعندما وجده اكتشف أنه باب بستان الخضراوات، أزال القفل، وأخذ المفتاح في جيبه، ثم خرج من القصر، ومشى على طول السور المحيط بالقصر، حتى وجد نفسه أمام الشجرة التي تسلقها، وبعد دقيقتين عاد إلى دراجته النارية، كانت قرية (موبيرتوس) تقع بالقرب من القصر، ذهب إليها لوبين ليستفسر عن مكان الطبيب جيرولت، فعرف أنه يعيش بجوار

الكنيسة، ذهب إلى هناك وقرع الجرس، قاده الممرض إلى غرفة الاستشارات، التقى بالطبيب وعرَّفه بنفسه باسم جان دوبريل، مقيم في باريس بشارع دو سيرين، أخبره بأنه أتى في مهمة عاجلة، وأن له علاقات غير رسمية بجهاز الأمن؛ لذلك يعمل في سرية تامة، أعلمه برسالة الآنسة جين دارسو، والأحداث التي عرَّضت حياتها للخطر؛ مما توجب عليه الإتيان فورًا لإنقاذ الفتاة الصغيرة. أبدى الطبيب العجوز جيرولت، الذي طالما كان عطوفًا على جين المسكينة، إعجابه الشديد بتفسيرات لوبين، وأن هذه الأحداث الغريبة تُشكِّل دليلًا لا يمكن دحضه على وجود مؤامرة محكمة التخطيط. أحسن الطبيب ضيافة زائره، ودعاه لتناول العشاء برفقته؛ لاستكمال حديثهما.

بعد العشاء ذهبا معًا إلى القصر، صعد الطبيب إلى غرفة المريض التي تقع في الطابق الأول، وطلب منه الإذن بدخول واحد من تلاميذه المجتهدين، والذي ينوي أن يعهد إليه بكل أعماله الفترة المقبلة لأخذ استراحة، ثم دخل لوبين وقدَّمه الطبيب للمريض والآنسة جين دارسو التي كانت تقف إلى جوار سرير والدها، محاولة قمع ملامح الدهشة التي تملكتها من هذه الطريقة المبتكرة التي استخدمها لوبين للدخول بكل جرأة إلى القصر، وبإشارة من الطبيب خرجت الفتاة؛ ليتمكن الطبيب من فحص المريض، كان السيد دارسو شاحبًا، وقد استبد به الألم والمعاناة، عيناه تحترقان من الحمى والإعياء، فكان طول اليوم يشتكي من ألم في قلبه، كان يشكي ألمه إلى الطبيب طوال عملية الفحص بقلق بالغ، أخذ الطبيب يطمئنه ويهدئ من روعه قليلًا بصدر رحب، حتى تطرق الحديث عن حالته النفسية، وجاء ذكر الآنسة جين، كان مقتنعًا أن ابنته معرضة للخطر، وأنها نجت في الفترة الأخيرة من حوادث كثيرة، وعلى الرغم من نفي الطبيب ومحاولة طمأنته؛ فإنه ما زال قلقًا، وقد أعلن رغبته في إبلاغ الشرطة للتحقيق في الأمر، بدا عليه الإنهاك الشديد، وقد استنفد هذا الحديث قواه؛ فشعر بخمول شديد، وبدأت أجفانه تثقل بالنوم تدريجيًّا، حتى دخل في سبات عميق. وعندما خرجا من الغرفة، أوقف لوبين الطبيب في الردهة، وقال له:

- دعني أسألك شيئًا يا سيدي، هل يمكننا القول إن مرض السيد دارسو وما آلت إليه حالته له سبب خارجي؟ بمعنى أنه قد يكون بفعل فاعل؟

- كيف هذا؟

- لنفترض أن العدو لديه مصلحة في القضاء على الأب أيضًا، وليس ابنته فقط.

اندهش الطبيب من هذه الفرضية، ثم قال:

- في الحقيقة تظهر عليه أعراض طبيعية بالنسبة لمرضى القلب، أما هذا الشلل التام الذي حدث له؛ لا أجد له تفسيرًا حتى الآن!

أخذ يفكر بجدية، ثم استأنف حديثه بصوت منخفض:

- أمن الممكن أن يكون سمًّا؟ ولكن في هذه الحالة أي نوع من السم قد

يسبب هذا الضعف والشلل؟! بالإضافة إلى أنني لا أجد أي أعراض أخرى؟ من المفترض أن... ثم قطع حديثه فجأة وهو ينظر إلى لوبين في دهشة: ماذا دهاك؟

كان الرجلان يقفان في الردهة أمام غرفة صغيرة في نفس الطابق؛ حيث كانت جين تجلس أمام مائدة العشاء مستغلة فرصة وجود الطبيب مع والدها، كان لوبين يراقبها من خلال فتحة الباب وهي تحمل فنجانًا بين يديها، وقد تناولت منه بعض الرشفات، اندفع نحوها ممسكًا بذراعها:

- ماذا تشربين؟

قالت مرتبكة:

- إنه مجرد فنجان من الشاي.

- لماذا رأيتكِ ممتعضة من طعمه؟

- نعم، لقد بدا لي...

- ماذا؟

- لقد بدا أكثر مرارة، ربما نابع من الدواء الذي أضعه داخله.

- أي دواء؟

- بعض القطرات أضعها في الشاي بعد كل عشاء، قد وصفها لي الطبيب، أليس كذلك يا سيد جيرولت؟

- نعم، ولكن هذا الدواء لا يغير طعم أي شيء، أنتِ تعلمين هذا يا جين؛ فأنت تتناولينه منذ خمسة عشر يومًا حتى الآن، هل هذه المرة الأولى التي يبدو طعمه غريبًا هكذا؟

- نعم -تمتمت الفتاة- أشعر بحرقة غريبة في فمي.

تناول الطبيب الفنجان، وأخذ منه رشفة بسيطة، ثم بصقه قائلًا:

- آه! طعمه مقرف فعلًا.

أخذ لوبين زجاجة الدواء وفحصها جيدًا، ثم سأل جين:

- أين تضعين هذه الزجاجة في النهار؟

ولكن لم تستطِع جين الإجابة، وضعت يدها فوق صدرها، شحب وجهها وزاغت عينها، كانت تشعر بألم شديد، ثم قالت بنبرة واهنة:

- ساعدوني.

حملها لوبين فورًا إلى غرفة نومها، ووضعها فوق السرير، ثم توجه إلى الطبيب قائلًا:

- نحتاج إلى دواء يجعلها تتقيأ بسرعة.

رد عليه الطبيب بسرعة:

- نعم، افتح الخزانة هناك -جرى لوبين في اتجاهها فورًا- ستجد مجموعة من الإسعافات الأولية أمامك، أخرِج هذه الحبوب، هل وجدتها؟ نعم، إنها هي، نحتاج إلى وضعها في كوب من الماء الساخن، إبريق الماء الساخن الخاص بالشاي في الغرفة المجاورة، جاءت الخادمة الخاصة بجين على الفور؛ فشرح لها لوبين في كلمات بسيطة:

- أرجو منكِ مساعدة الطبيب جيرولت؛ فلقد تعرضت الآنسة جين لحادث بسيط.

عاد إلى الغرفة المجاورة، وأخذ يتفحص الخزانة والدواليب الجانبية ومائدة الطعام، ثم نزل إلى الطابق الأرضي حيث المطبخ؛ مدعيًا أن الطبيب قد أرسله للتحقق من النظام الغذائي الذي يتبعه السيد دارسو، ودون أن يشك أحد بشيء إطلاقًا أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع الطباخة والخادم وباتيست الحارس ببساطة شديدة، بينما كانوا يتناولون عشاءهم في المطبخ، وفي طريق عودته إلى الغرفة وجد الطبيب أمامه:

- ما حالتها الآن؟

- إنها بخير الآن، لقد نامت.

- أليس هناك خطر؟

- لا، لحسن الحظ أنها لم ترشف سوى ثلاث أو أربع رشفات فقط، ولكنها المرة الثانية التي تنقذ فيها حياتها اليوم، لقد أصبح الوضع خطرًا، لقد أخذت الزجاجة معي، فعند تحليلها سأتمكن من الحصول على دليل قاطع.

- تحليل عديم الفائدة يا سيدي، إنها محاولة تسميم بالتأكيد.

- لكن مَن الذي فعل هذا؟

- لم أعرف بعد، ولكن من الواضح أن الشيطان الذي أعد كل هذا يعرف عادات سكان القصر جيدًا، يأتي ويذهب كما يشاء يخلط السم مع الأدوية، يمشي في أروقة القصر ويتجول في الحديقة بكل حرية، يقطع سلسلة الكلب بسلاسة، يتصرف بكل أريحية وكأنه واحد منهم.

- أحد من الخدم إذن؟ غير معقول!

- لا أستطيع افتراض أي شيء الآن، أنا مشوش للغاية، فكل ما يمكنني قوله إن الوضع أصبح مأساويًّا فعلًا، ويجب أن نخشى عواقبه، الموت يتجول داخل هذا القصر يا سيدي، وإن لم نأخذ كامل حذرنا؛ فسرعان ما سيفتك بمَن يطاردهم.

- ماذا يتوجب علينا فعله الآن؟

- اليقظة التامة، أن نبقي أعيننا عليهم جيدًا، دعنا ندعي أن صحة السيد دارسو ليست على ما يرام هذه الليلة، وبأننا سنبقى إلى جواره في هذه الحجرة الصغيرة حتى الصباح؛ فغرفتا الأب والفتاة قريبتان للغاية، وإذا وقع شيء ما؛ فمن المؤكد أننا سنتداركه على الفور.

كان لديهم داخل الحجرة كرسي كبير بذراعين، اتفقا على تناوب النوم فوقه، في الحقيقة لم ينَم لوبين سوى ساعتين، وعند منتصف الليل، ودون أن يزعج رفيقه، خرج من الغرفة، وأخذ يتجول في القصر، ثم خرج من الباب الرئيس، وفي حوالي التاسعة صباحًا كان قد وصل إلى باريس على دراجته النارية، كان ينتظره اثنان من أصدقائه بعد أن أخبرهم وهو في طريقه عن اقتراب وصوله، وأنه بحاجة إليهم في مهمة ما، قضى كل منهم اليوم بأكمله في عملية البحث الذي خطط لها لوبين، كل واحد منهم يبحث في اتجاه مختلف عن الآخر، وعند السادسة مساءً عاد إلى القصر مرة أخرى، وكما أخبرني فيما بعد؛ فإنه لم يخاطر أبدًا بحياته مثلما فعل هذه المرة، كان يقود بسرعة فائقة في أمسية ضبابية من شهر ديسمبر، مخترقًا ظلام الليل البارد.

أمام البوابة الرئيسية التي كانت ما تزال مفتوحة، قفز من الدراجة، وركض في اتجاه القصر، صعد الطابق الأول ودخل الغرفة الصغيرة؛ فلم يكن بها أحد، ودون تردد دلف إلى حجرة جين دون أن يطرق الباب، ثم قال في نبرة ارتياح واضحة وهو يسترد أنفاسه:

- ها أنت ذا!

لقد كانت جين تجلس إلى جوار الطبيب في وداعة يتبادلان الحديث. سأله الطبيب جيرولت بنبرة قلقة بعد أن رآه على هذه الحالة من التوتر، فلم يعهده سوى رجل هادئ الطبع:

- ماذا؟ هل هناك شيء جديد؟

- لا، لا شيء جديد، ماذا عنكم؟

- لا شيء أيضًا، لقد تركنا السيد دارسو للتو يتناول طعامه، وكانت شهيته في حالة جيدة بعد أن قضى يومًا هادئًا، أما عن جين فها هي أمامك، لقد استردت صحتها، وأشرق وجهها من جديد.

- ومع ذلك فيجب عليكِ أن تغادري القصر.

احتجت الفتاة على كلام لوبين:

- هذا مستحيل.

صرخ لوبين وهو يضرب الأرض تحت قدميه بعنف:

- علينا أن نقوم بذلك على الفور.

ولكنه سرعان ما سيطر على انفعاله، وتمتم بكلمات الاعتذار على أسلوبه العنيف، بقي صامتًا ثلاث أو أربع دقائق، وكأنه وقع في تفكير عميق، بقيت خلالهم جين والطبيب صامتين أيضًا، حريصين على عدم قطع أفكاره أو إثارة إزعاجه، وأخيرًا نظر للفتاة قائلًا:

- ستغادرين في الصباح يا آنستي، لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط، سأصطحبكِ بنفسي إلى صديقتكِ مارسيلين في فرساي، أرجو منكِ أن تجهزي كل شيء بدايةً من الآن، لا داعي للإخفاء، يمكنكِ أن تخبري الخدم، وسيقوم الدكتور جيرولت بإبلاغ السيد دارسو وإقناعه بضرورة هذه الرحلة؛ حفاظًا على سلامتكِ، وسوف يلحق بكِ على الفور حالما يسترد صحته قليلًا، نحن على وفاق الآن، أليس كذلك؟

أومأت جين برأسها علامة الموافقة؛ متأثرة بنبرة لوبين القوية والمقنعة قائلة:

- نعم.

- في هذه الحالة أسرعي بإعداد حقيبتكِ ولا تغادري غرفتكِ أبدًا.

قالت الفتاة بصوت مرتجف:

- ولكن... هل ستتركاني هنا بمفردي؟

- لا تخافي، عند أقل شعور بالخطر؛ ليس عليكِ سوى الطرق على الباب ثلاث مرات، وسنعود أنا والطبيب فورًا، والعكس عند سماع الطرقات الثلاثة؛ عليكِ فتح الباب دون خوف.

دقت جين الجرس لاستدعاء خادمتها؛ لتساعدها في إعداد الحقائب، بينما مضى الطبيب إلى غرفة السيد دارسو، وذهب لوبين إلى الغرفة الصغيرة لتناوُل بعض الطعام الذي أعدته له الطباخة، عاد الطبيب بعد عشرين دقيقة، قائلًا:

- لقد انتهت مهمتي، لم يعترض السيد دارسو، لقد كان مقتنعًا في أعماقه بضرورة إبعاد الآنسة جين.

خرجا كلاهما، وغادرا القصر، وعند البوابة الرئيسية قال لوبين للحارس:

- يتوجب عليك الانتباه، والتأكد من غلق البوابة جيدًا يا صديقي، وإذا احتاج السيد دارسو إلينا؛ فلتبعث لاستدعائنا فورًا.

دقت الساعة التاسعة بالقرب من كنيسة موبيرس، وتحت الغيوم التي يمر من بينها القمر من حين إلى آخر سار الرجلان في صمت حوالي مئة خطوة، كانا يقتربان من القرية عندما أمسك لوبين بذراع الطبيب فجأة، وقال:

- قف من فضلك.

قال الطبيب في دهشة:

- ماذا هناك؟

قال لوبين بنبرة متوجسة وصوت منخفض:

- انتبِهْ إلى حديثي جيدًا، فطبقًا لتوقعاتي وإن لم يخب ظني في تفسير هذه القضية؛ سيتم اغتيال الآنسة دارسو الليلة.

- ماذا تقول؟ -تلعثم الطبيب- إذن لماذا غادرنا وتركناها؟

- تحديدًا من أجل ألا يفكر المجرم، والذي يتابع كل خطواتنا في الخفاء بالمناسبة، أن يؤجل خطته لأكثر من ذلك، أن يقوم بما ينوي القيام به ليس في التوقيت الذي يريده هو، بل في التوقيت الذي حددته أنا.

- هل أفهم من ذلك أننا سنعود إلى القصر مرة أخرى؟

- بالتأكيد، كل منا بمفرده، وفي طريق مختلف.

- هيا بنا إذن.

- اسمعني جيدًا يا سيدي، دعنا لا نضيع الوقت هباءً أكثر من ذلك، يتوجب عليك تنفيذ كل ما سأقوله جيدًا، بدايةً علينا إحباط أي محاولات للمراقبة، فيتوجب عليك العودة إلى منزلك، ولا تغادره إلا بعد أن يمضي بعض الوقت حين تتأكد ألا أحد يتتبعك، وبعد ذلك عليك أن تعود مرة أخرى إلى القصر، ولكن من جهة اليسار، حتى تصل إلى الباب الخلفي الصغير لحديقة الخضراوات، ها هو مفتاحه، وعندما تدق ساعة الكنيسة العاشرة سوف تفتح الباب بهدوء، وتدلف إلى داخل الحديقة حتى تصل إلى الشرفة الدائرية حول القصر، ستجد النافذة الخامسة من الخلف غير مغلقة تمامًا، ما عليك سوى أن تدفع مصراعيها وتدخل بهدوء، وعندما تبلغ حجرة الآنسة جين اقرع الباب بالطريقة المتفق عليها، ثم أغلِق الباب بالترباس جيدًا من خلفك، لا تتحركا أبدًا مهما حدث، هل سمعتني جيدًا؟ لا تبرحا مكانكما مهما كان ما تسمعونه أو تشعرون به، بالمناسبة لقد رأيت الآنسة دارسو تترك نافذة الحمام الملحق بغرفتها مفتوحة، أليس كذلك؟

- نعم، علمتها هذه العادة.

- سيأتي العدو من هناك.

- وماذا عنك؟

- سأدخل من نفس المكان أيضًا.

- هل علمت مَن هذا الوغد؟

تردد لوبين قليلًا، ثم أجاب:

- لم أعلم بعد، ولكن بعد قليل سنتمكن من معرفة كل شيء، أوصيك بالتزام الصمت والهدوء التام يا سيدي، لا لفتة ولا حركة مهما حدث.

- حسنًا.

- ليس كافيا، عليك أن تعطيني كلمتك.

- أعدك بشرفي أن أنفذ ما تطلبه تمامًا.

غادر الطبيب صوب منزله، وعلى الفور سلك لوبين طريقه نحو تلة صغيرة، صعد فوقها؛ يمكنه من خلالها رؤية الطابق الأول والثاني من المنزل جيدًا، فأخرج منظاره، كانت الأنوار ما زالت مضاءة؛ فانتظر طويلًا حتى بدأت الأضواء تنطفئ والنوافذ تُغلَق واحدة بعد الأخرى، هبط من فوق التلة وسلك طريقًا أخرى غير طريق الطبيب، استدار جهة اليمين، وسار على طول السور المحيط بالقصر حتى وصل إلى الشجرة التي كان يسند إليها دراجته البخارية، كانت الساعة تدق العاشرة، فانتظر وهو يحسب المدة التي يتمكن من خلالها الطبيب من عبور البستان حتى يدخل إلى القصر، ثم تمتم لنفسه:

- من المفترض أن يكون كل شيء جاهزًا الآن، هيا يا لوبين، لقد حان دورك، لن يتأخر المجرم عن لعب آخر أوراقه لنيل مراده، ويجب أن أكون حاضرًا لمواجهته.

صعد الشجرة بنفس الطريقة التي قام بها من قبل؛ حيث تمكن من الوصول للأغصان الكبيرة، وفي تلك اللحظة تناهى إلى سمعه صوت خطى أقدام فوق أوراق الشجر المتيبسة، وتمكن من رؤية الظل الذي يتحرك تحته على بعد ثلاثين مترًا، تمتم لنفسه:

- اللعنة! لقد كشف هذا الوغد خطتي. انقشعت الغيوم لثانية، فمر شعاع من ضوء القمر، تمكن لوبين خلاله من رؤية وجه الرجل بوضوح حاملًا بندقيته فوق كتفه، أرد لوبين أن يقفز على الأرض، ولكنه شعر بصدمة في صدره وسمع صوت طلق ناري، سقط من غصن إلى غصن حتى هوى فوق الأرض مثل الجثة.

أما الدكتور جيرولت فقد اتبع تعليمات لوبين، دخل من النافذة الخامسة، وعندما وصل إلى غرفة جين طرق الباب؛ ففتحت له وأدخلته وأوصد الباب جيدًا من خلفه.

- استلقي فوق سريرك الآن، قال الطبيب إلى الفتاة التي كانت ترتدي ملابس في غاية الأناقة؛ مستعدة للخروج.

سرت رعدة برد في جسده، فقال:

- بررر، يا إلهي! الجو قارس البرودة هنا، هل تركت نافذة الحمام الصغير مفتوحة؟

- نعم، أتريد أن أغلقها؟

- لا، اتركيها، سوف يأتي منها.

تلعثمت تكرر باندهاش:

- سوف يأتي!

- نعم.

- هل توصلتم إلى معرفته؟

- ليس بعد، ولكن من المفترض أن هناك مَن يختبئ في القصر أو في الحديقة الآن في محاولة جديدة للتخلص منكِ.

- يا إلهي! أنا خائفة.

- لا تخافي، يبدو أن هذا الرجل الذي يحميكِ ماهر للغاية، ولا يقوم بأي فعل إلا بعد دراسته جيدًا، من المؤكد أنه في مكان ما في الحديقة الآن يتربص للعدو.

أطفأ الطبيب ضوء الحجرة، واقترب من النافذة، رفع الستارة بعض الشيء ليراقب الحديقة، لم يرَ سوى جزء صغير من الحديقة؛ حيث كان الطابق الأول محاطًا بإفريز عريض من الطوب لا يسمح برؤية ما تحته؛ فعاد ليجلس جوار السرير.

مرت دقائق طويلة ومتوترة فيما بينهما، حتى سمعا دقات الساعة من بعيد تقطع هدوء الليل، وهما يصغيان جيدًا بأعصاب مضطربة:

تمتم الطبيب فجأة:

- هل سمعتِ؟

- نعم، قالت جين وهي تجلس فوق السرير.

- استرخي بكل هدوء؛ كأنكِ نائمة تمامًا، يبدو أنه قادم.

كان هناك صوت يأتي من الخارج من فوق الإفريز غالبًا، ثم تبعه بعض الأصوات المتضاربة التي لم يتمكنا من تحديد طبيعتها، ولكنهما شعرا بأن نافذة الحمام فُتِحت على مصراعيها، لقد كان هناك شخص داخل الغرفة الآن.

كانت يد الطبيب ترتعش وهو يقبض على مسدسه، ولكنه لم يتحرك من مكانه، متذكرًا حديثه مع لوبين، كما أنه كان يخاف من اتخاذ أي قرار متهور، كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس؛ لذلك لم يتمكن من تحديد مكان الشخص جيدًا، لكنهما كانا متأكدين من وجوده، أخذا يتابعان صوت خطواته فوق السجاد واقترابه في هدوء مرعب، لم يكن هناك شك بأنه قد تجاوز عتبة الغرفة، توقف فجأة، وكان على بعد خمس خطوات أو أقل من السرير، وقف بلا حراك فترة، محاولًا أن يخترق الظلام بنظراته الحادة، كانت يد جين المتشنجة تتصبب عرقًا ممسكة بيد الطبيب بشدة وهي ترتجف، ويده الأخرى تمسك بمسدسه بقوة، وقد وضع إصبعه فوق الزناد مستعدًا لإطلاق النار لو تقدم هذا الشخص أكثر، كان هذا الصمت والانتظار يفوق قدرة جين على التحمل، كانت في حالة من الرعب يُرثَى لها، أما الطبيب فقد كان يريد معرفة مَن هذا الوغد الذي يريد التخلص من تلك الفتاة الصغيرة؟ أي حقد رهيب يدفعه لذلك؟ وما الفائدة التي

سيجنيها من ارتكاب هذه الجريمة الفظيعة؟

على الرغم من خوفهما؛ فلم يفكرا إلا في كشف القناع عن هذا الشخص الذي يقف أمامهما.

اتخذ خطوة أخرى للأمام؛ فبدا لهما هيكله بارزًا أكثر، فرأوا يده ترتفع شيئًا فشيئًا، وفجأة انبعث ضوء قوي انعكس على جبهة الرجل ناحية اليمين، أطلقت جين صرخة فزع هائلة، لقد كان الرجل يقف أمامها مباشرةً، وفي يده خنجر موجه نحوها، لقد رأت وجهه جيدًا، وعرفته على الفور للأسف، لقد كان والدها!

في نفس لحظة مرور الضوء دوى صوت طلق ناري أطلقه الطبيب، ثم صوت صياح:

- توقف، لا تطلق النار ثانيةً.

كان لوبين يصرخ بقوة مندفعًا نحو الطبيب، حتى أمسك ذراعه، بينما تلعثم الطبيب ووجهه يصرخ من المفاجأة:

- أرأيت هذا؟ انظر، إنه يهرب!

- دعه يهرب؛ هذا أفضل.

أدار لوبين مفتاح الإضاءة، ودلف إلى الحمام؛ فلم يجد أثرًا للرجل، عاد بهدوء نحو الغرفة فرأى جين مستلقية فوق سريرها وقد فقدت وعيها، كان الطبيب يجلس جوارها فوق المقعد الكبير، ما زال في حالة صدمة يتمتم بكلمات غير مفهومة، ابتسم لوبين قائلًا:

- هيا يا سيدي الشجاع، تماسكْ قليلًا، لقد انتهى الأمر، ولم يعد هناك خطر.

- إنه والدها! صاح الطبيب العجوز.

- من فضلك يا سيدي، اعتني بها جيدًا.

ودون إضافة كلمة واحدة، عاد لوبين إلى الحمام مرة أخرى، صعد إلى حافة النافذة، وهبط من خلال سلم كان مستندًا على الحائط، هبط بسرعة فوق الإفريز، وأخذ يمشي فوقه بحذر، حتى وجد أمامه سلمًا آخر متكئًا إلى حافة نافذة أخرى، صعده بسرعة؛ فوجد نفسه داخل حجرة السيد دارسو التي كانت خالية، تمتم لنفسه:

- ممتاز، لقد أدرك الرجل خطورة موقفه؛ فهرب، أتمنى له رحلة موفقة.

فتح باب الغرفة واتجه في طريقه إلى غرفة جين، قابله الطبيب الذي كان يخرج من الغرفة في تلك اللحظة، وقال له:

- إنها نائمة الآن، دعنا لا نزعجها.

ثم قاده إلى الغرفة الصغيرة المجاورة، وقال:

- لقد كانت الصدمة شديدة للغاية، سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تتعافى.

التقط لوبين كأسًا من الماء وشربها، ثم جلس على المقعد ليستريح قليلًا:

- ستتعافى غدًا.

- ماذا؟ غير ممكن!

- أقول إنها ستكون بأفضل حال غدًا.

- ولماذا أنت متأكد هكذا؟!

- أولًا وقبل كل شيء، لم يبدُ لي أن الآنسة دارسو كانت تُكِن لوالدها عاطفة قوية.

- أيًّا كان، فهو ما زال والدها، فكِّرْ في الأمر! أب يحاول منذ أشهر قتل ابنته الوحيدة، حاول مرة واثنتين وثلاثًا وخمسًا، ألا يكفي هذا ليدمر روحًا بريئة ورقيقة كجين؟ يا لها من مأساة!

- سوف تتجاوز ذلك.

- أعتقد أنه أمر في غاية الصعوبة.

- ستتجاوز يا سيدي؛ بسبب أمر بسيط للغاية.

- وما هو؟

- أن السيد دارسو ليس والدها من الأساس.

- ماذا؟

- أكرر لك، إن الآنسة جين ليست ابنة السيد دارسو.

- لا أستطيع التصديق!

- السيد دارسو هو مجرد زوج والدتها، لقد وُلِدت بعد أن مات والدها الحقيقي، وتزوجت والدتها من ابن عم زوجها، والذي كان يحمل نفس الكنية، وتُوفِّيت في نفس العام الذي تزوجت فيه من السيد دارسو، وتركت جين وحيدة مع زوجها، أخذها إلى خارج البلاد، مدعيًا أنها ابنته، كما أنها هي أيضًا تتجاهل حقيقة نسبها طوال هذه السنين.

- هل أنت متأكد من هذه التفاصيل؟

لقد قضيت اليوم بأكمله في قاعات باريس الحكومية، ذهبت إلى السجلات المدنية، واستجوبت اثنين من موظفي العقود وشهادات الميلاد، واطلعت على جميع الوثائق التي لا يمكن الشك بها.

- ولكن ما زال هذا لا يفسر رغبته في تلك الجريمة، أو في سلسلة الجرائم التي أعدها!

- نعم، في المرة الأولى التي التقيت بها الآنسة جين، قادتني عبارة قالتها وسط حديثها إلى الطريق التي ينبغي عليَّ أن أسلكها؛ فقد قالت:

«لقد كنت في الخامسة من عمري عندما ماتت والدتي». منذ ستة عشر عامًا؛ أي أن الآنسة دارسو الآن عمرها واحد وعشرون عامًا؛ مما يعني أنها على وشك بلوغ سن الرشد، ومن ثَم انتبهت إلى تفصيلة صغيرة ومهمة، في ذلك العمر الذي بلغته وحسب القانون، لا بد من نقل ميراث الأم إلى ابنتها؛ بما أنها الوريثة الوحيدة لها، فما وضعها المالي حقيقةً؟ وصدقًا في تلك الأثناء لم يخطر الأب على بالي إطلاقًا، لا يمكن للمرء أن يتخيل مثل هذا الأمر غير الطبيعي؛ نظرًا للوضع الذي يمثله والحالة المأساوية التي يعيش بها، فهو مجرد مريض طريح الفراش، عاجز، لا يقوى حتى على النهوض.

- وهذا ما يدهشني؛ فقد كان مريضًا بالفعل، قلبه ضعيف للغاية!

- كل هذا جعله فوق مستوى الشبهات، لقد كنت أعتقد أنه مستهدف أيضًا من قِبَل شخص ما، ولكن بعد البحث وجدت أنه لا يوجد أحد من أقاربهما إطلاقًا لديه مصلحة في التخلص منهما، لقد كشفت رحلتي السرية هذه إلى باريس الحقيقة كاملة، تمتلك الآنسة دارسو ثروة كبيرة من والدتها، والتي يمكن لزوج والدتها الاستفادة منها، كان من المقرر أن يكون هناك اجتماع عائلي في باريس خلال الشهر المقبل؛ بناءً على دعوة من المحامي؛ لإكمال إجراءات نقل الميراث، ووقتذاك ستنكشف الحقيقة كاملة، وسيُمثِّل هذا الحدث نهاية السيد دارسو بالفعل.

- إذن ألم يكن يمتلك أي شيء؟

- لا شيء، لقد أضاع كل ممتلكاته في مراهنات خاسرة، وتكبد خسائر كبيرة.

- ولكن في النهاية حتى لو علمت جين بالحقيقة، أتوقع أنها لم تكن لتحرمه من إدارة ثروتها.

- هناك أمر آخر لم تعرفه يا سيدي، علمته عن طريق الرسالة الممزقة التي كتبتها جين، وهي أن الآنسة دارسو على علاقة عاطفية بشقيق صديقتها مارسيلين في فرساي، ولقد عارض والدها هذا الزواج، والآن قد وضح سبب معارضته، فكانت تنتظر أن تبلغ سن الرشد؛ لتتمكن من الزواج من حبيبها.

صمت الطبيب قليلًا، ثم قال:

- كما قلت فعلًا، لقد كانت نهاية السيد دارسو بالفعل.

- نعم، لم يتبقَّ أمامه سوى فرصة أخيرة للخلاص، وهي أن تموت ابنة زوجته الوريثة المباشرة لتلك الأموال.

- وذلك في حالة ألا يكون مشتبهًا به في حادثة موتها.

- نعم، بالفعل؛ لذلك قام بتدبير كل تلك الخطط؛ لكي يبدو الموت وكأنه حادث طبيعي، ولهذا السبب فقد رغبت في تعجيل الأمور، وطلبت منك إبلاغه بسرعة برحيل الآنسة دارسو، عندئذٍ لم يعد يفكر في الحادثة الطبيعية، أن يتجول في الحديقة أو يضع السم في الطعام، كان من الضروري أن يقوم بعمله على الفور، التصرف بحذر على قدر الإمكان، ولكن دون تخطيط مسبق، لقد كنت متأكدًا أنه سينفذ مهمته هذه المرة بسلاح مباشر، ولقد فعلها ولم يخِب ظني.

- إذن لم يكن يشك في شيء؟

- لقد بدأ بالارتياب مني، وبالطبع توقع مجيئي مرة أخرى ليلًا، فظل قابعًا في الحديقة ينتظرني بالقرب من الجدار.

سأله الطبيب في لهفة:

- وماذا حدث إذن؟

- ما حدث أني تلقيت رصاصة في صدري مباشرةً، أو بالأحرى في محفظتي، انظر إلى هنا، يمكنك رؤية الثقب؛ فسقطت من فوق الشجرة متصنعًا الموت، وبذلك اعتقد أنه تخلص من خصمه الوحيد، ثم اتجه نحو القصر ثانيةً، ظل يطوف حوله؛ فرأيته يُحضِر السلم ويضعه تحت النافذة، وقد حسم أمره بالتخلص من الفتاة، كان عليَّ فقط أن أتبعه.

أخذ الطبيب يفكر قليلًا، ثم قال:

- كان من الممكن أن تتعقبه وتنقض عليه قبل أن يدخل إلى هنا، فلماذا تركته يصعد؟ لقد كان مشهدًا في غاية القسوة لجين، كان بإمكانك منعه.

- كان لا بد من ذلك، لم تكن الآنسة دارسو لتصدق الحقيقة أبدًا، كان عليها أن ترى وجه الرجل بنفسها، بمجرد أن تستيقظ ستخبرها بالحقيقة كاملةً وستتعافى سريعًا.

- ولكن بالنسبة للسيد دارسو؟

- تأكد أنك لن تسمع عنه مرة أخرى.

أومأ الطبيب برأسه في صمت، ثم قال بنبرة هادئة:

- نعم، لقد قمت بدورك على أكمل وجه، وبمهارة فائقة، جين مدينة لك بحياتها، وبالتأكيد ستشكرك حينما تستيقظ، ولكن من جانبي، كيف يمكنني أن أرد لك الجميل؟ أخبرتني من قبل بأنك على اتصال بإدارة الأمن، هل من الممكن أن أكتب خطابًا لأثني على مهارتك وشجاعتك؟

ضحك لوبين، وقال:

- بالتأكيد، سيكون في صالحي أن تكتب مثل هذا الخطاب، اكتب إلى رئيسي المباشر: المحقق جانيمار، سيسعده أن تلميذه جان دوبريل من شارع دو سيرين نجح مرة أخرى في القيام بعمله على أكمل وجه، لقد كنت في خضم قضية كبيرة تحت قيادته، ولكني تركتها لفترة مؤقتة لحل قضية الآنسة جين، وهي قضية مشهورة؛ لعلك سمعت عنها، قضية الوشاح الأحمر، سيسعد السيد جانيمار حقًّا عندما يسمع عن إجادتي لعملي مرة أخرى.

إديث جميلة العنق

- لطالما وددت أن أعرف رأيك الحقيقي في المحقق جانيمار يا لوبين.

- إنه محقق جيد للغاية يا صديقي.

- جيد للغاية؟! إذن لماذا لا تفوت فرصة للسخرية منه؟!

- آه، إنها عادة سيئة للأسف، أحاول التخلص منها، ماذا عليَّ أن أقول؟ إنه بالفعل رجل مخلص لعمله، فنحن لدينا نخبة رائعة من رجال الشرطة الماهرين ممن يُعرّضون أنفسهم لمخاطر حقيقية؛ دفاعًا عنا، ولا يلقون في المقابل سوى الاستهزاء، أليس هذا فعلًا سخيفًا؟

- يا لك من مخادع يا لوبين! إنك تتحدث كبرجوازي أصيل الآن.

- ما عساي أن أكون غير ذلك؟ ربما كان لديَّ وجهة نظر خاصة بممتلكات الآخرين، ولكن هذه النظرة تتغير كليًّا عندما يتعلق الأمر بممتلكاتي أنا، أصبح عنيفًا للغاية؛ فأنا رجل محافظ، أحترم القانون، لا يجرؤ أحد على المساس بممتلكاتي؛ ساعتي أو محفظتي أو حقيبتي، ولهذا أُكِن كل الاحترام لجانيمار العزيز.

- احترام فقط، ولكنك لا تُكِن له الكثير من الإعجاب.

- بالعكس؛ أنا معجب به أيضًا، بالإضافة إلى الشجاعة التي تميز الكثير من رجال الشرطة يتميز جانيمار بصفات رائعة، مثل: قوة الإرادة، ونفاذ البصيرة، والحكمة؛ فقد رأيته وهو يعمل من قبل، هل تعرف قضية إديث جميلة العنق؛ كما كانوا يسمونها حينئذٍ؟

- لا أعرف أكثر مما يعرفه الآخرون.

- إذن أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق، ربما تكون هذه القضية من أفضل القضايا التي تعاونت فيها معه، وقد تتطلبت مني الكثير من التخطيط قبلها، والكثير من الحذر بعدها، فقد كانت من أكثر المغامرات غموضًا، تحتاج إلى الكثير من الحدس والحكمة لسبر أغوارها، كانت تمثل لعبة شطرنج حقيقية، يتطلب حلها التفنيد والدقة، تمامًا مثل القواعد الحسابية المعقدة التي تقوم عليها هذه اللعبة، ولكن جانيمار استطاع الوصول لحلها وربط الخيوط ببعضها البعض، وبفضله تمكنا من معرفة لغز شارع دوفيرنوي، وأؤكد لك أنه ليس سهلًا على الإطلاق.

- هل يمكنك إخباري بتفاصيل هذه المغامرة؟

- بالتأكيد، يومًا ما عندما يكون لديَّ وقت فراغ، ولكن الليلة برونيلي ترقص في الأوبرا، وإن لم ترَني على المقعد الخاص بي...

كانت لقاءاتي بلوبين نادرة، فلم يكن يقص عليَّ مغامراته إلا عندما يطيب له

ذلك؛ لذا فلم أتمكن من معرفة تفاصيل هذه القضية إلا بعد وقت طويل، وعلى فترات، حتى استطعت في النهاية أن أجمعها بكافة تفاصيلها، وبما أن الأحداث الكبيرة والعناوين الأساسية معروفة للعلن؛ فسأذكر التفاصيل الصغيرة والخفية وراء تلك الواقعة.

قبل ثلاث سنوات عندما وصل القطار القادم من محطة برسيت إلى محطة رين، وجد أحد أبواب عربات الأمتعة محطمًا، وكانت هذه العربة مخصصة لأمتعة ثري برازيلي يُدعَى الكولونيل سبارمينتو، الذي كان مسافرًا برفقة زوجته على نفس القطار، كانت هذه العربة المحطمة تحتوي على مجموعة رائعة من السجاجيد المعلقة، تم كسر أحد الصناديق وسرقة ما بداخله. قدَّم الكولونيل سبارمينتو شكوى ضد هيئة السكة الحديد، مطالبًا بتعويضات ضخمة؛ عوضًا عن هذه السرقة التي أفقدت المجموعة قيمتها، بدأت الشرطة تحقيقها، كما وعدت هيئة السكة الحديد بمكافأة كبرى لمَن يجدها، وبعد أسبوعين من تلك الواقعة تم فتح خطاب دون توقيع وصل من هيئة البريد إلى قسم الشرطة، يُبلِّغ فيه شخص ما بأن تلك السرقة تمت تحت إشراف أرسين لوبين، وأن تلك المفروشات ستغادر في اليوم التالي إلى أمريكا الشمالية. في نفس اليوم وجدت الشرطة السجادة داخل حقيبة كبيرة في عربة من عربات الأمتعة داخل قطار في محطة سان لازار.

فشلت محاولة التهريب، وأُصيب لوبين بضيق وخيبة أمل شديدة؛ جعلته يرسل خطابًا جريئًا إلى الكولونيل سبارمينتو ينص على: «لقد كنت رحيمًا بك بما يكفي في المرة السابقة لأخذ واحدة فقط، ولكن وعد مني؛ لن أكتفي في المرة المقبلة سوى بالاثنتي عشرة كاملة، ومن الجيد أن تعلم هذا.

إلى اللقاء..

أرسين لوبين».

كان الكولونيل سبارمينتو يعيش منذ عدة شهور في منزل محاط بحديقة صغيرة بين شارع دو لا فاسيندري وشارع دو فيرنوي، كان رجلًا قويًّا إلى حد ما، عريض المنكبين، ذا شعر أسود وبشرة داكنة، يتسم بأناقة مذهلة، كان متزوجًا من امرأة إنجليزية جميلة، ولكن صحتها ضعيفة، وقد تأثرت بشدة بهذه الحادثة الأخيرة؛ فظلت تتوسل إلى زوجها منذ اليوم الأول ليبيع هذه المجموعة بأي ثمن، ولكن الكولونيل كان عنيدًا للغاية؛ فلم يستجِب إلى طلب زوجته، قائلًا إنه لا يستطيع التخلي عن مخططاته ومقتنعاته من أجل الخضوع لرغبات امرأة، ولكنه اتخذ كافة الاحتياطات اللازمة لجعل أي عملية سطو مستحيلة، بدايةً أحاط جميع النوافذ في الطابق الأرضي والطابق الأول المطلة على شارع دوفيرنوي بجدران عالية؛ حتى لا يتمكن أحد من معرفة مداخل القصر، ثم استعان بشركة أمن خاصة للمساعدة على حماية ممتلكاته الداخلية في القصر، تم تزويد جميع نوافذ البهو الذي يوجد داخله السجاجيد بأجهزة إنذار تعمل ضد السرقة، ولا أحد يعرف مكانها غير الكولونيل، بالكاد يتم لمسها حتى

تضاء الأنوار في القصر بأكمله، ويتم إطلاق صوت الأجهزة تلقائيًّا، ولكن على الرغم من العروض المغرية التي قدمها لم تُقدِّم شركات التأمين كافة الضمانات للأمن التام من وجهة نظره؛ فقام بتعيين ثلاثة حراس أمن في الطابق الأول، ودفع لهم جيدًا، كما اختار ثلاثة من المحققين المخضرمين من ذوي الخبرة ممن يُكِنون العداء الشديد للوبين، أما الخدم فقد كانوا يعملون لديه منذ زمن طويل، فهم في منأى عن أي شبهات، بعد إنهاء هذه الإجراءات التي قام بها الكولونيل، والتي حولت القصر إلى حصن منيع، قام الكولونيل بتنظيم حفل ضخم يضم أهم رجال وسيدات المجتمع الراقي، ونواب الدوائر التي كان عضوًا بها، والعديد من الصحفيين والنقاد والفنانين، بمجرد عبور البوابة كان الأمر يبدو وكأنك تزور سجنًا ما، كان المحققون الثلاثة يقفون أسفل الدرج يتحققون من بطاقات الدعوة، يحدقون بريبة في الضيوف، ينتابك الشعور أنهم سيفتشونك أو ربما يأخذون بصمات أصابعك، اعتذر الكولونيل عن هذه الإجراءات وهو يبتسم، بينما كان يقف أعلى الدرج في الطابق الأول يشرح الترتيبات الأمنية اللازمة؛ من أجل سلامة ممتلكاته الخاصة، وكانت زوجته الشقراء الجميلة تقف بجانبه رقيقة ومتأنقة، تحاول إخفاء مشاعر القلق، ولكن عينها تفضحها، فيبدو عليها الكآبة والاستسلام لتقلبات القدر التي تؤرقها منذ فترة، وعندما اجتمع كل الضيوف؛ تم إغلاق بوابات الحديقة الرئيسية وبوابات القصر، ثم التوجه إلى الصالة الرئيسية، والتي يتم الدخول إليها عن طريق أبواب مصفحة مزدوجة، تحمل جميع النوافذ من حولها قضبان حديدية، داخل هذه الصالة يوجد الاثنتا عشرة سجادة معلقة بعناية فوق الجدران، كانت هذه المفروشات تُعَد بمثابة أعمال فنية لا مثيل لها، مستوحاة من نسيج بايو([18]) الشهير المنسوب إلى الملكة ماتيلدا زوجة الملك ويليام، تمثل أحداث غزو إنجلترا، تم صنعها في القرن السادس عشر من قِبَل رجل جيش في السلاح الملكي، والذي كان يرافق ويليام الفاتح، تم إخفاؤها من قِبَل النساج الشهير جيهان جوست، وحينما تم العثور عليها بعد أكثر من أربعمئة عام أسفل قصر قديم في بريتاني، ابتاعها الكولونيل في صفقة رابحة للغاية بخمسين ألف فرنك فقط، وهي تساوي عشرة أضعاف هذا المبلغ، كانت القطعة الأجمل والأكثر أهمية من بينها، هي التي سرقها لوبين وتم استعادتها، كانت تمثل صورة الملكة إديث سوان([19]) وهي تبحث بين موتى معركة هاستينجر، عن جثة حبيبها هارولد آخر ملوك سكسون.

أمام هذه اللوحة التي تمثل قطعة من الجمال الخالص، وما بداخلها من تجمُّع الأشخاص النابض بالحياة، وقف الضيوف يتأملون بحماس هذا المشهد الحزين، الملكة إديث الجميلة الحزينة وهي تنحني في انكسار مثل الزنبقة الذابلة، يكشف ثوبها الأبيض عن ضعف جسدها وشحوب وجهها، تمد يديها النحيفتين في توسُّل وهلع، يُخيَّل إلى المرء عندما ينظر إليها أنه لا يوجد ما هو أشد إيلامًا من منظرها المثير للشجن بهاتين العينين الدامعتين والابتسامة البائسة، قال أحد نقاد الفن ممن يُستمَع إلى آرائهم بإجلال واحترام معلقًا على جمال اللوحة:

- يا لها من ابتسامة مؤثرة! تذكرني بابتسامة السيدة سبارمينتو.

وعندما بدا أن ملاحظته صادقة، استهل قائلًا: هناك نقاط تشابُه واضحة أذهلتني قليلًا، مثل: الانحناءة الرشيقة للعنق، ورقة اليدين، يمكنني أن أشعر بشيء أبعد من ذلك أيضًا داخل اللوحة، شيء غير مرئي، ربما شخصيتها الكامنة في التفاصيل البسيطة وراء الرسمة. أكد الكولونيل:

- صحيح، ربما هذا التشابه هو ما حثني على شراء هذه المجموعة بأكملها، وهناك سبب آخر أيضًا، وهو من إحدى الصدف الغريبة؛ أن اسم زوجتي أيضًا إديث مثل الملكة إديث سوان، منذ إدراكي لهذا الأمر وشراء هذه السجاجيد لم أعد أناديها غير بهذا الاسم، أتمنى أن تتوقف المصادفات عند هذا الحد، عزيزتي إديث ليست كملكة التاريخ العاشقة مضطرة أن تبحث عن حبيبها؛ فأنا جوارها حي أرزق وبأفضل حال، ولا أنوي الموت الآن، اللهم إن لم يتم سرقة مفروشاتي مرة أخرى، يا إلهي! هذه المرة ستخلصني طلقة رصاص واحدة فقط.

كان الكولونيل يقول هذه الكلمات وهو يضحك، وخلال الأيام التالية تُدوِلت هذه الأقاويل والضحكات على لسان الجميع، وكان الانطباع السائد لديهم هو الصمت والحرج تعليقًا على هذه الليلة الغريبة.

قال أحدهم مخاطبًا الكولونيل:

- ولكنك لا تُدعَى هارولد يا سيدي الكولونيل، أليس كذلك؟

- يا إلهي! بلى، كما أنه لا يوجد أدنى تشابُه بيني وبين ملك السكسون.

وقد أجمع جميع الحضور في رواية ما حدث بعد ذلك أنه ما كاد الكولونيل أن ينهي جملته بينما كان يقف (على جهة اليمين أو الوسط) من النوافذ -اختلفت الآراء حول هذه النقطة- دوى رنين عالٍ في جميع أنحاء القصر، صوت جرس منتظم صادر من جهاز الإنذار المتصل بالنوافذ، أعقب هذا الرنين صرخة رعب من السيدة سبارمينتو، وهي تمسك بذراع زوجها في خوف:

- ما هذا؟

ظل الجميع ثابتين في أماكنهم ينظرون بشكل تلقائي نحو النوافذ، بينما صاح الكولونيل مندهشًا:

- ماذا يعني هذا؟ لا أحد يعرف مكان أجهزة الإنذار غيري!

توحدت آراء الجميع حول تلك اللحظة؛ حيث إن الظلام قد عم فجأة من أعلى القصر إلى أسفله في جميع الأروقة وجميع الغرف، بينما تعالت أصوات أجهزة الإنذار لدرجة تصم الآذان، وخلال لحظات عمت فوضى عارمة، صاحت النساء، وتسارع الرجال بالركض وضرب الأبواب بعنف بأيديهم، سقط بعض النساء أرضًا ودهستهن الأقدام، يمكننا القول بأن ما حدث وقتها كان أقرب لحالة من الهلع

الجماعي التي تحدث عند اندلاع حريق ما أو حادث حافلات على الطريق، كان يطغى على هذه الضجة صوت الكولونيل وهو يصرخ:

- أرجوكم التزموا الهدوء والثبات في أماكنكم، سأتمكن من السيطرة على الوضع فورًا، ها هو مقبس الكهرباء في الزاوية.

بدأ بشق طريقه وسط الضيوف حتى وصل إلى ركن الصالة ورفع مقبس الكهرباء؛ فعاد الضوء مرة أخرى، وتوقف صوت الإنذار، وعلى إثر ذلك كان المشهد غريبًا؛ فقد فقدت سيدتان وعيهما منطرحتين على الأرض، كما بدت السيدة سبارمينتو شاحبة الوجه وهي تستند على ذراع زوجها في وهن؛ كما لو أنها على وشك الوقوع، الرجال منهكون متعرقون، رابطات أعناقهم مفكوكة كما لو أنهم قد خرجوا للتو من صراع عنيف. صاح أحدهم:

- يا إلهي، ما زالت السجاجيد هنا!

كانت دهشة الحضور عظيمة، وكأن اختفاء هذه المفروشات هي النتيجة الحتمية والتفسير المنطقي الوحيد لذلك الحادث، ولكن بقي كل شيء في مكانه سواء هذه السجاجيد أو اللوحات الفنية القيمة، وعلى الرغم من الظلام الدامس وصوت الإنذار؛ فإنه قد أكد المحققون الثلاثة في الخارج أنهم لم يروا أحدًا يدخل أو يخرج من القصر أبدًا.

قال الكولونيل:

- أعتذر عما حدث، لم يكن هذا سوى صوت أجهزة الإنذار المتصلة بالنوافذ، وأنا الوحيد الذي أعرف مكانها، ربما حدث بها خلل ما أو أني لم أجِد ضبطها بعد.

ضحك الجميع ساخرين من هذا الهلع الذي أصابهم فجأة بلا داعٍ، ولكن كانت ضحكاتهم فاترة يشوبها الخجل؛ نظرًا لعبثية الحدث، كل منهم ينتابه شعور بحتمية سرعة مغادرة هذا القصر؛ نظرًا لأجواء القلق والتوتر اللذين سادا بعد هذه الواقعة. بقي اثنان من الصحفيين فقط، انضم إليهما الكولونيل بعد أن ودع الضيوف واعتنى بزوجته جيدًا، وسلمها لخادمتها الخاصة، قاموا الثلاثة بتفتيش القصر بأكمله بالتعاون مع المحققين، ولم يتوصلوا لأي نتيجة، فدعاهما الكولونيل إلى احتساء بعض الشمبانيا، لم يرحل الصحفيان إلا في وقت متأخر من الليل، حوالي الثانية وخمس وأربعين دقيقة، استأذن الكولونيل وذهب إلى غرفته لينال قسط من الراحة بعد هذا اليوم المرهق، وذهب المحققون إلى الحجرة المخصصة لهم في الطابق الأرضي، أخذوا يتناوبون على حراسة القصر، يتجولون في الحديقة، بينما يدخل أحدهم للتحقق في القصر من الداخل، وفحص التحف والسجاجيد بين الحين والآخر، ظل هذا التناوب مستمرًّا حتى السابعة صباحًا، وعندما غلبهم النوم والتعب لم يقُم أيٌّ منهم بأي جولات أخرى، لقد انتهى اليوم الكبير بالنسبة لهم، عليهم أن يرتاحوا قليلًا، كما أنه عند أقل مبادرة بالاقتراب من السجاجيد سيدوي صوت أجهزة الإنذار في الحال، وسيستيقظون جميعهم على الفور.

مع ذلك في السابعة وعشرين دقيقة، عندما استيقظ أحدهم ليقوم بجولة سريعة، فتح باب الصالة الرئيسي؛ فوجد أن السجاجيد الاثنتي عشرة المعلقة قد اختفت تمامًا. وبالتالي تعرض هذا الرجل ورفاقه للانتقادات بعد ذلك؛ لأنهم لم يوقظوا الكولونيل على الفور، وأيضًا لأنهم بدءوا في البحث والتحقيق دون إخطار الشرطة، تم إبلاغ الكولونيل في الثامنة والنصف، فنزل من غرفته وهو يرتدي كامل ملابسه وكأنه مستعد للخروج، في البداية لم يبدُ أن الخبر قد أثَّر عليه كثيرًا، لقد كان هادئًا في التعامل مع الموقف، أو على الأقل أجاد السيطرة على انفعالاته، ومع تفقُّد أماكن السجاجيد ورؤية الجدران الفارغة خارت قواه تدريجيًّا؛ فسقط على كرسي، واستسلم لنوبة من اليأس، وهو أمر قاسٍ بالنسبة لرجل مثله يتمتع بكامل القوة والحيوية والنشاط، وبعد دقائق بذل خلالها جهدًا كبيرًا لجمع شتات نفسه، وذهب إلى غرفة المكتب، جلس على مكتبه يحرر رسالة سريعة، ثم وضعها في مظروف وختمها، وناولها لأحد المحققين قائلًا:

- أعطِ هذه الرسالة لمدير الشرطة عندما يأتي، سوف أذهب في أمر عاجل.

وعندما شعر أن المحقق يراقبه في ريبة، قال له:

- تلك هي الأفكار والشكوك التي تراودني عن هذا الحادث، أردت أن أوصلها إلى مدير الشرطة ليضعها في الحسبان في أثناء تحقيقه، ولكن عليَّ القيام بشيء مهم للغاية ولا يحتمل التأجيل.

غادر مسرعًا وهو يقوم ببعض الحركات الغريبة المضطربة التي سيقوم بوصفها المحققون والخدم فيما بعد، وبعد دقائق وصل مدير الأمن، وعندما استلم الرسالة فضها من المظروف، وقرأ:

«أرجو أن تسامحني زوجتي الحبيبة على الحزن الذي سأخلفه لها من بعد رحيلي، سيكون اسمها آخر شيء أنطق به في هذه الحياة».

وهكذا في لحظة جنونية مليئة باليأس والإحباط بعد تلك الليلة العصيبة التي بلغت فيها الأحداث الجنونية أوجها، قرر الكولونيل سبارمينتو قتل نفسه، هل فعلًا يمتلك الشجاعة الكافية للانتحار؟ أو سيمنعه عقله في اللحظة الأخيرة من القيام بذلك؟ تم إخبار السيدة سبارمينتو بالخطاب، وبينما كان يجري التحقيق وتقوم الشرطة بعملها من ترتيب الإجراءات اللازمة وفحص القصر بأكمله وتحديد الطريق التي سلكها الكولونيل، كانت تجلس منتظرة أي أخبار وهي ترتجف رعبًا.

وعند انتهاء الظهيرة تم تلقي مكالمة هاتفية من مكتب السكة الحديد في مدينة أفاراي والذي يقع تحت النفق، تخطرهم بأنه تم العثور على جثة رجل مشوهة بشكل كامل، ألقى بنفسه تحت عجلات القطار، ولم يعد لوجهه أي ملامح، كما أن سترته وجيوبه لا تحتوي على أي أوراق ثبوتية، ولكن الوصف العام للجسد ينطبق على الكولونيل، وفي السابعة مساءً هبطت السيدة

سبارمينتو من السيارة بالقرب من محطة أفاراي، تم اقتيادها إلى إحدى الغرف بالمحطة، وعندما أزيل الغطاء من فوق الجسد تعرفت الزوجة على جثة زوجها الكولونيل، وانهارت مغشيًّا عليها على الفور.

وفي أثناء هذه الظروف العصيبة والأحداث المؤلمة لم يسلم أرسين لوبين بالطبع من استياء الصحافة وغضب الجمهور، كان بإمكاننا قراءة المقالات المهاجمة طوال الأيام التالية: «احترس يا لوبين! لا تحتاج إلى أحداث من هذا النوع لتُحوِّل الرأي العام ضدك وتخسر إعجاب وتعاطُف المجتمع الذي لم نساومك عليه حتى الآن، لقد كنا نتقبل وجود لوبين في مجتمعنا طالما يستخدم خططه ومغامراته للاحتيال على البارونات الألمان أو أصحاب الشركات المالية المجهولة، بالإضافة إلى أنه لم يُرِق الدماء قط، ولكن حين يستخدم ذكاءه ضد المجتمع ويتحول إلى قاتل؛ فنحن لن نقبل بهذا، حتى لو أنه لم يقتل بيده فهو المسئول عن عملية الانتحار تلك كليًّا، سيبقى دم الكولونيل في رقبته إلى الأبد، لقد اختار لوبين الدم شعارًا له منذ الآن».

تفاقم غضب العامة متأثرين بالحزن والألم الذي يحمله وجه إديث الجميلة التي أصبحت أرملة بين ليلة وضحاها، تم استجواب ضيوف الحفل، وتداوُل تفاصيل الليلة السابقة بأكملها، على الفور تشكلت أسطورة من هذه القصة العجيبة، سلسلة من الاستعارات والتشبيهات بين حياة تلك المرأة الإنجليزية الجميلة والحادثة الشعبية التعيسة للملكة إديث جميلة العنق.

وعلى الرغم من هذه الأحداث المؤسفة؛ فإنه لا يسعنا سوى الانبهار بالطريقة التي تمت بها السرقة، وقد أعطت الشرطة تفسيرها للحادث على هذا النحو: لقد كانت إحدى نوافذ الصالة الكبرى مفتوحة على مصراعيها؛ فمن الممكن أن يكون أرسين لوبين وأعوانه قد دخلوا من خلالها، تُعَد هذه فرضية منطقية إلى حد ما، ولكن تبقى هناك أسئلة غامضة؛ أولًا: كيف تمكنوا من عبور البوابة الرئيسية دون أن يراهم الحراس؟ وفرضًا لو حدث ذلك، فكيف تمت السرقة والصعود والهبوط دون وجود آثار أقدام فوق العشب في الحديقة؟! ثانيًا: كيف تم تعطيل أجهزة الإنذار عند فتح النافذة؟

دارت شكوك الرأي العام حول المحققين الثلاثة؛ فقام قاضي التحقيقات بإجراء تحقيق عاجل لكل منهم على حدة، وتم التأكد بطرق رسمية أن المحققين الثلاثة فوق مستوى الشبهات تمامًا، أما بالنسبة للمنسوجات فلم يكن هناك أي أمل في العثور عليهم.

في ذلك الوقت عاد المحقق جانيمار من أدغال الهند بعد الانتهاء من قضية الإكليل وسونيا كريشنوف، بعد أن تتبع بعضًا من الأدلة القاطعة التي قدَّمها له مجموعة من المتواطئين السابقين مع لوبين؛ فتم تضليله في دروب خطأ، ووقع في فخ جديد نصبه له عدوه الأبدي أرسين لوبين، تم إبعاده إلى أقصى الشرق للتخلص منه في أثناء قضية الكولونيل وسرقة المنسوجات، عندما عاد قدَّم طلب إجازة إلى رؤسائه لمدة خمسة عشر يومًا، وذهب إلى السيدة

سبارمينتو في الحال، قدَّم نفسه إليها أولًا، ووعدها بالثأر والانتقام لزوجها، ولكن إديث كانت في مرحلة بائسة للغاية لم تعد حتى فكرة الثأر تعزيها في مصابها، في ليلة الجنازة طردت المحققين الثلاثة، استبدلتهم بخادمة واحدة وعاملة تنظيف عجوز، فكانت وجوه العاملين تُذكِّرها بقسوة الأحداث الأخيرة، أصبحت غير مبالية بأي شيء، حبست نفسها في غرفتها، وانعزلت ليلًا نهارًا تاركةً لجانيمار زمام الأمور ليتصرف كيفما شاء؛ لذلك اتخذ من الطابق الأرضي مكانًا لاستكمال التحقيق في القضية، وانخرط على الفور في أبحاث تفصيلية واستجوابات لعديد من سكان الحي والجيران، ودرس تصميم القصر، ثم أعاد تشغيل أجهزة الإنذار عشرين مرة، بل ثلاثين مرة، وبعد مرور أسبوعين طلب تمديد الإجازة مرة أخرى، جاء رئيس الأمن السيد ديدوا لرؤيته؛ فوجده جالسًا في الصالة الكبيرة، وبعدما تحدثا لقليل من الوقت عن تطوُّر التحقيقات، أعلن له أنه لم يتوصل إلى شيء ذى قيمة بعد.

لم يمضِ يومان على الزيارة الأولى حتى عاد السيد ديدوا لزيارته مرة أخرى؛ فوجده في نفس مكانه، ولكنه منهمك في تفكير عميق باسطًا أمامه مجموعة من الصحف؛ فأراد أن يعرف إلى ماذا توصل، فتمتم جانيمار:

- لم أتوصل بعد إلى شيء مؤكد يا سيدي، هناك بعض الأفكار الجنونية تجول في خاطري حول كيفية السرقة، بل أفكار شيطانية لا أظن أنها تفسر الأمر كثيرًا، بل إنها مربكة، تخلط الأمور بعضها ببعض.

- إذن ماذا ستفعل؟

- أطلب منك -يا سيدي- أن تتحلى ببعض الصبر، أن تتركني أتتبع هذه الخيوط التي ظهرت أمامي، ولكن إذا استدعيتك للمساعدة خلال يوم أو يومين؛ فعليك بالإسراع في القدوم على الفور، وعدم إضاعة دقيقة واحدة، حينها سيتم كشف الأوراق بأكملها.

مر بعد ذلك ثمانٍ وأربعون ساعة إضافية، وفي صباح اليوم الثالث تلقى السيد ديدوا برقية عاجلة ليس بها سوى سطر واحد:

«أنا ذاهب إلى ليل ([20]).

إمضاء

جانيمار».

- يا للشيطان! ماذا يفعل في ليل؟

مر يوم دون أي أخبار، ويوم آخر بعده، ولكن السيد ديدوا كان لديه ثقة في جانيمار، وكان يعلم جيدًا أن هذا الوقت لا يضيع هباءً، وأن جانيمار محقق مخضرم ليس ممن ينجرفون بسهولة وراء أهوائهم دون سبب واضح، فإذا سافر جانيمار؛ فذلك لأن لديه أسبابًا جدية للسفر، في الحقيقة لم يكَد يحل المساء حتى جاءه اتصال هاتفي:

- هل أنت السيد ديدوا؟

- أهذا أنت يا جانيمار؟

اتخذ الرجلان كامل الحذر؛ بحيث تأكد كل منهم من هوية الآخر، وحينما اطمأن جانيمار؛ قال على الفور:

- فلتأتِ إليَّ فورًا يا سيدي، ومعك عشرة رجال مسلحون.

- أين؟

- -في القصر، الطابق الأسفل، سأنتظرك في الحديقة جوار الباب الرئيسي.

- يمكننا القدوم بالسيارة، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن أوقِف السيارة على بعد مئة متر، أطلِق صفيرًا خافتًا، وسأقوم بفتح البوابة بنفسي.

تم تنفيذ الأمر على النحو المتفق عليه تمامًا، قبل منتصف الليل بقليل كانت أضواء الطوابق العليا مطفأة بالكامل، خرج جانيمار في هدوء إلى الحديقة لاستقبال السيد ديدوا، اجتمع سريعًا بالرجال، وأعطاهم التعليمات بأماكن وقوفهم، ثم دلف إلى داخل القصر برفقة رئيس الأمن بعد أن عبروا الحديقة بكل حذر، قال السيد ديدوا:

- ماذا يعني كل هذا؟ نبدو مثل المتآمرين!

كان يبدو على جانيمار الجدية الشديدة، أخذ يتجول في أنحاء الغرفة ويتلصص من وراء النوافذ، لم يكن يهزأ أبدًا، لم يرَه رئيسه بمثل هذه الحالة من الحيطة الشديدة من قبل؛ فسأله:

- هل هناك تطورات جديدة يا جانيمار؟

- نعم يا سيدي، لقد حانت اللحظة الحاسمة، ولكني بالكاد أستطيع تصديق الأمر، سأكشف لك القضية بأكملها، قد يبدو الأمر محالًا في البداية، ولكني متأكد من أنها الحقيقة كاملة، ولا شيء سواها.

مسح قطرات العرق التي كانت تتدفق فوق جبهته، بينما كان السيد ديدوا يتأمله وفي رأسه يدور العديد من الأسئلة، سيطر جانيمار على انفعالاته وشرب كوبًا من الماء، ثم شرع في الحديث:

- كثيرًا ما أوقعني لوبين في...

قاطعه السيد ديدوا:

- ادخل في صلب الموضوع سريعًا يا جانيمار، لو كنت وصلت إلى حل هذه القضية؛ فعليك إبلاغي الأمر في كلمتين فقط ليس إلا، أهو لوبين بالفعل؟ وكيف تم ذلك؟

- لا يا سيدي -اعترض جانيمار- لا بد أن تعرف جميع المراحل المختلفة التي مررت بها، والتي استطعت من خلالها التوصل إلى حقيقة الأمر، أعتقد أن هذا ضروري للغاية؛ لذلك كنت أقول إن طول فترة متابعتي للوبين وسعيي وراءه كنت دائمًا الطرف الخاسر، الطرف الذي يتعلم؛ لذلك اكتسبت بعض الخبرة عن استراتيجية لوبين وطرق خداعه، وبعد أن قمت بعدة تحقيقات مفصلة فيما يتعلق بهذه القضية؛ وجدت نفسي أواجه أمرين في غاية الأهمية؛ الأول: أن لوبين لا يقوم بعمل أي شيء دون تدبير مسبق وخطة محكمة، فلا بد أنه كان يدرك أن انتحار السيد سبارمينتو هو نتيجة محتملة لاختفاء المفروشات، ومع ذلك فإن لوبين الذي يكره الدم والقتل أكمل خطته، وقام بسرقة المجموعة كاملة.

- نعم، فكان وراءه دافع قوي للغاية، قيمة هذه المنسوجات تعادل 5 أو 6 آلاف فرنك.

- مهما كان الدافع فهذا مبدأ واضح بالنسبة له، لوبين لا يقتل أبدًا، ولو من أجل مئات الملايين، أو حتى يكون سببًا في موت شخص ما، هذه هي المسألة الأولي، ثانيًا: الليلة السابقة للسرقة، ذلك الحفل وما حدث به من مهزلة وضجيج، حتى اعتقد الناس أنها محاولة سرقة فاشلة، تلك الأحداث الغامضة كانت لغرض ما بالتأكيد، من الواضح أنه كان يهدف إلى بلبلة الأمن وإثارة الرعب في نفوس الضيوف والكولونيل؛ لخلق جو من التوتر والقلق خلال دقائق؛ بغرض صرف الانتباه عن الحقيقة التي من الممكن الشك بها، ألا تفهمني يا سيدي؟

- في الحقيقة لا أفهم أي شيء!

- حسنًا، يبدو الأمر غير واضح بالفعل، حتى أنا نفسي بينما كنت أطرح هذه الأسئلة والافكار في ذهني وأفندها، لم أكن أستطيع الربط أو الفهم، ومع ذلك انتابني شعور بأني أسير في الاتجاه الصحيح، وأن عليَّ تتبُّعه حتى النهاية، لم يكن هناك شك أن لوبين كان يريد أن يثير الانتباه حوله، يصرفه عن الشخص المجهول، أو بمعنى آخر المنفذ الحقيقي للجريمة؟

- نظرية الشريك؟ متواطئ مع لوبين اختلط بالضيوف، وعمل على تشغيل جهاز الإنذار، وبعد مغادرة الجميع تمكَّن من البقاء في القصر.

- بالفعل، لقد بدأت إدراك الأمر يا سيدي، فمن غير الممكن أن تكون المفروشات قد سُرِقت من قِبَل تسلُّل أحد اللصوص خلسةً في أثناء الليل، لقد تمت السرقة بواسطة فرد من الداخل، وبعد التأكد من قائمة المدعوين والتحقيق المفصل مع كل شخص على حدة؛ توصلت إلى أمر مهم.

- ما هو؟

- لقد كانت هذه القائمة بين يدي المحققين الثلاثة عندما وصل الضيوف وحتى غادروا، لقد أتى 63 فردًا، وخرج 63 فردًا، كلهم من رجال المجتمع المشهورين، وبعد الاستجواب تأكدت بأنهم جميعًا فوق مستوى الشبهات.

- إذن الخدم؟

- لا، ليس أحدًا منهم.

- المحققون الثلاثة؟

- ولا هم أيضًا.

- ومع ذلك، فأنت ما زلت متيقنًا من أن السرقة قد تمت بواسطة أحد يمكث بالداخل؟

بدأ جانيمار في التعرق بعد أن أثاره الحديث، وبلغ به الانفعال حدًّا كبيرًا؛ فقال بهدوء، محاولًا السيطرة على نفسه:

- إنه أمر لا يقبل المناقشة، لقد أدت كل أبحاثي إلى نفس النتيجة، وزاد اقتناعي بذلك يومًا بعد يوم، من الناحية النظرية لا يمكن أن تتم السرقة إلا بمساعدة شريك ما يوجد داخل القصر، في المقابل لا يمكننا التوصل إلى هوية هذا الشريك الخفي!

- كلامك يبدو غامضًا للغاية!

- أتفق معك أنه أمر غامض وسخيف للغاية، ولكني حين نطقت بهذه الجملة بصوت مرتفع انجلت الحقيقة كاملة أمام نظري.

- وما تلك الحقيقة إذن؟

- كانت هذه الحقيقة معتمة وغير كاملة بعض الشيء، ولكنها كانت كافية لي في هذا الوقت، وبمجرد ظهور خيوط الشك حولها تتبعتها حتى اليقين.

ظل السيد ديدوا يفكر وهو يحاول الوصول إلى تلك الحقيقة بنفس طريقة جانيمار، وبنفس الترتيب الذي استطاع من خلاله كشف الأمر، مرورًا بكل مشاعر الارتباك والتخبط؛ فأخذ يتمتم لنفسه:

- لم يكن أحدًا من المدعوين، وليس أحدًا من الخدم ولا المحققين، إذن فلم يبقَ أحد!

- لا يا سيدي، لقد بقي شخص آخر.

أجفل السيد ديدوا مندهشًا؛ كأنه أُصيب بصدمة قوية، جحظت عيناه وهو ينظر إلى جانيمار، قائلًا:

- ولكن هذا غير معقول، وغير منطقي!

- لماذا؟

- لماذا؟ هل تسألني؟ أنت تعلم جيدًا لماذا.

- أخبِرني ما يجول في خاطرك على الفور يا سيدي.

- الكولونيل سبارمينتو! مستحيل! أيُعقَل أن يكون هو المتواطئ مع لوبين؟ ليس هو، أليس كذلك؟

أطلق جانيمار ضحكة خافتة، ثم قال:

- لقد توصلت مثلي إلى اللغز الغامض، في أثناء الليل كان المحققون الثلاثة يتناوبون على حراسة القصر، بالطبع غلبهم النعاس بعدما تناولوا كاسات الشامبانيا التي عرضها عليهم الكولونيل، وبذلك فقد وضعهم في حالة من الثمل الشديد؛ ربما ليسوا كاثوليكيين كفاية، المهم أنه تمكَّن في هذا الوقت من فك السجاجيد المعلقة وإنزالها عبر نافذة غرفته التي تقع في الطابق الثاني، ولم يكن يراقبه أحد من الخارج؛ نظرًا لأن نوافذ الطابقين السفليين قد سُدَّت تمامًا بجدار عال.

أطرق السيد ديدوا مفكرًا، ثم هز رأسه يمينًا ويسارًا معترضًا:

- لا أستطيع قبول هذه الفرضية.

- لماذا؟

- لو أن الكولونيل سبارمينتو هو الشريك الخفي للوبين، فلماذا ينتحر بعد أن حقق هدفه؟!

- ومَن قال إنه انتحر؟

- كيف هذا؟! لقد تم العثور على جثته في مدخل النفق!

- قلت لك من قبل إن الموت لا يجتمع مع أرسين لوبين أبدًا.

- لقد تعرفت السيدة سبارمينتو جثته.

- نعم، لقد كنت أنتظرك أن تبلغ هذه النقطة يا سيدي، لقد حيرتني كثيرًا أنا الآخر، فبدلًا من البحث عن مجرم واحد وراء هذه القضية، وجدت نفسي في مواجهة ثلاثة رجال؛ لوبين، وشريكه الكولونيل، وشريكهم الثالث الرجل الميت، يا له من تفكير ثري! أرجو ألا يكون هناك المزيد.

أمسك جانيمار بمجموعة من الصحف، ثم أخرج من بينها جريدة بعينها، وقدَّمها إلى الرئيس، قائلًا:

- تتذكر -يا سيدي- عندما أتيت إليَّ ووجدتني غارقًا في بحث عميق وسط الصحف، لقد كنت أبحث وقتها عن حادث وقع في نفس توقيت القضية ليؤكد صدق فرضيتي، أرجو أن تقرأ هذا الخبر:

«وقع حادث غريب في مدينة ليل؛ حيث نقل لنا مراسلنا هذه التفاصيل: تم اختفاء جثة شخص مجهول الهوية من داخل مشرحة المدينة في ظروف غامضة، قد ألقى هذا الشخص بنفسه أمس تحت عجلات القطار، ووُجِد صريعًا، ووجهه مشوه بالكامل، وحتى الآن لم يتوصل أحد إلى كيفية اختفاء

هذه الجثة».

- هل تعتقد أنه...

- لقد وصلت لتوي من ليل، لم يترك التحقيق الذي أجريته هناك مجالًا للشك، لقد تم سرقة الجثة في نفس الليلة التي أقام فيها الكولونيل سبارمينتو حفله، تم نقلها في سيارة إلى أفاراي بالقرب من السكة الحديد، وظلت بالسيارة حتى الصباح.

- بالقرب من النفق؟

- تمامًا يا سيدي.

- إذن فإن جثة الكولونيل المزعومة التي تم العثور عليها، لم تكن سوى تلك الجثة المسروقة ترتدي ملابس الكولونيل.

- بالضبط.

- وبذلك؛ فإن الكولونيل ما زال على قيد الحياة.

- إنه حي يُرزَق مثلي ومثلك.

- أمر محير للغاية! لماذا إذن كل تلك الأحداث منذ البداية؟! سرقة السجادة من عربة القطار، واستردادها، ثم العودة وسرقة الاثنتي عشرة سجادة بأكملها؟! لماذا تم إقامة هذا الحفل الضخم؟! ولماذا كل هذه الاستعدادات وإجراءات الحماية وأجهزة الإنذار؟! يبدو أن قصتك لن تصمد كثيرًا يا جانيمار.

- لقد وقعت في نفس التساؤلات يا سيدي؛ مثلك تمامًا، ولكني لم أستطِع التوقف في المنتصف، وأسلم نفسي لتلك الأسئلة التي لا يمكنني الإجابة عنها الآن؛ فلقد نويت أن أمضي قدمًا إلى ما هو أكثر غرابةً، ولماذا لا؟ ألسنا نتعامل مع أرسين لوبين؟ إذن فعلينا تتبُّع كل ما هو جنوني وغير متوقع، وعندما أقول جنوني؛ فإن الكلمة تبدو في غير موقعها، فعند التمعن في الأمر من وجهة نظر أخرى؛ تجد القضية منطقية محكمة الأحداث، وبسيطة في الوقت ذاته؛ لماذا يتوجب على لوبين الاستعانة بشركاء ما دام هناك دائمًا احتمال وارد بالخيانة؟ لماذا يلجأ لوبين إلى شركاء بينما بإمكانه القيام بكل شيء بمفرده وبطريقته الخاصة، مَن يمتلك كفاءته في التغير والتنكر ليس بحاجة لأحد على الإطلاق.

صاح السيد ديدوا مذهولًا:

- ماذا تقصد يا جانيمار؟

- لك الحق في التعجب يا سيدي، إني أعذرك، وهذا تمامًا ما كان يحدث معي عندما جئت لرؤيتي، كانت الفكرة تنمو في عقلي، وتمكَّن الذهول مني؛ فلن أستطيع تقبُّل الأمر بهذه السرعة، أعترف بأني أُقدِّر جيدًا مدى ذكاء عدوي، وعلى علم بنهجه وأساليبه، ولكن هذه المرة كانت ضربة عبقرية بكل

المقاييس.

- مستحيل!

- على العكس؛ إنها نظرية منطقية للغاية، تمامًا مثل عقيدة الثالوث المقدس ([21])، تجسيد ثلاثي لنفس الشخص، من الممكن لطفل صغير أن يحل هذه المعضلة في دقيقة واحدة؛ عن طريق الاستبعاد التدريجي للأضعف، فلو استبعدنا القتيل والكولونيل فمَن تبقى؟

- لوبين.

- نعم يا سيدي، لوبين، طالما كان لوبين فقط، لوبين كلمة واحدة تتكون من مقطعين وخمسة أحرف، لقد تحول إلى الكولونيل سبارمينتو، وسافر إلى بيرناني لمدة 6 شهور بعد اكتشاف الاثنتي عشرة سجادة، ثم تفاوض لشرائها، وافتعل قصة السرقة الأولى لأجمل وأقيم سجادة في المجِموعة، وذلك للفت الانتباه إلى لوبين، وتشتيت الانتباه عن سبارمينتو، ومن ثَم إثارة عداء واضح بين لوبين وسبارمينتو، يعمل على إقامة إجراءات السلامة والحذر، ويقيم حفلًا كبيرًا؛ لإثارة الفزع والخوف في نفوس الحاضرين، ويهيأهم جميعًا لتوقُّع السرقة الكبيرة، وعندها يسحب البساط من تحت قدم سبارمينتو، ويختفي تمامًا كضحية جديدة من ضحايا لوبين، دون أن يشك بهويته أحد؛ فيشفق عليه المجتمع بأكمله، وتأسف عليه زوجته الأرملة، الأرملة التي تركها وراءه لتحصد ثمار هذه الفعلة بأكملها.

توقف جانيمار عن الحديث، وأخذ يتبادل النظرات مع رئيسه الذي يحاول أن يفهم ما يرمي إليه جانيمار، ثم قال بنبرة صارمة مشددًا على كل كلمة:

- ترك أرملته المحطمة خلفه!

- السيدة سبارمينتو! هل تعتقد حقًّا أنها...

- اللعنة على ذكائه! لا يمكنه تخطيط وتنفيذ مثل تلك القصة المحكمة دون التأكد من المكاسب النهائية التي سيجنيها.

- يبدو لي أن المكاسب التي يمكن تحقيقها حقًّا هي الأموال التي سوف يجنيها عندما يبيع تلك السجاجيد في أمريكا مثلًا، أو في أي مكان آخر.

- كان من الممكن أن يفعل الكولونيل سبارمينتو هذا بكل بساطة وهو على قيد الحياة؛ فإنها ملكه بالفعل، يتنازل عن السجاجيد مقابل المال ويجني الأرباح باسمه، ولكنه لم يفعل ذلك، لقد تطرق إلى فعل شيء آخر من أجل الاحتفاظ بالمفروشات، وفي نفس الوقت جني أموال كثيرة.

- وكيف ذلك؟

- هل نسيت أن الكولونيل قد مات ضحية عملية سرقة كبيرة، وعند موته ستعود الأموال إلى زوجته التي ما زالت على قيد الحياة؟

- أي أموال؟

- الأموال التي ندين لها بها، أموال التأمين.

تفاجأ السيد ديدوا وقد بزغ فجر القضية برمتها أمامه؛ فأصبح كل شيء واضحًا أمام عينيه في لحظة واحدة، تأكد من صحة افتراضية جانيمار ومنطقيتها، تمتم في هدوء:

- صحيح، لقد قام الكولونيل بالتأمين على المفروشات عندما وصل إلى باريس.

- بالطبع، المفروشات فقط، وليس أي شيء آخر.

- وما قيمة هذا التأمين؟

- ثمانمئة ألف فرنك.

- ثمانمئة!

- أجل، كما أقول لك، ولخمس شركات مختلفة.

- وهل أخذتهم السيدة سبارمينتو؟

- تمكنت من أخذ مئة وخمسين ألف فرنك أمس، واليوم حصلت على مئتَي ألف بينما كنت في الخارج، وسوف يتم تسليمها باقي المبلغ على دفعات خلال هذا الأسبوع.

- إنه أمر مريع، لقد وجب عليك التصرف حينما...

- لقد استغلوا غيابي يا سيدي، وسارعوا إلى الحصول على الأموال، وعندما عدت علمت بالأمر من مدير إحدى شركات التأمين كنت على معرفة سابقة به.

أطرق رئيس الأمن مفكرًا للحظات، ثم قال لنفسه:

- يا لك من داهية يا لوبين!

أومأ جانيمار قائلًا:

- وغد بارع، لا يمكننا إنكار ذلك، لقد أعد خطته بحيث لا يتطرق الشك أبدًا إلى الكولونيل لمدة أربع أو خمس أسابيع، وتركيز الاهتمام والبحث بأكمله حول لوبين؛ فنجد أنفسنا أمام أرملة شابة حزينة ومثيرة للشفقة (إديث الجميلة)، فقدت زوجها وثروتها في يوم واحد؛ فيتسارع المجتمع ورجال شركات التأمين النبلاء للعمل على إعطائها حقوقها والتخفيف من مصابها.

كان الرجلان يقفان وجهًا لوجه كل منهم ينظر في عين الآخر، قال رئيس الأمن:

- مَن هذه المرأة؟

- سونيا كريشنوف.

- يا إلهي!

- نعم، الفتاة الروسية التي ألقيت القبض عليها في العام الماضي، واستطاع لوبين تهريبها من السجن.

- هل أنت متأكد؟

- طبعًا، في البداية كنت حائرًا متوغلًا في تتبُّع أثر لوبين وكشْف خطته، ولم أولِها الكثير من الاهتمام، ولكن عندما علمت الدور الذي تلعبه جيدًا، تيقنت من أنها سونيا، المرأة الروسية التي حوَّلها لوبين إلى امرأة إنجليزية في غضون شهور؛ فهي واحدة من أشد النساء مكرًا، وأبرعهم تمثيلًا، ولن تترد ثانيةً واحدةً أن تقتل في سبيل الحب والإخلاص للوبين.

- صيد ثمين يا جانيمار.

- لديَّ شيء إضافي أريد إخبارك به.

- أوه! ما هو؟

- مربية لوبين القديمة.

- أتقصد فيكتوار؟

- نعم، إنها هنا، داخل القصر، جاءت منذ أن أصبحت السيدة سبارمينتو أرملة، إنها الطباخة الجديدة.

- طبعًا لتراقب كل ما يحدث وتنقله للوبين.

- ليس تمامًا، فلديَّ ما هو أكثر إثارة من ذلك أيضًا، صيدي الثمين بالفعل!

اقترب السيد ديدوا من جانيمار أكثر، وأمسك بذراعه متسائلًا في نبرة منخفضة:

- ماذا تقصد يا لوبين؟

- هل تعتقد -يا سيدي- أني كنت سأزعجك بالمجيء في هذا الوقت لو أن كل ما في الأمر هو سونيا وفيكتوار فقط؟ فهما سيظلان موجودين دائمًا، وبإمكانهما الانتظار.

- أتعني أن...

- تمامًا يا سيدي الرئيس، هذا هو ما أقصده.

- أهو هنا في القصر الآن؟

- نعم، ولكنه متنكر بالطبع، إنه الخادم.

تراجع السيد ديدوا منتصبًا، وقد أذهلته جرأة لوبين؛ فقال جانيمار:

- لقد تمكن الثالوث المقدس الخاص بنا من التنكر في الشخصية الرابعة، فوجوده ضروري لإدراك أي خطأ قد تقع فيه إديث جميلة العنق على الفور، كان لديه الجرأة للعودة للقصر مرة أخرى، ظل يراقبني طيلة هذه الأسابيع الثلاثة عن قرب، متابعًا تقدُّمي بالقضية.

- هل تعرفت إليه؟

- لا يا سيدي، إطلاقًا، لا يمكن لأحد تعرُّف تنكُّر لوبين أبدًا؛ فلديه خبرة مذهلة في إجادة استخدام أدوات التجميل التي تُحوِّله إلى شخص آخر طبيعي للغاية تجعل من المستحيل تعرُّفه، كما أنه في ذلك الوقت كنت على بعد ألف ميلٍ من الشك في وجوده، ولكن الليلة بينما كنت أتجسس على سونيا مختبئًا تحت الدرج، سمعت فيكتوار تتحدث إلى الخادم وتناديه: "يا صغيري". وحينئذٍ أشرق الضوء داخلي، وأدركت الأمر على الفور، لقد كانت تناديه هكذا دائمًا.

كان السيد ديدوا غارقًا في تفكير عميق، مضطربًا من وجود غريمه في نفس المكان، وقال:

- وأخيرًا! لقد نلنا منه هذه المرة، ولم يعد بإمكانه الهرب.

- نعم، هو والامرأتان.

- أين هم الآن؟

- سونيا وفيكتوار في الطابق الثاني، ولوبين في الطابق الثالث داخل غرفة الخدم.

- ولكن -اعترض السيد ديدوا، وقد بدا عليه القلق المفاجئ- أليست هذه الغرفة التي مرت السجاجيد من نوافذها؟

- بلى.

- في هذه الحالة فمن الممكن أن يهرب لوبين بنفس الطريقة؛ فإن النوافذ تطل على شارع دوفرينوي، أليس كذلك؟

- نعم، هذا احتمال وارد يا سيدي، ولكني اتخذت كافة إجراءات الاحتياط، فبمجرد وصولك أرسلت أربعة من رجالنا المسلحين لمراقبة الشارع والنوافذ من ناحية شارع دوفرينوي، وأعطيتهم أوامر مباشرة بإطلاق ضربات رصاص زائفة في المرة الأولى عند رؤية أحد ما يهبط من خلال النافذة، والطلقة الثانية رصاص حقيقي.

- رائع يا جانيمار، لقد قمت بترتيب كل شيء، إذن فبمجرد سطوع الشمس يمكننا...

- لماذا الانتظار يا سيدي؟ علينا الإسراع بالإمساك بهذا الوغد، ماذا لو استطاع استخدام إحدى ألاعيبه في حدوث شيء ما ليتسرب من بين أيدينا؟

وبسرعة خرج جانيمار بنفاد صبر يقوده غضب عارم وغيظ مكتوم، متوجهًا نحو الحديقة، ثم عاد مرة ثانية ومعه نصف دزينة من الرجال، وقال:

- الوضع على ما يرام يا سيدي، لقد أمرت الرجال في شارع ديفرينوي بتجهيز أسلحتهم، والتصويب على النوافذ من الآن.

لقد أحدثت هذه التحركات جيئًا وذهابًا بعض الضجة، من المؤكد أنها لن تغيب عمن بالقصر، شعر ديدوا بضرورة التحرك على الفور؛ فقال بنبرة حازمة:

- هيا بنا.

تحركوا سريعًا، فصعد ثمانية من الرجال المسلحين الدرج، متجاهلين صوت أقدامهم واندفاعهم، متحمسين بمفاجأة لوبين قبل أن يُتاح له الوقت للهرب أو حتى الاستعداد للدفاع، وقف جانيمار خلف الباب، وأمر الضابط:

- افتح الباب.

ركل الرجل الباب بكل قوة، انفتح على الفور، فلم يكن هناك أحد في الغرفة، ولا في الغرفة المجاورة الخاصة بفيكتوار.

قال جانيمار:

- إنهم في الطابق العلوي، لقد انضموا إلى سيدهم إذن.

صعدوا إلى الطابق العلوي على الفور، ولدهشته وجد جانيمار باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيه، وليس هناك أحد بالداخل، انفجر صائحًا بكل الغضب داخله:

- اللعنة! إلى أين ذهبوا؟

لكن السيد ديدوا استدعى جانيمار، وكان قد هبط إلى الطابق الثاني، ولاحظ أن إحدى النوافذ لم تكن مغلقة تمامًا؛ ففتحها ببساطة، وقال لجانيمار:

- ها هي الطريق التي سلكوها، كما قلت لك؛ نفس الطريقة التي خرجت بها المفروشات، للأسف إنه شارع دوفرينوي مرة أخرى.

احتج جانيمار الذي كان مستشاطًا من الغضب والغيظ:

- كيف حدث هذا؟! لقد كان الشارع محاصرًا بالفعل؛ كنا سنطلق عليه النار فور رؤيته!

- إذن لقد هرب قبل المحاصرة.

- لقد كان الثلاثة بغرفتهم عندما كنت أحدثك يا سيدي!

- لقد هربوا وقتما كنت تنتظرني بالحديقة يا جانيمار.

- ولكن لماذا؟ لماذا بحق الجحيم أرادوا الهرب؟ لم يكن هناك أي سبب للفرار

اليوم دون الغد أو الأسبوع المقبل! لماذا عليهم الفرار من الأساس قبل أن يحصلوا على أموال التأمين؟!

لقد كان هناك سبب بالتأكيد، وقد عرفه جانيمار عندما انتبه إلى خطاب يحمل اسمه فوق طاولة الغرفة، فتحه وشرع في قراءته، كان مصاغًا بنفس طريقة خطابات التوصية؛ كما يلي: «أقر أنا المُوقِّع أدناه، اللص الماهر، الكولونيل سبارمينتو، الخادم المخلص، وأخيرًا الجثة المجهولة، أن المحقق المدعو جانيمار أظهر سلوكًا نموذجيًّا في أثناء إقامته في هذا القصر، لقد كان يقظًا ومخلصًا لعمله، فدون مساعدة أحد أو وجود أي دليل يتتبعه، استطاع إحباط جزء كبير من خطتي، منعني من الحصول على أربعمئة وخمسين ألف فرنك، وهي حصتي المتبقية من شركات التأمين، ولكنني بالفعل أهنئه على ذكائه في كشف هذه القضية، وللأسف أعتذر له أيضًا لعدم تمكّنه من الفطنة إلى هذا الجزء البسيط: وهو أن خط التليفون الموجود بالطابق الأرضي متصل بخط التليفون الموجود بحجرة سونيا كريشنوف، فعندما تحدث إلى رئيس الأمن ليحثه على الإسراع بالحضور كان في الوقت ذاته يحثني على سرعة الهرب، وقد كان هذا خطأً بسيطًا لا يمكنه أن يحجب مجهوداته العظيمة، ولا ينتقص من استحقاقه الثناء على عمله الدءوب، وفي الختام؛ أطلب منه تقبُّل خالص إعجابي ومحبتي.

أرسين لوبين».

عود القش

قرابة الساعة الرابعة، ومع اقتراب المساء، عاد السيد جوسو من رحلة صيد برفقة أبنائه الأربعة، كانوا رجالًا أشداء عريضي المناكب مفتولي العضلات لوحت الشمس بشرتهم، لهم نفس الرأس الصغير والجبهة المنخفضة الشفاة الرفيعة والأنف الحاد مثل منقار الخشب، تحمل وجوههم تعابير قاسية تنم عن العنف الشديد، كان جميع أهل القرية يرهبونهم ويتحاشون التعامل معهم؛ لما هم معروفون به من شدة الطباع وسوء الخُلُق، عند بلوغهم السور المحيط بمزرعة (هيبرفيل) فتح السيد جوسو الباب، ثم أعاد المفتاح إلى جيبه مرة أخرى، وتبعه أبناؤه من خلفه، سار الجميع داخل المزرعة في الطريق المؤدية إلى المنزل بين أشجار التنوب الكبيرة التي جرَّدها الخريف من أوراقها، قال أحد الأبناء:

- أتمنى أن تكون أمي قد أشعلت بعض الحطب في المدفئة؛ فالجو قارس البرودة.

رد السيد جوسو:

- بالتأكيد فعلت، أنا أرى بعض الدخان يتصاعد من هناك.

كان بإمكانهم رؤية المنزل من نهاية الحديقة، وقد تراءت خلفه أبراج الكنيسة تخترق الغيوم الملبدة بالسماء، سأل السيد جوسو أبناءه:

- هل أفرغتم بنادقكم؟

قال الابن الأكبر:

- نعم، إلا أنا، لقد أبقيت على رصاصة واحدة؛ لتفتيت ذبابة ما...

كان يتفاخر بمهاراته الفائقة في الصيد، فقال لإخوته:

- انظروا إلى خيال المآتة هذا أعلى شجرة الكرز، سوف أقسمه نصفين.

كان فوق فرع الشجرة الكبيرة مجسم مصنوع من القش والأقمشة القديمة لخيال مآتة لمنع اقتراب الطيور الجارحة وإفساد الثمار، صوَّب الابن الأكبر بندقيته، وسددها نحو الغصن، وأطلق النار.

سقط خيال المآتة بشكل كوميدي فوق غصن آخر أسفله، وظل منبطحًا على وجهه ورأسه الكتاني يرتدي قبعة كبيرة من القش، أما جسده المحشو من الخرق البالية فظل يتأرجح يمينًا ويسارًا، ضحك الجمع من منظره، ثم صفق الأب قائلًا:

- ضربة صائبة يا فتى، لقد بدأ منظر هذه الدمية يزعجني منذ فترة، فلم أكن أستطيع رفع نظري عن طبقي في أثناء تناوُل الطعام إلا وأرى هذا الأحمق وأتخيله يحملق فيَّ بشراهة من بعيد.

ساروا نحو عشرين خطوة أخرى إلى الأمام ناحية باب المنزل، فتوقف الأب فجأة قائلًا:

- ما هذا الصوت؟ ماذا هناك؟

توقف الأبناء على الفور، وأخذوا ينصتون، فتمتم أحدهم:

- إنه صوت صادر من داخل المنزل، من غرفة غسيل الملابس على الأرجح.

قال آخر يتلعثم:

- تبدو وكأنها تأوهات مكتومة، إن أمي وحدها بالمنزل.

وما كاد أن ينهي جملته حتى دوت صرخة رهيبة؛ فاندفع الرجال الخمسة نحو الباب بسرعة، وتوالت عدة صرخات أخرى بعدها واستغاثات بائسة، صاح الابن الأكبر وهو يركض بكل قوته:

- ها نحن هنا يا أمي، لقد أتينا.

ولأنه كان مضطرًّا للالتفاف حتى يصل إلى الباب؛ قام بكسر النافذة بركلة واحدة من قدمه، ثم قفز إلي الداخل، كانت غرفة والديه وجوارها غرفة الغسيل، والتي اعتادت والدته أن تقضي فترة النهار داخلها، ما إن وصلها حتى أطلق صيحة:

- اللعنة!

كانت والدته ملقاة فوق الأرض، والدماء تسيل من جانب فمها، صاح الفتى:

- يا إلهي! يا أبي، النجدة!

صاح الأب جوسو:

- ماذا هناك؟ ماذا جرى؟ وحين وقعت عليها عيناه قال بصوت مرتجف:

- يا إلهي! ماذا فعلوا بكِ؟!

استجمعت السيدة جوسو قوتها، وأشارت نحو الباب قائلةً في صوت واهن:

- الحقوا به، لقد خرج من هنا، عليكم إدراكه فورًا، لقد سرق الأموال.

قفز الأب صائحًا، وأبناؤه من خلفه:

- أخذ الأموال!

ركض في اتجاه الباب الذي كانت زوجته تشير إليه، كان هناك ضجيج يأتي من نهاية الرواق الذي دخل منه باقي الأبناء الثلاثة الآخرون؛ فقال أحدهم:

- لقد رأيته، لقد رأيته!

- وأنا أيضًا، لقد صعد الدرج.

- لا، إنه يهبط.

دارت مناورة حامية اهتزت لها أرض المنزل والجدران، كان الرجال يركضون في كل اتجاه، ورأى السيد جوسو الذي كان يقترب من نهاية الرواق رجلًا يقف أمام الباب محاولًا فتحه، فإن تمكن من هذا؛ فحينها يستطيع الهرب عبر الفناء الخارجي؛ حيث الباب الصغير غير مقفول بالقفل، ومن بعده إلى ساحة الكنيسة وأزقة القرية الضيقة، اندفع نحو الرجل وباغته في أثناء محاولته فتح الباب، لكن الرجل دفعه بقوة؛ فألقاه فورًا على الأرض، ثم رجع مرة أخرى متخطيًا الرواق في اتجاه غرفة النوم، ثم قفز من النافذة المهشمة إلى المزرعة الكبيرة واختفى، اندفع الأبناء خلفه عبر المروج والبساتين وسط ظلام الليل، وصاح الأب قائلًا:

- لقد أوقع بنفسه في الفخ، لا يمكنه الخروج من هنا أبدًا؛ فالسور مرتفع للغاية، من المستحيل بلوغه، سنمزقه إربًا فور إيجاده.

في هذا الوقت كان الخادمان عائدين من سوق القرية، فأبلغهما بالأمر على الفور وأعطاهما سلاحين للبحث معه هو وأبناؤه، قائلًا:

- لو حاول هذا الوغد الاقتراب من المنزل مرة أخرى، أو حتى رأيتم ظله من بعيد؛ فلا تترددا في إطلاق النار على الفور.

حدد لهم المواقع التي سيتناوبون على الحراسة فيها، ثم أسرع في اتجاه البوابة الرئيسة للمزرعة، والتي لا تُفتَح إلا من أجل مرور المركبات الكبيرة، وتأكد من إغلاقها بإحكام، وعندها فقط تذكر زوجته الجريحة التي تحتاج إلى المساعدة؛ فعاد إليها مسرعًا ومواسيًا، ثم سألها ليطمئن عليها:

- كيف حالكِ الآن يا عزيزتي؟

- أين هو؟ هل تمكنتم منه؟

- نحن نعمل على هذا، أغلب الظن أنهم ظفروا به الآن، اطمئِني.

ساعدها على النهوض والاستلقاء فوق السرير، ثم ناولها القليل من الروم، وما أن هدأت قليلًا حتى راحت تحكي له ما حدث، كانت قد أشعلت بعض الحطب في المدفأة للتو داخل الغرفة الكبيرة، وجلست بالقرب من النافذة؛ لتقوم ببعض أمور الحياكة في سلام، بينما كانت تنتظر عودة زوجها وأبنائها، انتبهت فجأة إلى صوت ضجيج صادر من غرفة الغسيل المجاورة، فقالت لنفسها: لا شك أن هذه هي القطة الكبيرة، فقد نسيت أن أفتح لها النافذة للخروج إلى الحديقة، ومضت إلى الغرفة دون أن تخالجها أي مشاعر ريبة، وعندما وصلت إلى عتبة الغرفة اندهشت من رؤية باب الخزانة مفتوحًا على مصراعيه؛ حيث كانوا يضعون أموالهم، تقدمت إلى الأمام، فرأت ظل رجل مختبئ خلف الخزانة، وهنا سألها جوسو:

- ولكن كيف دخل؟

- كيف؟ بالتأكيد من باب المنزل الرئيسي؛ فنحن لا نغلقه أبدًا.

- إذن فقد باغتك؟

- لا، أنا مَن هجمت عليه لأمسك به، ولكنه هرب.

- كان من الأفضل أن تتركيه، ولا تحاولي منعه أبدًا.

- كيف؟ وأموالنا؟ أتركه يهرب بكل مدخراتنا؟!

- هل كان قد استحوذ عليها بالفعل في تلك اللحظة؟

- نعم، لقد رأيت بالفعل رزمة الأوراق المالية بين يديه، اللعنة! لو كان بإمكاني قتله في تلك اللحظة.

- ألم يكن مسلحًا؟

- لم يكن لديه سلاح خيرًا مني، أصابعه وأظفاره وأسنانه؛ مثلي تمامًا، انظر هنا، لقد عضني هذا الوغد؛ فكاد ينتزع لحمي، ولم أتمكن سوى من الصراخ والعويل، وفي النهاية أدركت مدى ضعفي؛ فأنا امرأة عجوز لا أستطيع مقاومته؛ فتركته يفلت من يدي رغمًا عني.

- هل تعرفت إليه؟

- نعم، إنه المتشرد اللعين الأب تريناردد.

- أوه! بالطبع إنه هو! -صاح المزارع جوسو- لقد خُيِّل إليَّ أنني أعرفه عندما لمحت طرفه في المزرعة، لقد رأيته في الأيام الأخيرة يتجول حول البيت، لا ريب أنه يتشمم رائحة الأموال، أيها الأب اللعين، لا تعرف مع مَن تعبث، سآخذ حق زوجتي منك بيدي، ومن ثَم القصاص العادل، سأتمكن من أخذ أموالي والزج به في السجن؛ ليكون عبرة لأمثاله اللصوص، أخبرِيني يا عزيزتي، هل بإمكانك النهوض الآن؟

قامت بإيماءة موافقة، فقال:

- حسنًا، اذهبي لإخبار الجيران، واطلبي منهم استدعاء الشرطة، ابن المحامي الذي يعيش جوارنا لديه دراجة وهو سريع للغاية، اطلبي منه الذهاب إلى مركز الشرطة على الفور. ثم أخذ يتمتم في ذهول:

- الأب تريناردد اللعين! لقد كان يهرول أمامي مرتعبًا مثل الأرنب، ما زالت لديه ساقان سريعتان هذا البائس العجوز، لا يوجد قوة في العالم تجعل هذا المتشرد يفلت من بين يدي. هَمَّ بأخذ مسدسه، ثم انضم إلى رجاله.

- ها، هل من جديد؟

رد عليه أحد الخدم:

- ليس بعد يا سيد جوسو.

- لن يدوم الوقت طويلًا، سنجده؛ إلا إذا تمكن هذا اللعين من اختراق الجدران.

ظلوا قابعين في الحديقة يفتشون ويبحثون، من وقت لآخر كانوا يسمعون نداءات بعضهم على مسافات متباعدة، من الواضح أن الرجل أجاد الاختباء؛ فكان أكثر مهارة وخفة مما تصوروا، رجع أحدهم إلى والده محبطًا بعض الشيء، ولم يحاول مداراة رأيه؛ فقال:

- لقد حل الظلام يا أبي، ولا فائدة ستُرجَى من البحث في هذه العتمة الشديدة، لا بد أن هذا اللعين قد استقر في حفرة ما ولا يستطيع الخروج منها، دعنا نستريح الآن ونتحقق من مكانه غدًا.

احتج الأب:

- غدًا؟ أجننت؟ أتريدني أن أترك هذا الوغد يعبث داخل ممتلكاتي حتى الغد؟

جاء الأخ الأكبر لاهثًا متفقًا مع رأي أخيه:

- لماذا لا ننتظر حتى تشرق الشمس ما دمنا متأكدين من عدم قدرته على الخروج من المزرعة؛ فهو محبوس هنا تمامًا مثل السجن؟

صاح السيد جوسو:

- حسنًا، سأتولى عملية البحث بمفردي إذن، أشعِلوا لي مصباحًا.

في تلك اللحظة وصل ثلاثة من رجال الشرطة، وجاء أيضًا بعض شباب القرية من المنازل المجاورة، هموا بالمساعدة فور سماع الخبر، كان رئيس الشرطة رجلًا منهجيًّا للغاية، فأراد أن يطلع على القصة بأكملها قبل أن يبدأ في البحث؛ فقام باستجواب الأبناء الأربعة، كل منهم على حدة، وقد أجمعوا أن اللص قد اتجه إلى الجهة الخلفية من المزرعة، واختفى أثره بالقرب من مكان معروف باسم (بيت الغربان)، وبعد الاستماع إلى كافة الشهود، أصدر أمره على الفور:

- علينا الاستعداد للبحث والمراقبة جيدًا؛ فظلام الليل والهدوء قد يشجعان اللص على الظهور والهرب، وحين يتم ذلك علينا الإمساك به فورًا، وألا نضيع هذه الفرصة من بين أيدينا، استعِدوا أيها الرفاق، امتثل المزارع لأوامر الضابط بحماسة، وقام بمرافقته إلى المزرعة، ثم قاما بتوزيع أماكن الشباب والأبناء والضباط الخاصة بالمراقبة، وتأكد من إغلاق جميع المخارج جيدًا، وعندما اطمأن أن كل شيء يسير على ما يرام تمامًا توجه إلى داخل المنزل، وجلس في غرفة الطعام يحتسي شراب البراندي القديم الذي قدَّمه له السيد جوسو، مر الليل هادئًا، وكان الضابط يقوم بجولة كل ساعتين؛ لتفقد أحوال الرجال واستطلاع الأخبار، لم يقع أي حدث يثير الريبة، إذن فلا بد أن اللص ما زال مختبئًا داخل المخبأ الذي أوى إليه.

بمجرد بزوغ الفجر، بدأت عملية البحث التي استمرت أربع ساعات متواصلة، وخلال هذه الساعات تم تفتيش الفدادين الخمسة بأكملها، وفحصها من

جميع الجهات من قِبَل حوالي عشرين رجلًا، قاموا بضرب الأشجار بالعصا، وفحصوا تجاويفها، ورفعوا فروع الأشجار المكومة والأوراق اليابسة من فوق الأرض، لم يكن هناك أثر للأب تريناردا، قال السيد جوسو بنبرة يائسة:

- لقد أصبح الوضع مربكًا للغاية.

علَّق الضابط، بينما كان في حالة حيرة وإنهاك واضحة:

- إنه أمر غير قابل للفهم، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته!

كان الأمر غريبا حقًّا؛ فلم يعد هناك مكان لم يتم البحث به؛ باستثناء عدد قليل من أشجار الغار العارية من أوراقها، لم يكن هناك بناء أو كوخ أو حتى كومة من القش تصلح للاختباء بها، أما بالنسبة للسور؛ فبعد الفحص الدقيق تم التأكد من استحالة تسلُّقه، استمرت عمليات البحث مرةً أخرى حتى الظهيرة، وعندما حضر قاضي التحقيقات والنائب لم يكونا أكثر حظًّا، أصبح الأمر مريبًا أكثر من اللازم، زاد في نفوسهم الشك بأن هذا الحادث مجرد وهم ملفق من الأساس؛ فلم يستطِع قاضي التحقيقات من الإعلان عما يجول في صدره:

- هل أنت على يقين مما رأيته أنت وأبناؤك يا سيد جوسو؟

فقال المزارع الذي استولى عليه الغضب:

- على يقين؟! أتعتقد بأنني توهمت رؤيته يا سيدي؟! وماذا عن زوجتي إذن؟! هل تم الاعتداء عليها بواسطة شبح؟! انظر إلى العلامات فوق عنقها.

- حسنًا، إذن أين هو هذا الوغد؟ من المؤكد أنه هرب.

- لا، إنه هنا بين هذه الجدران الأربعة.

- ما دمت متيقنًا من ذلك؛ فعليك الاستمرار في البحث عنه إذن، أما أنا فلست متيقنًا من وجوده، لو كان هنا لتمكَّنا من الإمساك به قبل ذلك بكثير، سأنصرف الآن وأتركك داخل ممتلكاتك، أرجو أن تنجح في إيجاده.

صاح السيد جوسو:

- أقسم لك بأني سأتمكن من الظفر به بنفسي، ولن أسمح لأحد أن يقول إنني تركت ستة آلاف فرنك تُسرَق مني، لقد قمت مؤخرًا ببيع ثلاث بقرات، بالإضافة إلى أموال محصول القمح والتفاح، ستة آلاف ورقة نقدية كنت على وشك وضعها في البنك، سأجده وأستعيد أموالي، أنا متيقن من ذلك، وكأن الأموال في جيبي الآن.

انسحب النائب ورجال الشرطة، وغادر الجيران أيضًا بطريقة محبطة إلى حد ما، وبنهاية النهار لم يبقَ في المزرعة سوى السيد جوسو وأبنائه الأربعة والخادمين، على الفور شرح السيد جوسو خطته إلى الرجال، فقد قرر استمرار المراقبة على مدار اليوم بأكمله مهما طال الأمر، فالأب تريناردا رجل مثل أي رجل آخر، لا بد أن يأكل ويشرب؛ لذلك سيتوجب عليه الخروج من

عرينه ليأكل ويشرب؛ فلن يترك نفسه للموت جوعًا.

قال السيد جوسو:

- من الممكن أن يكون لديه بعض لقيمات الخبز في جيوبه أو يستطيع سرقة ثمرة أو اثنتين من التفاح ليلًا، ولكن الماء؟! فلا يوجد سبيل إليه في المزرعة بأكملها سوى عين واحدة، وسيكون من المستحيل الوصول إليها.

في المساء، ظل قابعًا يحرس هذه العين بنفسه، وبعد مرور ثلاث ساعات حل الابن الأكبر مكانه، بينما كان باقي الأبناء والخدم ينامون في المنزل، كان كل فرد منهم يتناوب على الحراسة في وقته المحدد، وقد أشعلوا المصابيح، وأضاءوا كل الشموع؛ حتى لا يباغتهم اللص على حين فجأة في الظلام.

مرت خمس عشرة ليلة على نفس المنوال؛ يتناوبون على الحراسة ليلًا وفي أثناء النهار، يفتشون ويبحثون في كل الأرجاء، لم يفقد المزارع جوسو الأمل بعد، وقد قام خلال هذه المدة بالاستعانة بمحقق سابق ذي خبرة واسعة، كان يعيش في البلدة المجاورة، ظل هذا المحقق معهم في المنزل لمدة أسبوع كامل، وفي النهاية لم يجد الأب تريناردـ، ولا حتى أي دليل يمكن تتبُّعه للوصول إليه؛ فأكد للسيد جوسو قبل مغادرته أنه لا وجود للص، ومن المؤكد أنه تمكَّن من الهروب بوسيلة ما.

ذات يوم، حينما بلغ الغضب والغيظ من السيد جوسو مبلغه، وقف عند عتبة باب المنزل مواجهًا المزرعة، وصاح بأعلى صوت:

- أيها الوغد اللعين، أنا متأكد من أنك ما زلت هنا بين هذه الجدران، سأتركك تتعفن في مخبئك، ولن تستطيع أن تنفق ولو فرنك واحدًا من أموالي.

ثم صاحت الأم بدورها من خلفه:

- هل السجن هو ما يرعبك؟ اترك المال واخرج، وسنقوم بإطلاق سراحك على الفور، لن نسلمك للشرطة، هذا وعد قاطع لو ظهرت الآن.

ولكن لم يصدر الأب تريناردـ أي صوت ولا حتى نفس، وضاع صياح الزوج والزوجة هباءً، مرت بعد ذلك أيام قاسية للغاية، لم يعد السيد جوسو يأكل أو ينام، أصابه الأرق، وبدأت تظهر عليه علامات الإعياء والحمى، أما الأبناء الأربعة فقد كانوا يتشاجرون طوال اليوم على أتفه الأسباب، لقد دمر القلق والسهر أعصابهم، وساءت أخلاقهم، لم يعد الصبر يجد مكانًا له في هذا البيت، لم يكونوا يخطون خطوة واحدة دون أسلحتهم، عازمين على قتل المتشرد السارق فور رؤية طيفه، لم يعد هناك حديث في القرية بأكملها سوى عن هذه الحادثة الغريبة، كما شغلت الصحافة بعد ذلك، فجاء الصحفيون من باريس لمتابعة الأخبار، واستجواب الشهود؛ فواجههم السيد جوسو بإعراض، قائلًا في عنف:

- على كل إنسان أن يتحمل همومه ومصائبه بمفرده، فاعتنوا بأنفسكم، ولا

تتدخلوا في شئوني بعد الآن.

- ولكن يا سيد جوسو، ألا تعتقد أن اللص قد...

- لا أعتقد شيئًا، اغربوا عن وجهي؛ فالأدب معكم لن يفيد.

وأغلق بابه في وجوههم، ولم يفتحه مرة أخرى.

أصبح الأب تريناردي مختبئًا خلف أسوار المزرعة منذ أربعة أسابيع حتى الآن، واصل السيد جوسو بحثه بكل عناد، ولكن ظل أمله يضعف يومًا بعد يوم، شعر بأن الأمر تحوَّل إلى لغز خارق للطبيعة لا سبيل لحله، وبدأت فكرة أنهم قد فقدوا أموالهم إلى الأبد تسيطر على أذهانهم.

في صباح أحد الأيام قرابة العاشرة، تعطلت سيارة ما كانت تجتاز ساحة القرية بسرعة خارقة، توقفت فجأة وقد أصابها عطل ما، وعندما فحصها الميكانيكي أبلغ صاحبها بأنه قد يستغرق وقتًا طويلًا في إصلاح هذا العطل، عندئذٍ قرر صاحبها الانتظار في الفندق المتواضع بالقرب من الميكانيكي، كان شابًّا ذا سوالف قصيرة ووجه ودود، سرعان ما بدأ محادثة مع نزلاء الفندق والعاملين به، وبالطبع بلغته قصة السيد جوسو، الرجل الذي يغلق على نفسه منزله منذ شهر ليطارد وهم اللص الخفي الذي سرق أمواله، فلم يكن يعرف شيئًا عن هذه القصة؛ لأنه كان خارج البلاد منذ فترة طويلة، ولكن جذبت هذه القصة انتباهه بشكل كبير، كان يريد أن يستمع إلى تفاصيل أكثر؛ فأخذ يسأل مَن حوله عن بعض النقاط الغامضة، وبالفعل اشترك في هذا الحوار جميع مَن كانوا في الفندق ممن يتناولون الغداء في هذا الوقت، وأخيرًا قال:

- كل هذا هراء وغباء؛ فالأمر ليس بهذا التعقيد، لقد مررت بالكثير من التجارب المشابهة، فلو كنت في هذه المزرعة لكان بإمكاني...

قاطعه صاحب الفندق قائلًا:

- ليس هناك أسهل من هذا، فأنا صديق مقرب للسيد جوسو منذ زمن بعيد، وأعتقد أن بإمكاني إقناعه بزيارتك.

كانت المناقشة التي خاضها صاحب الفندق مع السيد جوسو قصيرة للغاية، فقد بلغ الرجل حدًّا من اليأس لا يستطيع الإنسان معه رفض أي شيء، فقالت زوجته دون تردُّد:

- إذن دعه يأتي إلى هنا.

فعاد بعدها الرجل ليخبر الشاب الغريب، فقام بدفع الحساب على الفور، وهَمَّ بالمغادرة، وبعد ذلك أمر السائق أن يوافيه هناك بعد إصلاح السيارة، قال له:

- في غضون ساعة واحدة، كن مستعدًّا.

رحب به السيد جوسو، وأخذ يشرح له تفاصيل ما حدث تمامًا، وقد عاد إليه بعض الأمل مرة أخرى رغمًا عنه، كان الرجل الغريب قليل الكلام، فقاده إلى

المزرعة وهم يمشون على طول الجدار حتى بلغا بوابة البستان الصغير، أخرج السيد جوسو المفتاح وفتح الباب، وأخذ يشرح له إجراءات البحث وتفاصيل الأحداث منذ اليوم الأول وهما يدلفان إلى داخل المزرعة، ظل الرجل يستمع فقط، بدا وكأنه يدرس الأمر جيدًا في رأسه، وكان يراقب كل شيء بعيون مشتتة إلى حد ما، وعندما انتهت الجولة، قال السيد جوسو:

- والآن، ما رأيك؟

- رأيي؟ قال وكأنه لم يكن منتبهًا.

- هل توصلت إلى شيء ما؟

مضت لحظة من الصمت، بدا الزائر حائرًا خلالها، ثم قال:

- ليس تمامًا.

رفع السيد جوسو كفيه إلى السماء، وقال:

- بالتأكيد لا، كيف يمكنك التوصل إلى معرفة مكانه خلال دقائق، ونحن نسعى للنيل منه منذ ما يقارب الشهر حتى الآن؟! أتعلم ما رأيي؟ أعتقد أن هذا اللص تريناردا قد هلك في حفرته التي لاذ بها، وتعفنت بجانبه الأوراق المالية، كل ما ادخرته هلك إلى جانب جثته، هذا ما أوشِك على الاقتناع به.

قال الزائر:

- أريد الاستفسار حول نقطة واحدة تشغلني، بعد فرار اللص من المنزل واختبائه في مكان ما هنا، كان في ذلك الوقت حرًّا لقطف بعض الثمار، فبأقل شيء يمكنه أن يعيش، ولكن كيف استطاع أن يشرب طوال هذه المدة؟!

- لا أدري، لا يوجد في المزرعة بأكملها سوى هذه العين، ولم نغفل عنها لحظة واحدة طوال الأيام السابقة.

- وما مصدر هذه العين؟

- إنه المكان الذي تقف جواره تمامًا.

- هل هناك ضغط يكفي لإرسال الماء إلى العين من تلقاء نفسها؟

- نعم.

- وإلى أين تتجه المياه بعد أن تمر على العين؟

- تسري في ماسورة تحت الأرض حتى تصل إلى المنزل، وكما ترى؛ لا يوجد سبيل للوصول إليها، فهذه العين قريبة جدًّا من المنزل على بعد 20 مترًا تقريبًا.

- ألم تمطر السماء خلال هذه الفترة؟

- ولا مرة واحدة؛ كما أخبرتك من قبل.

سار الزائر في اتجاه العين ليفحصها عن قرب، تم صُنعها من بعض الألواح الخشبية المتجمعة فوق بعضها، تمر المياه من خلالها بطيئة وصافية.

سأل الرجل:

- لا يزيد عمق هذه المياه على ثلاثين سنتيمترًا، أليس كذلك؟

ولكي يقيس عمق العين انحنى ليتناول عودًا من القش ليُدخِله في العين، ولكن فجأة! رفع رأسه وابتسم، قائلًا:

- يا له من أمر غريب!

ثم انفجر ضاحكًا. أثار الأمر حيرة جوسو، الذي تلعثم قائلًا:

- ماذا هناك؟

جرى جوسو ليقف جوار الرجل، وأخذ يحملق في العين، وكأنه سوف يرى اللص ممددًا بالداخل بين الألواح الخشبية الضيقة.

أخذت الأم جوسو تتساءل بتوسل:

- ماذا هناك؟ هل رأيته؟ هل هو في الأسفل؟

أجاب الغريب الذي ما زال يضحك:

- لا في الداخل، ولا في الأسفل.

اتجه الرجل الغريب نحو المنزل، وفي إثره السيد جوسو وزوجته وأبناؤه، بالإضافة إلى صاحب الفندق، وعدد لا بأس به من أبناء أهل القرية كانوا يتابعون حديث الرجل وتحركاته، قال الزائر وقد ابتهج وجهه، وعلت شفتيه ابتسامة طفيفة:

- تمامًا كما ظننت، كان لا بد للرجل من أن يروي ظمأه، وبما أنه لم يكن هناك سوى هذا الحوض... عارضه السيد جوسو:

- هل كان يشرب من هذه العين؟

- نعم.

- كيف هذا؟! انظر، نحن قريبون للغاية، كنا سنراه حتمًا!

- لقد كان يشرب ليلًا.

- حتى لو صحيحًا، كنا سنسمعه؛ إننا في المنزل بجواره تمامًا!

- كان يفعل ذلك بطريقة بسيطة جدًّا وغير تقليدية.

- ما هي؟

بسط ذراعيه مظهرًا العود الذي كان يقيس به عمق الماء، قائلًا:

- بواسطة هذا العود، انظر جيدًا، هل هذا العود تقليدي بالنسبة لك؟ لقد تم صنعه ليكون على هذا الشكل، إنه يشبه عصًا مجوفة رفيعة للغاية، وكأنه أنبوبة للشفط إلى حد ما، إنه ليس عودًا واحدًا، إنها مجموعة من الأعواد متداخلة معًا وهذا أول شيء استرعى انتباهي على الفور، مَن الذي قام بتوصيل هذه الأعواد بهذا الشكل؟ إن هذا العود يُعَد دليلًا قاطعًا.

قال جوسو:

- دليل على ماذا؟

تجاهل الرجل الرد على جوسو، واتجه نحو الحائط؛ حيث التقط بندقية كانت معلقة فوقه قائلًا:

- هل هي ممتلئة؟

- نعم -قال الابن الأصغر- لقد اعتدت أن أطارد بها العصافير، إنها محشوة بطلقات زائفة فقط للترهيب.

- جيد جدًّا، هذا يكفي لمعرفة مكانه.

اتخذت ملامحه مظهر الجد فجأة، وأمسك السيد جوسو من ذراعه قائلًا في نبرة متسلطة:

- اسمعني جيدًا يا سيد جوسو، أنا لست رجلًا من الشرطة، وإن وجدت هذا الشيطان لا أريد بأي شكل من الأشكال تسليمه إلى الشرطة والزج به إلى السجن، يكفي ما عاناه هذا الغبي بين جدران هذه المزرعة، لقد تحمل آلام الجوع والبرد والخوف لمدة أربعة أسابيع؛ فعدني بشرفك أنت وأولادك أنكم ستدعونه يمضي دون أن تُلحِقوا به الأذى.

- عليه أن يعيد لنا أموالنا أولًا.

- بالطبع، هلَّا وعدتني.

- إليك كلمتي يا سيدي.

سار الرجل مرة أخرى حتى بلغ عتبة المزرعة، رفع بندقيته فوق كتفه في حركة سريعة، وصوَّبها نحو شجرة الكرز التي تطل على عين الماء وأطلق النار، فدوت صرخة حادة في الأرجاء؛ وقع على إثرها خيال المآتة فوق الأرض، هذه الدمية المصنوعة من العصي والقش والخرق البالية على هيئة إنسان، لقد كانت معلقة لمدة شهر كامل فوق الأغصان، أما الآن فما إن وقعت حتى وقفت على قدميها تجري فوق العشب، وسط حالة من الذهول التي أصابت الحاضرين! اندفع الأبناء الأربعة يركضون خلفه، وسرعان ما أمسكوا به متعثرًا في ملابسه البالية التي تعوق حركته، لكن الرجل الغريب توجه على الفور نحوهم ليدافع عنه ويحميه من غضبهم، صاح قائلًا:

- كفوا أيديكم عنه، لن أسمح لأحد أن يصيبه بسوء.

ثم استدار ناحية خيال المآتة قائلًا:

- أرجو ألا أكون قد أذيتك يا سيدي.

كان ترينارد واقفًا على ساقيه الملفوفتين بالقش والخرق البالية وكذلك ذراعاه، كما غلف رأسه جيدًا بالكتان والقش والأقمشة المهترئة، كان مقيدًا مملوءًا بالقش، تكسوه الأوساخ من رأسه حتى قدميه، ولكنه ما زال محتفظًا بهيئته الإنسانية وعينيه اليقظتين، بدا وكأنه مجسم تمثال لعرض الملابس الغريبة في واجهة محل أزياء، لو نظرت إليه لا تتخيل أبدًا أن خيال المآتة هذا هو رجل حقيقي من لحم ودم، كان مشهدًا غريبًا وغير متوقع، فما استطاع الجميع كتم ضحكاتهم أمامه، عمل الرجل الغريب على إزالة الأربطة والخرق البالية التي تحيط برأسه؛ فكشف عن وجه نحيف قذر ولحية رمادية، عيناه تصرخان بالرعب وتلمعان من الانفعال، استمر الرجال في الضحك؛ فصاح جوسو غاضبًا:

- أين الأموال أيها اللص الحقير؟ أين الستة آلاف فرنك؟

أزاح الرجل الغريب ترينارد من أمام جوسو، وقال:

- ستستعيد أموالك يا سيدي، أليس كذلك أيها الأب ترينارد؟

وبينما كان يقطع أربطة القش والنسيج بسكينة صغيرة أخرجها من جيبه، قال مازحًا:

- أيها الرجل المسكين، إن هيئتك مثيرة للضحك، بالتأكيد لديك روح دعابة عالية، ولكن كيف استطعت تنفيذ هذه الحيلة؟ قد تكون ذكيًّا للغاية، أو أنه حُسن حظ ليس إلا، لقد اغتنمت فرصة قلة الحراسة في الساعات الأولى للبحث وحشرت نفسك في زي خيال المآتة، فلم يخطر ببال أحد أن هذه الدمية الساكنة التي اعتادوا رؤيتها ليلًا نهارًا ثابتة في مكانها فوق الأغصان، قد يختبئ داخلها لص! يا لك من مغامر! لقد ثبَّت نفسك على ذلك الوضع طوال هذه المدة، متدلي الساقين واليدين، لا شك بأنك عانيت من آلام فظيعة، ففي أثناء عمليات التفتيش في النهار لم تكن لتجرؤ أن تقوم بأي حركة أو حتى إيماءة بسيطة، ويا له من رعب لو غفوت لحظة! يا للمخاطرة وأنت تأكل أو تشرب! بم كنت تشعر وأنت تسمع قُرب خطاهم وصوت بنادقهم؟! ولكني أحترم ذكاءك في نقطة واحدة، وهي: الحيلة الذكية التي صنعتها لكي تشرب، الأنبوبة الرفيعة التي صنعتها من أعواد القش، فقد قمت بانتزاع بعض الأعواد التي تغطي بها جسدك، وقمت بصناعة هذه الأداة البسيطة؛ لكي تطول وتبلغ العين، وبهذه الطريقة تستطيع أن تمدها وتشرب في أي وقت تريده دون أن يلحظ أحد، لشد ما أريد أن أحييك على ذكائك!

صمت لحظات، ثم استكمل من بين أسنانه، وكأنه يكتم أنفاسه:

- فقط رائحتك كريهة للغاية؛ فأنت لم تغتسل منذ ما يقرب الشهر، بالرغم من وجود الكثير من الماء على بعد خطوات منك؛ فأنت لا تستطيع استخدامه، يا

للقذارة! خذوه أيها الرجال إنه لكم؛ فعليَّ الذهاب لغسل يدي.

انقض السيد جوسو وأبناؤه الأربعة على الفريسة التي تم تركها بمفردها.

- هيا، أعطِني أموالي أيها اللص.

وعلى الرغم من حالة الضعف البادية عليه؛ فإن المتشرد ترينارد ما زال يصطنع الذهول والدهشة، صاح السيد جوسو:

- دعك من التظاهر بالبلاهة؛ فلن تفيدك بشيء، هيا أخرِج الستة آلاف فرنك.

قال المتشرد بصوت متلعثم:

- ماذا تريدون مني؟

- الأموال، ألم تسمعني؟ لقد بدأ صبري في النفاد.

قفز السيد جوسو وأبناؤه فوق اللص؛ فطرحوه أرضًا، ومزقوا ثيابه البالية وفتشوه جيدًا، لكنهم لم يجدوا شيئًا؛ فصاح قائلًا:

- أيها الماكر، ماذا فعلت بالأموال؟

بدا المتشرد العجوز في حيرة، متصنعًا الدهشة والبلاهة مرة أخرى:

- أي مال؟ أنا لا أملك سوى ثلاثة سنتات فقط!

بقيت عيناه الواسعتان اليقظتان مثبتتين فوق ملابسه الممزقة فوق الأرض، وبدا عليه عدم الفهم، وكأنه قد فقد عقله بالفعل، لم يعد ممكنًا السيطرة على غضب السيد جوسو؛ فأمسك بالرجل، وأخذ يركله ويضربه بشده، ولكن دون جدوى، فالسيد جوسو متيقن من أن هذا المتشرد قد خبأ المال في مكان ما في المزرعة قبل أن يتنكر في ثوب خيال المآتة؛ فأخذ يصيح:

- أين المال الذي سرقته من منزلي وخبأته هنا؟ لو لم تُعِده إليَّ فورًا سأسلمك إلى الشرطة؛ فلدينا شهود على ما فعلت، أليس كذلك؟ جميعكم أيها الأصدقاء رأيتم ما حدث، ستشهدون على هذا اللص الحقير.

واستدار لينادي الرجل الغريب الذي كان يقف جانب عين الماء منذ قليل على بعد ثلاثين أو أربعين خطوة جهة اليسار، لكنه تفاجأ بعدم وجوده، فقال متسائلًا:

- هل انصرف السيد الذي كان هنا؟

فرد أحدهم:

- لا، لقد أشعل سيجارًا وكان يتمشى بالجوار.

- إنه الوحيد القادر على إيجاد الأموال؛ كما استطاع إيجاد هذا الحثالة.

- إلا إذا... (قال أحد الحضور).

سأله جوسو:

- إلا ماذا؟ ما قصدك؟ أتعرف شيئًا؟ أفصِحْ عما في ذهنك.

لكنه توقف عن الكلام فجأة وقد هاجمه الشك، كان هناك لحظات من الصمت، وكأن الفكرة نفسها جالت بخاطر كل الحضور، فلم يكن مرور هذا الرجل الغريب في هذه الأنحاء من هيبرفيل وتعطُّل سيارته ودخوله الفندق لاستجواب الناس دربًا من دروب الصدفة، لا بد أنها خطة معدة مسبقًا، أسلوب ماكر من أساليب المحتالين، لا بد أنه نصاب قرأ عن الواقعة من الصحف والجرائد، وقرر أن يأتي إلى هنا، ويبتكر هذه الحيلة؛ ليتمكن من الدخول إلى المزرعة، ويجرب حظه في الحصول على هذه الأموال.

أخيرًا؛ قطع صاحب الفندق هذا الصمت الرهيب:

- يا له من رجل بارع! لقد تمكَّن من سرقة الأموال من جيوب تريناردي بينما كان يفك الأعواد والأقمشة التي يربطها حول خصره ويده على مرأى ومسمع منا جميعًا. صاح جوسو:

- مستحيل! لو أنه خرج كنا سنراه يغادر البوابة أمامنا من هذه الناحية، وكنا سندركه على الفور، إنه ما زال هنا إذن.

قالت زوجته على الفور:

- الباب الخلفي الصغير.

- إني لا أترك المفتاح أبدًا، إنه في جيبي دائمًا.

- ولكنك أظهرته له.

أخذ يبحث في جيوبه، ثم أطلق صيحة حادة:

- يا إلهي! لقد اختفى المفتاح.

أخذ يهرول هو والرجال من خلفه نحو الباب الصغير من الجهة الأخرى من المزرعة، وعندما بلغوا منتصف الطريق سمعوا صوت محرك سيارة تدور، لا شك أنه هو بالفعل، ألم يأمر سائقه بالانتظار هنا أمام منزل السيد جوسو، وعندما وصلوا إلى الباب الصغير المصنوع من الخشب القديم المسوَّس، رأوا هذه الكلمات مكتوبة عليه بالطوب الأحمر بحروف كبيرة:

«مع خالص تحياتي، أرسين لوبين».

وعلى الرغم من غضب السيد جوسو وعناده؛ فإنه لم يستطِع أن يثأر لنفسه سوى بإبلاغ الشرطة عن هذا المتشرد تريناردي؛ لإثبات بأنه قد سرق الأموال، ولكن تحت شهادة عشرين شخصًا بأنهم قاموا بتفتيشه أمامهم ولم يكن بحوزته شيء، فقد قضى داخل السجن شهرين فقط؛ عقابًا على فعلته بالتعدي بالضرب على السيدة جوسو، ولكنه لم يندم ولم يعانِ أبدًا خلال هذا

الوقت الذي قضاه بالسجن مقارنةً بالوقت الذي قضاه داخل المزرعة؛ فالسجن الحقيقي بدا نعيمًا له بعد ذلك، وفي يوم خروجه من السجن وصله طرد بمبلغ مالي قدره ثلاثون فرنك، وظل يصله كل ثلاثة أشهر في نفس التاريخ، فبالنسبة للأب تريناردي المتسول كان هذا الطرد الشهري بمثابة ثروة عظيمة تغنيه عن السرقة لباقي أيام حياته.

زواج أرسين لوبين

يتشرف السيد أرسين لوبين بدعوة سيادتكم لحضور حفل زفافه إلى الآنسة (أنجليك دي سارزو فاندوم) أميرة (بوربون كونديه)، والذي سيقام بكنيسة (سان كلوتيد).

يتشرف الدوق (سارزو فاندوم) بدعوة سيادتكم لحضور حفل زفاف نجلته الآنسة (أنجليك) أميرة (بوربون كونديه) على السيد أرسين لوبين ويرجوكم...

لم يستطِع الدوق جان دي سارزو فاندوم إكمال قراءة الخطابين اللذين كان يمسكهما بين يديه، امتُقِع وجهه، وظهرت عليه أمارات الغضب الشديد، ألقى بالورقتين إلى ابنته قائلًا:

- هذا ما تلقاه أصدقاؤنا وأقاربنا، والذي أصبح حديث الناس في الشوارع منذ البارحة، ما رأيك في هذه الفضيحة يا أنجليك؟ ماذا سيكون رد فعل أمك لو كانت ما تزال على قيد الحياة؟

كانت أنجليك فتاة طويلة ونحيلة مثل والدها، في الثالثة والثلاثين من عمرها، دائمًا ما ترتدي ثوبًا من الصوف الأسود، كانت فتاة خجولة وهادئة، رأسها صغير مضغوط برقبة قصيرة إلى جسدها، ذات أنف مدبب صغير، ومع ذلك لا يمكن للمرء أن يقول عنها دميمة؛ فعيناها الواسعتان جميلتان يطل منهما الحنان والرقة، نظراتها العميقة توحي بالكبرياء المشوب بالحزن، تلك العينان الساحرتان اللتان لا يمكن للمرء أن ينساهما أبدًا لو رآهما حتى مرة واحدة.

تورد وجهها خجلًا في البداية عندما سمعت كلام والدها، شعرت بالاستياء والخوف من الفضيحة المتداولة؛ فقد كانت تحب والدها كثيرًا؛ على الرغم من قسوته وطبعه الغليظ واستبداده، قالت له:

- أعتقد أن الأمر مجرد مزحة يا أبي، لا ينبغي أن نعطي لهذا الأمر الكثير من الأهمية.

- مزحة؟! الناس كلها تتحدث عنا، لقد نشرت عشرات الصحف هذا الصباح هذه الرسائل البغيضة مصحوبة بتعليقات ساخرة، ذاكرين تاريخ عائلتنا المجيد، يأخذون الأمر على محمل الجد، متحججين بأن الزواج أمر جاد لا يمكن المزاح فيه.

- لكن لا أحد من أصدقائنا ومعارفنا سيصدق هذا الأمر.

- بالطبع لا أحد سيصدق، ولكن هذا لا ينفي بأن سيرتنا أصبحت لقمة سائغة تلوكها أفواه باريس بأكملها.

- دعهم يتحدثون اليوم، وغدًا سينسى الجميع الأمر برمته.

- بالعكس، سيذكرون على الدوام أن اسم أنجليك سارزو دي فاندوم قد تم تدنيسه بصورة غير لائقة، آه لو أعرف مَن هذا الوغد الذي تجرأ عليَّ...

في تلك اللحظة دخل خادمه الخاص (هايسينس)، وأبلغ الدوق باتصال هاتفي من أجله، تناول سماعة الهاتف وهو ما زال منفعلًا، فقال بعصبية:

- نعم، أنا الدوق سارزو فاندوم، ماذا هناك؟

قال المتصل من الجهة الأخرى:

- مرحبًا، أود أن أُقدِّم لك خالص اعتذاري يا سيدي الدوق، ولابنتك الأميرة أنجليك؛ فإن سكرتيري الخاص قد وقع في خطأ.

- سكرتيرك؟

- نعم، فبطاقة الدعوة التي تم تداولها منذ أمس ما هي إلا مسودة، وقد كنت أنوي أن أعرضها عليك أولًا بالطبع قبل طباعتها ونشرها، ولكن لسوء الحظ قد تسرَّع مدير أعمالي.

- على كل حال، مَن أنت؟

- ألم تتعرف صوتي بعد؟ إنه أنا، صهرك المستقبلي...

- مَن؟!

- أرسين لوبين.

قال الدوق وهو يغلق سماعة الهاتف:

- أرسين لوبين، إنه هو لوبين الوغد.

وتهاوى فوق أحد المقاعد، وقد ازداد امتقاع وجهه، بينما كانت أنجليك تبتسم قائلة:

- أرأيت يا أبي، إن الأمر لا يتعدى كونه مزحة، لكن الدوق استشاط غضبًا، نهض عن مقعده، وأخذ يقطع الحجرة جيئًا وذهابًا وهو يفكر، ثم صاح:

- سأتقدم بشكوى ضد هذا الوغد، لا بد أن ينال عقابه، لا يمكن أن أسمح لهذا الشخص أن يتمادى في السخرية مني لأكثر من هذا؛ فإن لم يزل هناك قانون في هذا البلد؛ لا بد أن يتدخل لإنقاذي في استعادة كرامتي.

دخل الخادم مرة أخرى ومعه بطاقتان لشخصين ينتظران بالخارج يودان مقابلته:

- السيد (شوتوا) والسيد (لابيتي)! مَن هؤلاء؟! أنا لا أعرف أشخاصًا بتلك الأسماء!

- إنهم من رجال الصحافة يا سيدي؟

- وماذا يريدان؟

- يريدان التحدث معك بشأن خطابات زفاف ابنتك وتفاصيل انتشار...

قاطعه الدوق منفعلًا بنبرة عصبية شديدة:

- دعهم يرحلون فورًا، وقل للبواب ألا يستقبل مثل هؤلاء المتطفلين مرة أخرى.

قالت أنجليك بنبرة قلقة:

- مهلًا يا أبي، من فضلك حاوِلْ أن تهدأ قليلًا، إن هذا الانفعال خطر على صحتك.

- اتركيني وشأني، لو أنكِ وافقتِ على الزواج من أحد أبناء أعمامك فيما مضى؛ لما كان سيحدث كل هذا، ما كنت سأشهد مثل هذا اليوم المقيت، والله وحده يعلم ما تخفيه الأيام المقبلة.

في مساء هذا اليوم نشر أحد الصحفيين مقالًا في الصفحة الأولى بجريدته يسرد قصة مبتكرة خيالية عن زيارته للقصر العتيق الكائن بشارع دي فارين الذي يعود لعائلة سارزو دي فاندوم، وأخذ يحكي عن انفعال الدوق الهائل وطرده له ولزملائه ومعاملتهم بجفاء وسوء تقدير، وفي اليوم التالي نشرت جريدة أخرى حديثًا مع أرسين لوبين يقول:

- إني اتفهم للغاية مدى غضب حمايَ المستقبلي، بل وأشاركه هذا الغضب الهائل أيضًا؛ فإن انتشار هذه البرقيات على مدى واسع هكذا إنما هو تصرُّف غير لائق أبدًا، وأؤكد أنني لست مسئولًا عنه، ولكني أريد أن أنتهز هذه الفرصة لأعلن اعتذاري على الملأ، خاصةً وأن موعد الزفاف لم يتم تحديده بعد، يقترح حمايَ العزيز بأن يكون في بداية شهر مايو، ولكني أنا وأنجليك خطيبتي نجد أن هذا التاريخ بعيد للغاية، فلم علينا الانتظار كل هذا الوقت؟ إنها ستة أسابيع بأكملها.

أعطى هذا اللقاء نكهة ساخرة للقصة بأكملها؛ حيث استغله أصدقاء الدوق للتهكم؛ لأنهم يعرفون طبعه المتعجرف وتصلُّب أفكاره ومبادئه؛ فهو أحد أبناء سلالة آل بوربون كونديه المعروفين بتكبرهم وغطرستهم، فهي من أعرق الأسر في (بريتاني)، كما أنه ينحدر رأسًا من ناحية الأم من أسرة (فاندوم)، وكان يرفض أن يضم لقب فاندوم إلى سارزو، فقضى عشر سنوات في سجن الباستيل؛ عقابًا على رفضه اللقب الجديد الذي فرضه الملك لويس الخامس عشر؛ مما يثبت عدم تخلي الدوق عن مبادئه القديمة، وقد كان رفيقًا للكونت تشامبورد([22]) في السجن، بالإضافة إلى رفضه مقعد النائب في قصر البوربون؛ بحجة أنه فرد من سلالة آل سارزو، ولا يمكنه مجالسة غير النبلاء، ولذلك صدمته هذه القصة، وآلمته في كبريائه أشد الألم؛ فأصبح يسب لوبين ويتوعده بالعقاب، وأن ينال جزاءه إزاء فعلته تلك، كما كان يصب جام غضبه فوق رأس ابنته ليلًا نهارًا:

- لو كنتِ قد تزوجتِ أيًّا من أبناء عمومتك: موسي، أو كاروش، أو دامبواز ما كان سيحدث كل هذا، ولما كنتِ وضعتِني في هذا المأزق اليوم، فما عيبهم؟! أنا لا أدري؛ فهم من ذوات الحسب والنسب، كل منهم يمتلك ثروة ضخمة، ولا

يزالون يطلبون التقرب منكِ حتى يومنا هذا، فلماذا تصممين على الرفض إذن؛ لأنكِ ما زلتِ تعيشين في عالم مليء بالأحلام والخيال؟! أم للأسباب التي تبديها الفتيات التافهة أن هذا سمين للغاية، وهذا نحيف للغاية، أما هذا فحديثه جاد للغاية ولا يروق للفتيات؟!

بالفعل كانت أنجليك فتاة حالمة، لقد عاشت وحيدة منذ الصغر، وكانت القراءة هي هوايتها المفضلة؛ فانكبت على الروايات الرومانسية وحكايات الفرسان والأميرات العاطفية، فكانت ترى الحياة وكأنها رواية خيالية لا بد في النهاية أن تجد الفتاة فارس أحلامها الذي تنتظره، لماذا إذن تتزوج من أحد أبناء عمومتها الذين لا يريدون سوى ميراثها، الملايين التي ورثتها من والدتها، وفي الغالب بعد الزواج ستظل تنتظر وتحلم كما هي، ولكن دون ذرة أمل واحدة، ولذلك آثرت أن تظل دون زواج وتعيش باقي حياتها على هذا الأمل الضعيف.

قالت لوالدها في هدوء:

- ستودي بنفسك إلى الهلاك يا والدي؛ بكثرة تفكيرك في هذا الأمر، لا بد أن تنسى هذه المزحة السخيفة من فضلك.

ولكن كيف له أن ينسى ما تتداوله الصحف كل صباح ومساء؛ فهذه المقالات السخيفة تعيد وخز الدبوس في جرحه مرة أخرى، لمدة ثلاثة أيام متتالية كانت أنجليك تتسلم باقة من أجمل وأرق الزهور تحمل وسطها بطاقة مدونًا عليها اسم أرسين لوبين.

لم يكد الدوق سارزو يخرج من منزله حتى التقى بأحد أصدقائه القدامى، والذي تطرق إلى هذا الموضوع في النهاية بتهكم واضح، فقال له:

- إنها مزحة عجيبة، تلك التي تم نشرها اليوم!

- ماذا هناك؟

- ألم تقرأ أخبار صهرك بعد؟ تفضَّلْ اقرأ هنا: «سيطلب السيد أرسين لوبين من مجلس الدولة إضافة اسم زوجته المستقبلية الآنسة أنجليك إلى اسمه، وسوف يُطلِق على نفسه من الآن فصاعدًا اسم: (لوبين دي سارزو فاندوم)».

وفي اليوم التالي تم نشر هذا المقال: «بما أن عروسة أرسين لوبين تنحدر من سلالة دي بوربون، وبمقتضى مرسوم ملكي أصدره الملك شارل العاشر؛ فإنه من المنتظر أن يحمل الابن الأكبر لأرسين لوبين اسم: (لوبين دي بوربون كونديه)».

واليوم الذي يليه أعلنت إحدى مجلات الأزياء: «يتشرف متجر أزياء اللوفر بأن يُقدِّم فستان زفاف الآنسة أنجليك دي سارزو فاندوم من أفخم أنواع الأقمشة وأرقى التصميمات، بالإضافة إلى نقش الحروف الأولى للزوج السعيد: ل. س. ف».

ثم تجرأت مجلة أخرى ونشرت رسمة كاريكاتيرية للدوق وابنته وصهره لوبين وهم يجلسون حول طاولة ويلعبون الورق، وبعدها تم الإعلان في ضجة كبرى عن موعد الزفاف، وهو الرابع من شهر مايو، تطرقت الصحف بعد ذلك إلى تفاصيل عقد الزواج، ومن جانبه أظهر لوبين أنه لا يقيم وزنًا لهذه التفاصيل الصغيرة؛ فإنه مستعد للتوقيع وهو مغمض العينين، بغض النظر عن قيمة المهر.

كل هذه الأحداث زادت من غضب الدوق، وقد وصلت كراهيته وحقده على أرسين إلى أقصى مدى؛ فبلغت دوافع الانتقام لديه أبعاد مرضية، ولم يجد أمامه حلًّا أفضل من الإسراع بإبلاغ رئيس البوليس بنفسه، والذي نصحه -بعد حديث مطول بينهم- أن يتوخى الحذر والحيطة، قائلًا:

- لقد اعتدنا ألاعيب أرسين لوبين التي لا تنتهي، عليك توخي الحذر جيدًا سيدي الدوق؛ فطريقته المعتادة هي أن يستخدم أقرب شيء لديك للانقلاب ضدك، هو الآن يطهو صيده الثمين على نار هادئة، فلا تسقط في الفخ يا سيدي.

سأله الدوق بقلق واضح:

- وماذا يكون هذا الفخ إذن؟

- يريد أن يجعلك تفقد السيطرة على أعصابك وقراراتك، وتنجرف لتنفيذ أهوائه، تقبل بشيء لم تكن لتقبل به في حالتك الطبيعية، وترضخ لمطالبه في النهاية دون أن تشعر.

- أيأمل هذا الوغد أن أعرض عليه الزواج من ابنتي؟

- ليس تمامًا، كيف عليَّ قولها؟ هو ينتظرك أن ترتكب حماقة ما.

- وما هي؟

- هي تمامًا تنفيذ غرضه الأساسي والواضح وراء هذه الضجة بأكملها.

- إذن ماذا عليَّ أن أفعل؟

- أنصحك بأن تعود إلى منزلك وتجلس بهدوء يا سيدي الدوق، ليس عليك سوى التفكير السليم قبل اتخاذ أي قرار، ولو أن أفعال لوبين الصبيانية هذه ستتسبب لك في كثير من الإزعاج؛ عليك إذن مغادرة البلد إلى أي مكان آخر؛ لتحصل على بعض الراحة والاستجمام، ولكي تبقى بعيدًا عن الانفعال.

زادت هذه المحادثة من قلق الدوق؛ فبدا لوبين بالنسبة له شخصًا مروعًا يستخدم أساليب شيطانية للإيقاع بفريسته، كما أن لديه صلات وعلاقات مع الكثيرين حول العالم؛ فقرر عدم المغادرة، والبقاء لمواجهة تلك الدوامة التي انجرف داخلها.

ومنذ ذلك الحين أصبحت الحياة اليومية صعبة للغاية؛ فازدادت عدوانيته لمَن

حوله، وأصبح قليل الكلام لا يخرج من غرفته في أغلب الأيام، أغلق أبواب قصره أمام جميع أصدقائه القدامى، حتى أبناء إخوته الثلاثة: موسي، ودامبواز، وكاروش، الذين ازداد حنق كل منهم على الآخر في الآونة الأخيرة، وذلك للمنافسة التي دارت بينهم للفوز بأنجليك، أصبح لا يستقبلهم مجتمعين؛ فتناوبوا على زيارة القصر كل أسبوع.

ودون أي سبب، قام بطرد خادمه الشخصي وسائقه، ولم يجرؤ على استبدالهما؛ خوفًا من دخول شخص متواطئ مع لوبين إلى المنزل، فلم يتبقَّ سوى خادمه المخلص هايسنس الذي كان يخدمه منذ أربعين عامًا؛ فأصبح يقوم بكل أعمال القصر الروتينية، حتى الإسطبل، والمخزن، وأعمال التسوق.

كانت أنجليك تحاول التخفيف من شعور الخوف المسيطر على والدها، وتحاول إعادته إلى التفكير المنطقي؛ فكانت تقول:

- هيا يا أبي، ليس عليك القلق إلى هذا الحد، لا أحد في العالم يستطيع إجباري على هذا الزواج العبثي!

- بالطبع، ليس هذا ما أقلق حياله في الوقت الحالي.

- إذن مم تقلق يا أبي؟

- لا أستطيع أن أحدد ما يدور برأس هذا الوغد، ربما اختطافك، ربما السطو على القصر في أي لحظة، لا بد أنه يقوم بتدبير شيء عنيف ضدنا، ويحيطنا الآن بجواسيسه دون أن ندري.

وفي ظهر هذا اليوم نشرت جريدة هذا الخبر بخط عريض: «مساء اليوم ستقام احتفالية صغيرة بقصر سارزو فاندوم بمناسبة توقيع عقد الزواج في احتفال بسيط للغاية، ولن يُسمَح بحضور سوى عدد قليل من المدعوين لتهنئة العروسين؛ حيث سيكون شاهدا العروس: الأمير لاروشفوكو ليمور، والكونت دي شارتر، أما بالنسبة لشاهدي أرسين لوبين؛ فهما: مدير البوليس، ومدير سجن السانتيه».

فاق هذا الخبر احتمال الجميع؛ فبعث الدوق خادمه بثلاثة خطابات عاجلة ليضعها في صندوق البريد، وفي تمام الساعة الرابعة حضر أبناء عمومة أنجليك الثلاثة: الشاب البدين موسي، والآخر دامبواز كان شابًّا نحيفًا طويل القامة خجولًا للغاية، والأخير هو أنطوان دي كاروش قصير ونحيف، وصحته ليست على ما يرام، جميعهم تقدَّم بهم العمر، ولم يعد لهم أي جاذبية.

كان الاجتماع قصيرًا للغاية، أوضح الدوق من خلاله الخطة الكاملة التي توصَّل إليها بعد تفكير طويل، والتي سيتم تنفيذها الليلة، فقال:

- سنغادر أنا وأنجليك باريس هذه الليلة، سنستقر بقصرنا في بريتاني، أنا الآن أعتمد عليكم أنتم الثلاثة في مساعدتنا على السفر في هدوء تام، أنت يا دامبواز سوف تأتي بسيارتك لكي تقلنا إلى المحطة، وأنت يا موسي ستأتي

لتنقل متاعنا بمساعدة خادمي هايسنس، أما أنت يا كاروش فسوف تذهب إلى محطة أورليان لكي تحجز لنا التذاكر في عربة النوم في قطار الساعة العاشرة وأربعين دقيقة. هل الأمر واضح بالنسبة لكم الآن؟

مر اليوم دون أحداث جديدة، ولإحكام السرية التامة لم يخبر الدوق خادمه عن خبر رحيله، حتى تناول العشاء، وبعدها أخبره أن يصعد لتحضير الأمتعة، وأن يُعِد نفسه جيدًا للسفر معهم هو والخادمة الخاصة بأنجليك، وفي تمام العاشرة سمع الدوق صوت سيارة تقترب، ومن النافذة عرف أنها سيارة دامبواز؛ فقال لخادمه اذهب وأخبِره بأننا سنهبط على الفور أنا وأنجليك، وبعد مرور عشر دقائق وبعد خروج هايسنس من الغرفة، خرج الدوق هابطًا الدرج، وفي أثناء ذلك انقض عليه رجلان ملثمان قاما بتكميم فمه وتوثيق قيده جيدًا قبل أن يتمكن من إطلاق صيحة واحدة، قال أحد الرجلين بصوت خفيض:

- هذا هو التحذير الأول لك يا سيدي، فإن أصررت على مغادرة باريس والإعراض عن الزواج؛ فسيحدث ما لا يُحمَد عقباه.

قال نفس الشخص لرفيقه: اعتنِ به جيدًا ريثما أهتم بأمر الفتاة، في هذه اللحظة كان هناك رجلان آخران قد كمما الوصيفة وأنجليك التي فقدت وعيها وسقطت فوق كرسي كبير فور رؤية الرجلين، ولكنها استردت وعيها على الفور عندما اقترب منها الرجل ببعض الأملاح لتشمها، وحين فتحت عينيها رأت شابًّا طويلًا ووسيمًا يقف أمامها، قال لها بصوت هادئ:

- أرجو المعذرة يا آنستي، أعترف بأن تلك الحوادث المفاجئة عنيفة وغير تقليدية، ولكن أحيانًا تجبرنا الظروف على فعل ما يخالف ضمائرنا، ثم أمسك يدها بلطف شديد، ووضع خاتمًا كبيرًا من الذهب قائلًا:

- ها نحن مخطوبان الآن، أرجو ألا تنسي الرجل الذي وضع هذا الخاتم في إصبعكِ؛ فهو يتوسل إليكِ ألا تحاولي الفرار منه مرة أخرى، وأن تتذكريه وتبقي في باريس؛ لتشاهدي علامات إخلاصه وحبه، اطمئِني يا آنستي وأوليه ثقتك الكاملة ولن تندمي.

كان يقول هذا الكلام بنبرة عميقة وصوت هادئ ومؤثر، أسلوبه المهذب يجمع بين الثقة والاحترام؛ لدرجة أفقدتها القدرة على الرد، التقت أعينهم في صمت؛ فقال:

- ما أجمل هاتين العينين، ورقة نظرتهما! سأكون أسعد الناس لو قضيت باقي أيام حياتي وأنا أنظر لهاتين العينين الساحرتين، أغمضيهما الآن وارتاحي قليلًا يا آنستي.

ثم خرج وتبعه أعوانه الملثمون، ودارت أصوات السيارة مرة أخرى.

بقي القصر هادئًا حتى اللحظة التي استعادت فيها أنجليك قواها، وأخذت تنادي الخادمة وهايسنس، ولكن لم يستجِب أحد، تم إيجاد الدوق وهايسنس

والخادمة الخاصة بها مكممين ومقيدين بإحكام، بالإضافة إلى حارس البوابة وزوجته، كما تمت سرقة بعض التحف الثمينة، إلى جانب محفظة الدوق وجميع المجوهرات التي كانت بخزانته: دبابيس رابطات العنق الذهبية، وفصوص اللؤلؤ، وساعة من الألماس، وأشياء أخرى من هذا القبيل كانت بحجرته.

تم إخطار الشرطة على الفور، وفي صباح اليوم التالي تم إبلاغ الدوق بأنه أمس عندما كان السيد دامبواز في سيارته ذاهبًا إليه تم الاعتداء عليه من قِبَل سائقه الخاص، وطعنه بقسوة، ثم ألقاه في أحد الشوارع المقفرة على قارعة الطريق، كما ثبت بعد ذلك أن موسي وكاروش قد تلقيا مكالمتين زائفتين من الدوق يخبرهما بتأجيل خطته عن السفر، وأنه لا يستطيع مغادرة باريس في الوقت الحالي.

بعد مرور أسبوع على هذه الواقعة، ودون تتبُّع التحقيق أو مراعاة الرد على استدعاءات قاضي التحقيقات، وحتى دون المبالاة بالأخبار التي نشرها لوبين عن قصة هروبه من القصر، أخذ الدوق ابنته وخادميه وغادرا في قطار محطة (أومينبوس) إلى (فان)؛ حيث مكث في قصره الإقطاعي القديم الذي يطل على شبه جزيرة سارزو، وعلى الفور اجتمع مع خادمه وبعض القرويين التابعين له للعمل على تنفيذ خطة محكمة للدفاع والاستعداد اللازم في حال حدوث أي شيء، وفي اليوم الرابع من وصولهم حضر موسي وكاروش لزيارتهم، واليوم التالي جاء دامبواز، والذي لم تكن إصابته من الخطورة كما كانوا يخشون؛ فقد تعافى تمامًا في غضون بضعة أيام، انتظر الدوق مرور يومين آخرين قبل أن يعلن أمام عائلته وحاشيته أنه قد نجح في القضاء على خطط وآمال أرسين لوبين، وتمكن من الفرار، كان هناك شيء آخر ينوي إعلانه، فانتظر حضور أبناء إخوته الثلاثة، وعندما حضروا مجتمعين أعلن بأمر قطعي أمام الجميع، موجهًا كلامه لابنته أنجليك:

- تلك الأمور التي حدثت مؤخرًا سببت بي ألمًا شديدًا، فقد كابدت عناءً كثيرًا في مواجهة هذا الرجل، وقد قررت أن أنهي هذا الأمر نهائيًّا، وليس هناك سبيل إلى ذلك سوى بقبولكِ الزواج من أحد أبناء عمومتكِ الثلاثة، وبذلك تعفيني من هذه المسئولية الضخمة، فقبل مرور شهر من الآن لا بد أن تصيري زوجة لموسي، أو كاروش، أو دامبواز، لديكِ وقت للتفكير والاختيار كيفما شئتِ.

ظلت أنجليك تبكي وتتوسل إلى والدها بأن يعدل عن قراره لمدة أربعة أيام، ولكن دون جدوى، فكلما كانت تتوسل أكثر شعرت بأنه يزداد عندًا أكثر، ففي النهاية سيتوجب عليها الرضوخ لأوامره، قررت الاستسلام والموافقة بعد أن تمكن اليأس منها، قالت له:

- أيًّا كان ما تريده -يا أبي- فإني موافقة، أنا لا أميل إلى أيٍّ منهم، إذن فلا يهمني مَن الذي سيصير زوجي، إن كنت تُفضِّل واحدًا منهم عن الآخرين فإني أقبل.

أراد الدوق الضغط عليها لإجبارها على اختيار واحد بنفسها، ولكنها لم تخضع لذلك، وبعد أن سئم الجدال معها وقع اختياره على دامبواز؛ لأسباب تتعلق بالثروة، تم نشر الخبر على الفور، ومنذ ذلك الحين تضاعفت المراقبة حول القصر، خاصةً وأن صمت لوبين وانقطاعه عن نشر أخبار تخص قصة الزواج تسبب في زيادة قلق الدوق وزيادة حذره؛ فقد شعر بأن العدو يستعد لهجمة مفاجئة تُمكّنه من بلوغ أهدافه وتخريب الزواج ببعض الحيل التي يجيدها، ومع ذلك فلم يحدث شيء مما توقعه، لم يقع أي شيء خارج عن المألوف في اليوم السابق للزواج، ولا في صباح يوم الزواج، في الظهيرة تم توقيع العقد في الكنيسة، وانتهى كل شيء في سلام، حينئذٍ تنفس الدوق الصعداء؛ على الرغم من حزن ابنته، وصمْت صهره المحرج الذي لم ترُق له الظروف التي تم وضعه بها، راح يصفق في سعادة بادية كما لو أنه أحرز نصرًا باهرًا، ثم قال في فرح بصوت مرتفع:

- دعونا نخفض الجسر المتحرك ليدخل جميع الضيوف؛ فلم نعد نخشى شيئًا بعد الآن.

بعد تناوُل وليمة الغداء، كان يتجول بين القرويين؛ ليُوزّع عليهم النبيذ، شاركهم الغناء والرقص في سعادة بالغة، وفي حوالي الثالثة دلف إلى الصالة الكبيرة في الدور الأرضي، وعند حلول وقت قيلولته وصل إلى غرفة الحرس في نهاية الرواق الكبير، وما كاد أن يتجاوز عتبتها حتى توقف فجأة قائلًا:

- ماذا تفعل هنا يا دامبواز؟ هل هذه مزحة ما؟

كان دامبواز يقف بملابس الصيد يرتدي سترة ممزقة متسخة وكبيرة للغاية بالنسبة لحجمه، بدا الدوق مذهولًا وأخذ ينظر بدقة إلى هذا الوجه الذي يعرفه جيدًا بعيون داهشة، والذي أيقظ داخله ذكريات من ماضٍ بعيد، مشى في اتجاه إحدى النوافذ التي تطل على الحديقة، وصاح مناديًا:

- أنجليك!

- ما الأمر يا أبي؟

- أين زوجك؟

قالت أنجليك مشيرة إلى دامبواز الذي كان يدخن سيجارًا، ويقرأ جالسًا على أحد المقاعد الكبيرة تحت ظل الأشجار:

- إنه هنا يا أبي.

انتابته ارتجافة رعب، ثم خارت قواه، وجلس فوق أحد المقاعد، وهو يتمتم:

- ماذا يحدث بحق الجحيم؟! من الواضح أني جُنِنت!

انحنى الرجل الذي يرتدي زي الصيادين تجاهه، وهو يقول:

- انظر إليَّ جيدًا يا عمي، أنت تعرفني جيدًا، أليس كذلك؟ أنا ابن أخيك، الطفل

الصغير الذي اعتاد أن يلعب هنا معك، الذي طالما كنت تناديه (جاكو)، انظر هنا، ها هي الندبة التي كانت تميزني، أتتذكرها؟

تلعثم الدوق قائلًا:

- نعم.. نعم، إنك جاك، ولكن الآخر... ثم توقف عن الكلام، واضعًا رأسه بين كفَّي يديه، وقال:

- هذا مستحيل! أنا لا أفهم شيئًا! كيف حدث هذا؟!

عم صمت كئيب على الغرفة ذهب خلاله الوافد الجديد ليغلق النافذة والباب الذي كان يتصل بغرفة المعيشة المجاورة، ثم اقترب من الرجل العجوز، ووضع يده فوق كتفه محاولًا إيقاظه من آثار الصدمة، ودون مقدمات، وكأنه يختصر أي أسئلة قد تتبادر إلى ذهن عمه بدأ في سرد حكايته:

- أتتذكر جيدًا يا عمي عندما تركت فرنسا قبل خمسة عشر عامًا، عندما رفضت أنجليك عرضي للزواج منها، فتركت البلاد بأكملها محطم القلب ورحلت إلى المنفى التطوعي الذي فرضته على نفسي؛ حيث أقمت في أقصى جنوب الجزائر، فمنذ أربع سنوات؛ أي بعد مرور أحد عشر عامًا على رحيلي تعرفت -في أثناء رحلة صيد أقامها أحد الزعماء العرب- بشخص جريء كان في زيارة عمل إلى البلاد، جذبتني شخصيته المرحة وشجاعته وكرم أخلاقه، أقام الكونت أندريزي ستة أسابيع في ضيافتي، وبعد رحيله كنا على تواصُل مستمر، كنت أقرأ اسمه من حين إلى آخر في صفحات الجرائد بين رجال المجتمع المرموقين، كان من المقرر أن يعود قريبًا، وكنت أستعد لاستقباله منذ 3 أشهر، ولكن في إحدى الأمسيات بينما كنت أمتطي حصانًا وأتنزه ليلًا، انقض عليَّ الخادمان العربيان اللذان كانا يعملان في خدمتي، قيداني وعصبا عينَي وقاداني في طريق طويلة لمدة سبع ليالٍ في رحلة غريبة عبر طرق مهجورة، إلى أن وصلت خليج الساحل، كان ينتظرهم خمسة رجال أخذوني على الفور إلى داخل يخت بخاري، والذي أبحر فور صعودي، مَن هؤلاء الرجال؟ وما هدفهم من اختطافي؟ لا أعلم! ولم أتوصل إلى دليل واحد يمكن أن أعرف منه شيئًا، حبسوني في غرفة صغيرة بها نافذة ذات قضبان حديدية تطل على الماء، في كل صباح يُفتَح الباب وتمتد منه يد تضع لي رغيفًا أو رغيفين من الخبز وطبقًا من الطعام الوفير وقارورة من النبيذ، ويأخذ بقايا أكل اليوم السابق، كان اليخت يتوقف بين الحين والآخر في الليل، وكان بإمكاني سماع صوت الزورق الصغير وهو ينزل في الماء ويتجه نحو ميناء ما، ثم يعود مرة أخرى محملًا بالمؤن بلا شك، كان اليخت يسير في بطء وكأنه في رحلة بحرية لسائحين يتنزهون حول العالم دون وجهة محددة، كان بإمكاني رؤية أحد الشواطئ، ولكنها كانت بعيدة للغاية؛ فلم أتمكن من تحديدها، استمر الأمر لأسابيع، وفي صباح أحد الأيام حوالي التاسعة، وبعد أن وضعت لي اليد الخفية الطعام، لم يتم غلق الباب بالقفل؛ ففتحته ودلفت إلى الكابينة المجاورة، والتي كانت فارغة أيضًا، فتشتها جيدًا ولم أتمكن من إيجاد أي

شيء يساعدني سوى مبرد حاد صغير فوق طاولة الزينة، كانت فرحتي بالعثور عليه حينها أعظم من فرحتي بالعثور على كنز ثمين، وبعد أسبوعين من الصبر والعمل المستمر قمت ببرد قضبان النافذة، وكان بإمكاني الهرب، وعلى الرغم من مهارتي في السباحة؛ فإنه كان لا بد أن أضع في حسباني التعب والإنهاك الذي سأواجهه إذا تجرأت على السباحة لأميال طويلة، فكان عليَّ الانتظار حتى تحين اللحظة المناسبة؛ حيث يكون اليخت فيها قريبًا من أحد الشواطئ إلى حد ما، وكانت هذه اللحظة أمس فقط، بينما أنا جالس في موقعي رأيت الساحل على مرمى البصر، وحين الغروب تعرفت وأنا في قمة دهشتي على ظلال قصر سارزو بأبراجه المدببة، ولم أكف من وقتها عن التفكير؛ أكانت هذه نهاية رحلتي الغامضة؟!

أبحرنا طوال الليل وصباح اليوم، وعندما اقتربنا من مسافة رأيت أنها مناسبة، خاصةً وأننا كنا نبحر بين الصخور التي يمكنني السباحة خلفها بأمان، ولكن في نفس اللحظة التي كنت أوشِك على الفرار فيها- لاحظت أن الباب كان غير مغلق بالقفل مرة أخرى؛ فدخلت إلى داخل هذه الحجرة المجاورة ثانيةً، بالقرب من الباب وجدت دولابًا صغيرًا، وعندما فتحته وجدت حزمة من الأوراق وقصاصات الصحف؛ فعزمت على قراءتها بدافع الفضول، وجدت مجموعة من الرسائل التي تحتوي على تعليمات موجهة إلى القراصنة الذين يقودون اليخت؛ فأدركت سر اختطافي، وعلمت بأحداث المؤامرة الخطيرة التي تدور منذ فترة طويلة للاحتيال على الدوق دي فاندوم وابنته، الوسائل المستخدمة والاتصالات والتخطيط الكامل للقضية بأكملها، ولسوء الحظ فقد أدركت كل هذا بعد فوات الأوان، اضطررت إلى الهبوط في الماء مختفيًا وراء إحدى الشعاب المرجانية؛ حتى لا يراني أحد من اليخت، سبحت كثيرًا ولم أصل إلى الشاطئ حتى ظهر اليوم، لجأت إلى كوخ أحد الصيادين، واستبدلت ثيابي المبللة المهترئة بهذه الثياب التي تكرم الصياد وأعطاني إياها بإشفاق ولطف، وصلت إلى هنا في حوالي الثالثة، ولم أكد أصل حتى علمت بنبأ الزواج الذي تم في صباح اليوم خصيصًا.

في أثناء ذلك الحديث كان الدوق يستمع مندهشًا، عيناه تحملق في وجه ابن أخيه دون أن ينطق كلمة، يستمع في فزع متزايد كلما تطورت الأحداث، في بعض الأحيان كانت تعود إليه ذكرى التحذيرات التي وجهها له رئيس الشرطة «إنه يطهو صيده الثمين فوق نار هادئة». ثم قال بصوت أجوف:

- أكمِلْ قصتك؛ فلم أفهم المغزى وراء كل ذلك بعد.

عاود الشاب حديثه قائلًا:

- يؤسفني -يا عمي- أن أبلغك أن الهدف من القصة واضح للغاية، ولا يحتاج إلى مزيد من الشرح؛ ففي أثناء إقامة الكونت دندريزي عندي عرف مني تفاصيل حياتي القديمة التي ذكرتها أمامه في بلاهة؛ أنني ابن أخيك، وأنني قد غادرت باريس منذ زمن بعيد، وأن آخر لقاء بيننا كان منذ ما يقارب خمسة عشر

عامًا حين طلبت يد ابنتك أنجليك، وأنها رفضت طلبي، وحينها قررت المغادرة ناويًا على قطع كل صلة وذكرى بالماضي، ولم نتبادل حتى الرسائل فيما بيننا، بالإضافة لوجود ثمة تشابُه بيني وبين دندريزي في الهيئة والجسد، استغله هذا الأخير جيدًا في خطته، وبناءً على هذه الأسس الثلاثة؛ وضع داندريزي خطته الجهنمية، قام برشوة الخادمين العربيين، واللذين كان عليهما تحذيره في حال نويت أن أغادر الجزائر، ثم عاد هو إلى باريس باسمي ومظهري تمامًا، أعاد العلاقة الجيدة معك مرة أخرى، وكان يتردد على قصرك كل أسبوعين ليتناول الغداء والعشاء على مائدتك، لقد عاش حياة كاملة متخفيًا تحت اسمي الذي أصبح واحدًا من أسمائه المتعددة التي يخفي بها شخصيته الحقيقية، وقبل ثلاثة أشهر بدأ في تنفيذ خطته تجاهك؛ كما قال في رسائله، بدأ بسلسلة من المقالات الصحفية وبرقيات الزفاف، ولم يغفل أن يضع في حسبانه أنه ربما تصل هذه الأخبار إلى الصحافة الجزائرية، فأقرأها وأدرك الدور الذي يلعبه في باريس؛ فعمد في هذا الوقت تمامًا إلى رشوة أعوانه ليقوموا باختطافي والطواف بي في البحر داخل باخرة ما؛ حتى يتم تنفيذ خطته بأكملها دون أن أدرك شيئًا، فالقصة -كما قلت لك يا عمي- واضحة ومحكمة للغاية.

هزت رعشة عصبية الدوق دي فاندوم؛ لقد أدرك الحقيقة المروعة بأكملها، والتي رفض أن يفتح عينيه عليها؛ فأمسك بيد محاوره في فظاظة، وقال بلهجة بائسة:

- إنه لوبين، أليس كذلك؟

- بلى.

- هو الذي تزوج ابنتي؟!

- نعم يا عمي، هو مَن سرق اسمي جاك دامبواز، وهو الذي سرق ابنتك أنجليك، فهي الآن الزوجة الشرعية لأرسين لوبين؛ وفقًا لرغبتك، لقد قرأت رسالة بخط يده يقول فيها إنه استطاع أن يزلزل حياتك ويقلبها رأسًا على عقب، نجح في محاصرة أفكارك وإثارة الخوف والفزع في نفسك؛ حتى أرغمك على الفرار إلى هنا؛ ظنًّا منك أنك ستكون بمأمن بعيدًا عن ألاعيبه لإجبار ابنتك على الزواج من أحد أبناء أعمامها.

- لكن لماذا اختارت أنجليك دامبواز دون الآخرين؟

- أنسيت أنك أنت من اخترته يا عمي؟ أنت بنفسك وليست أنجليك.

- اخترته مصادفةً؛ لقد ظننت انه الأنسب والأكثر ثراءً.

- كلا ليست مصادفة، إنها نصيحة خبيثة قدَّمها لك خادمك المخلص هايسنس.

هَمَّ الدوق ناهضًا وهو يصيح:

- ماذا؟ هل هايسنس متواطئ معه أيضًا؟ هل أصبح الآن أحد أتباعه؟

- متواطئ مع أرسين لوبين؟ كلا، ولكن مع دامبواز المزعوم، الرجل الذي يعتقد أنه ابن أخيك الحقيقي، والذي وعده بدفع مئة ألف فرنك بعد ثمانية أيام من الزفاف.

- آه! يا للمحتال! لقد دبر وأعد كل شيء بدقة.

- بالفعل، لقد كان كل شيء مدبرًا بإتقان، حتى حادث الاعتداء عليه؛ لكي يثبت بأنه أُصِيب بطلق ناري في سبيلك، وبذلك يتمكن من إبعاد الشكوك عنه نهائيًّا.

- ولكن ما الهدف من كل هذه المؤامرة الدنيئة بأكملها؟

- أن ابنتك أنجليك تمتلك أحد عشر مليون فرنك يا عمي، ومن المقرر أن يتم تسليم هذه الأسهم من المحامي الخاص بك في باريس إلى زوجها المزعوم دامبواز، والذي ما إن يتسلمها حتى يختفي تمامًا، بالإضافة إلى الأسهم التي أصبحت بحوزته اليوم، هل نسيت بأنك أعطيته خمسين ألف فرنك هدية الزواج؟ سيسلمها الليلة إلى أحد أعوانه في تمام التاسعة، والذي سيقابله جوار شجرة البلوط الكبيرة خارج القصر؛ حيث سيأخذها إلى بروكسل ويبيعها هناك.

صاح الدوق سارزو في انفعال:

- الليلة في التاسعة؟ سوف نرى، سأخبر رجال الشرطة.

- أرسين لوبين لا يأبه كثيرًا برجال الشرطة.

- سوف أرسل برقيات تلغرافية للسلطات المسئولة بباريس.

- وماذا إذن؟ ستخسر الخمسين ألف فرنك، بالإضافة إلى الفضيحة المدوية بعد ذلك، فكِّرْ جيدًا يا عمي، فكِّرْ في ابنتك أنجليك زوجة هذا اللص، لا ينبغي التسرع بإبلاغ الشرطة، علينا التوصل إلى حل آخر.

- ما الحل إذن؟

- الحل!

سار الشاب إلى أحد أركان الغرفة باتجاه رف مثبت إلى الحائط؛ حيث كانت هناك أسلحة من جميع الأنواع معلقة فوقه، تناول بندقية صيد، ووضعها فوق المائدة أمام عمه، قائلًا:

- لقد اعتدنا في مراكش عندما نجد أنفسنا أمام أحد الوحوش البرية الخطيرة وسط الصحراء القاحلة، أن نواجهه فورًا دون الانتظار لإخبار الشرطة، نأخذ أسلحتنا ونصوب ناحيته على الفور، نطرحه صريعًا قبل أن ينقض علينا بمخالبه المتوحشة.

- ماذا تعني؟

- أقول إنني اعتدت التعامل دون اللجوء لرجال الشرطة، توجد طريقة واحدة لتحقيق العدالة، والتي قد تبدو لك بدائية بعض الشيء، ولكنها خير وسيلة يمكن أن نلجأ إليها في موقفنا هذا، نقتل هذا الوغد، وليس علينا سوى إخفاء جثته في سرية تامة، في مكان لا يعرفه سوانا.

- وأنجليك؟

- سنخبرها فيما بعد.

- ولكن ماذا سيكون مصيرها؟

- ستبقى كما هي؛ فهي في نظر القانون زوجتي، زوجة دامبواز الحقيقي، وغدًا بعد إنجاز الأمر سأتخلى عن كل شيء، وأعود إلى الجزائر، وبعد شهرين سأرسل إليها أوراق الطلاق.

أصغى الدوق إلى حديث ابن أخيه شاحبًا جاحظ العينين، ثم تمتم:

- هل أنت متأكد من أن أعوانه القراصنة لم يخطروه بهروبك بعد؟

- ليس قبل الغد.

- إذن...

- في تمام التاسعة مساءً سيذهب أرسين لوبين لمقابلة شريكه الذي سيعطيه الأسهم، ولكي يصل إلى شجرة البلوط الكبيرة؛ عليه أن يمر بالطريق المظلمة جوار أسوار الكنيسة القديمة؛ لذا لا بد أن أكون هناك حينها.

قال الدوق سارزو فاندوم وهو يحمل بندقيته في حماس:

- سأكون معك أيضًا.

دقت الساعة الخامسة، وما زال الدوق يتحدث مع ابن أخيه، يخططان لما سيحدث، ويتأكدان من فحص البنادق، وبمجرد غروب الشمس، رافق الشاب إلى الحديقة عبر ممرات مظلمة، وخبأه في حجرة الخزين القديمة، والتي لا يدخلها أحد مطلقًا، مرت فترة المساء دون وقوع أي أحداث.

أثناء العشاء حاول الدوق السيطرة على أفكاره وانفعالاته، والتزام الهدوء والصمت قدر المستطاع، وبين الحين والآخر كان يلقي نظرة سريعة على صهره، ويعجب من التشابه بينه وبين ابن أخيه الحقيقي دامبواز! كان له نفس لون البشرة واستدارة الوجه، وقام بنفس تصفيفة الشعر، ولكن نظرة عينيه كانت مختلفة، كانت أكثر حدة وأكثر تألقًا، تدريجيًّا لاحظ الدوق نقاط الاختلاف بين الوجهين، والتي ما كان ليلحظها أبدًا، بعد العشاء كانت الساعة تشير إلى الثامنة تقريبًا، ذهب الدوق إلى غرفته، ثم تسلل في الظلام، وذهب إلى ابن أخيه في الغرفة القديمة بالحديقة، هَمَّا بالخروج من القصر إلى الطريق

المظلمة، يحملان البنادق فوق أذرعهما، يملؤهما الحقد والاستعداد للانتقام، خلال هذا الوقت انتقلت أنجليك برفقة زوجها إلى الطابق الأول؛ حيث غرفتها الموجودة في الجناح الأيسر، وعندما بلغا عتبة الباب قال لها زوجها:

- سأتنزه قليلًا في الحديقة يا أنجليك، هل سأجدكِ في انتظاري عندما أعود؟

- بالتأكيد.

تركها وصعد إلى الغرفة المخصصة له في الطابق العلوي، وما كاد يخلو إلى نفسه حتى أغلق الباب من خلفه، وفتح النافذة التي تطل على الحقول الشاسعة، انحنى إلى الأمام فرأى على بعد أربعين مترًا تحته ظلًّا لرجل يمشي في الخفاء، أطلق صافرة خافتة؛ فبادله الشبح بصفير آخر، ثم ذهب إلى الخزنة، وأخرج حقيبة كبيرة مليئة بالأوراق، لفها بقطعة كبيرة من القماش الأسود، وربطها جيدًا، ثم جلس فوق الطاولة يكتب رسالة:

«يسرني بأنك تسلمت رسالتي؛ لأنني كنت مترددًا في الخروج من القصر بهذه الحقيبة التي تحتوي على المستندات، فها هي الآن معك، ستصل عن طريق دراجتك البخارية إلى باريس، ثم تأخذ قطار الصباح إلى بروكسل، وحينما تصل، عليك تسليم الحقيبة إلى (ز)؛ فهو يعرف تمامًا ما يتوجب عليه فعله معها.

ملحوظة: أبلِغ الرفيق الذي ينتظر عند شجرة البلوط هناك بأني سأوافيه بعد دقائق؛ فلديَّ بعض الأمور التي يجب أن أبلغه بها، اطمئِن؛ فكل شيء يسير على ما يُرام، ولا يرتاب أحد في شيء».

أرفق الرسالة بحزمة الأوراق وأنزلها من خلال النافذة بواسطة خيط من الدوبارة، ثم تمتم لنفسه:

- جيد جدًّا، أنا بأمان الآن.

قضى في الغرفة بضع دقائق أخرى متجولًا، يتفحص بعض الصور المعلقة فوق الجدران لرجال نبلاء، ثم تهكم قائلًا:

- مرحبًا هوارس دي سارزو فاندوم مارشال فرنسا، ياه، ها أنت هنا أيضًا الدوق كونديه العظيم، أحييكم يا أصدقائي الأعزاء، أتشرف أنا لوبين سارزو دي فاندوم بالانضمام إليكم.

وعندما حان وقت رحيله، أخذ قبعته وهبط الدرج، ولكنه وجد أنجليك وقد خرجت من غرفتها تقف في الردهة، تبدو عليها الحيرة الشديدة، ثم قالت له:

- من فضلك، أعتقد أنه من الأفضل...

ودون أنا تكمل جملتها عادت إلى الغرفة على الفور مرة أخرى، تاركة لوبين خلفها في حالة ذهول، لا يدري ما كان هذا! وماذا يتوجب عليه فعله؟!

تمتم لنفسه:

- ماذا دهاها؟ مسكينة هذه الفتاة، لا يناسبها الزواج أبدًا.

أشعل سيجارًا وهو يفكر في هذه المحادثة العابرة التي أثارت فضوله إلى حد ما، غمغم يقول:

- لا بد أن ينتهي هذا الأمر بالطلاق لا محالة.

أرخى الليل سدوله خارج القصر، كانت السماء ملبدة بالغيوم، والجو قارس البرودة، أغلق الخدم مصاريع القصر، ولم يكن هناك ضوء من وراء النوافذ؛ فقد اعتاد الدوق الخلود إلى الفراش بعد العشاء مباشرةً، مَرَّ من أمام غرفة البواب ليعبر الجسر المتحرك، فقال للحارس:

- أبقِ الباب مفتوحًا؛ سوف أقوم بنزهة صغيرة وأعود على الفور.

مَرَّ جانب أسوار القصر جهة اليمين، ثم دلف إلى اليسار؛ حيث الطريق المظلمة المؤدية إلى أسوار الكنيسة القديمة، كان يسير وسط الغابة المظلمة محاطًا بالأشجار الكثيفة، فغمغم قائلًا:

- يا له من مكان مناسب لتنفيذ كمين ما!

توقف عندما سمع بعض الأصوات بالقرب منه، ثم أدرك أنه حفيف أوراق الشجر، وأتبعه صوت سقوط حجر ضخم من فوق المنحدرات، ومع ذلك لم يخالج الخوف نفسه مطلقًا، بدأ في المشي مرة أخرى يلفحه هواء البحر المتدفق من ساحل شبه الجزيرة؛ فامتلأت رئتاه بالانتعاش والسعادة، غمغم قائلًا:

- ما أجمل أن أحيا هكذا! شاب فاحش الثراء، وفي المستقبل عجوز من النبلاء، لوبين سارزو فاندوم، يا له من اسم فخم!

وعلى مقربة منه رأى ظلال الكنيسة تمددت فوق الغابة كثيفة الأشجار، ولعدة دقائق بدأت قطرات المطر في التساقط، من بعيد سمع دقات الساعة التاسعة، أسرع الخطى بعض الشيء، ثم توقف فجأة! لقد أمسك شخص ما بيده، حاول سحب يده، ولكن خرج شخص ما من خلف الأشجار التي كان يقف جانبها، قائلًا:

- التزِم الصمت، لا تنطق كلمة واحدة.

رأى وجه زوجته أنجليك في ظلال الأشجار، فقال لها:

- ماذا هناك؟

تمتمت بصوت منخفض بالكاد سمعه:

- إنهم يراقبونك، هناك خلف السور، مسلحين بالبنادق.

- مَن هم؟

- صه! أنصِتْ!

وقفا لحظة يسترقان السمع، حتى قالت:

- إنهم لا يتحركون؛ ربما لم يسمعوني وما زالوا منتظرين، هيا نعود.

- ولكن...

- اتبعني من فضلك.

كانت تتحدث بلهجة آمرة شديدة الجدية؛ لدرجة أنه لم يستطِع سوى أن يطيعها ويمتثل لها دون المزيد من الكلام، كانت تشعر بالخوف؛ فقالت في صوت منخفض متوتر:

- علينا الإسراع، إنهم قادمون خلفنا، أنا متأكدة.

كان هناك صوت أقدام بالفعل تأتي خلفهم، قادته من يده إلى طريق مختصرة وسط الأشجار كانت تعرفها جيدًا، حتى بلغا الجسر المتحرك، تأبطت ذراعه حين استقبلهما الحارس، عبروا الفناء الكبير للحديقة ودخلوا القصر، قادته إلى الجانب الأيسر؛ حيث كانت حجرتها، قائلة:

- اتبعني.

- إلى غرفتكِ؟

- نعم.

حين دلفا إلى الحجرة كانت هناك خادمتان تنتظران بأمر من سيدتهما، صرفتهما حين عادت، فعادتا إلى الغرفة المخصصة لهما في الطابق الثالث، وما إن أغلقت الباب خلفهما وذهبت في طريق المخدع، حتى سمعت صوت طرقات على الباب مرة أخرى، ثم صوت من خلف الباب ينادي:

- أنجليك!

ردت وهي تحاول إخفاء انفعالها:

- أهذا أنت يا أبي؟

- نعم، هل زوجك بالداخل؟

- نعم، لقد عدنا للتو من نزهة بالخارج.

- أخبريه بأنني أريد التحدث معه قليلًا، فليأتِ إلى غرفتي.

- حسنًا، سأبلغه على الفور.

أصغت السمع لمدة ثوانٍ خلف الباب، ثم عادت إلى المخدع؛ حيث كان زوجها يقف، وقالت له:

- أنا متيقنة أن أبي ما زال واقفًا وراء الباب.

- إنه يريد محادثتي، في هذه الحالة عليَّ...

- إنه ليس بمفرده. (قاطعته وهي تسد طريقه للذهاب).

- مَن معه؟

- ابن أخيه، جاك دامبواز.

ساد صمت عميق في الغرفة، نظر إلى عينيها، ولم يفهم سلوكها الغريب؛ فقال ساخرًا محاولًا تجنُّب الكثير من الاستفسارات:

- إذن فقد عاد دامبواز مرة أخرى، لقد انكشف الأمر برمته إذن.

- أبي يعرف كل شيء بالفعل، لقد سمعت محادثتهما في الصباح، لقد قرأ ابن عمي الرسائل كلها، في البداية كنت مترددة من إبلاغك، ثم فكرت في واجبي تجاهك.

نظر إليها في اندهاش واضح، ثم استأنف حديثه مرة أخرى:

- كيف حدث هذا؟! ألم يخفِ أصدقائي على القارب كل رسائلي كما أوصيتهم؟! لقد أمرتهم بحرقها فور قراءتها، بالإضافة إلى أنهم تركوا أسيري يهرب، يا لهم من حمقى! هل عليَّ أن أفعل كل شيء بنفسي؟ لا يهم، فالأمر فكاهي بعض الشيء، أليس كذلك؟ دامبواز في مواجهة دامبواز، ولكن ماذا لو اختلط الأمر على أبيك، ولم يعد يعرف الأصل من الزيف؟

اتجه نحو طاولة الزينة، ثم أمسك بمنشفة، وبللها بالماء والصابون، وفي لمح البصر مسح وجهه، وأزال كل آثار المكياج والتنكر، ثم أمسك بالمشط، وصفف شعره بطريقته الأصلية، ظهر أمام أنجليك تمامًا مثل المرة الأولى التي رأته فيها ليلة السطو، حين ألبسها الخاتم الذهبي، قال لها:

- أترين؟ هذا أفضل؛ حتى لا أربك حمايَ العزيز.

قالت وهي تقف أمامه في ثبات؛ لتمنعه من الخروج:

- إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟

- سأنضم إلى هؤلاء السادة بالخارج.

- لن تذهب.

- لماذا؟

- ماذا لو قتلوك؟

- قتلوني؟!

- هذا ما يريدونه تمامًا، قتلك وإخفاء جثتك في مكان ما بالغابة؛ حيث لا يعلم أحد أبدًا.

فأجاب في لا مبالاة:

- من الممكن أن يكون هذا الفعل الوحيد الصحيح من وجهة نظرهم، ولكن ما جدوى عدم ذهابي؟ فلو لم أذهب الآن سوف يأتون إلى هنا ويقتلوني أيضًا، لا يوجد شيء يمنعهم؛ فالأفضل أن أذهب إليهم بنفسي.

قالت له بنبرة آمرة:

- تعالَ خلفي.

تناولت شمعدانًا صغيرًا من فوق المنضدة، ودلفت إلى حجرة الملابس، دفعت باب الخزانة جانبًا؛ فتحرك على عجلات خفية، ثم أزاحت ستارًا ثقيلًا، وقالت له:

- هذا المخرج لم يتم استعماله منذ زمن طويل، يعتقد والدي أن مفتاحه قد ضاع، ها هو المفتاح، سيقودك درج إلى أسفل، ثم إلى باب صغير يؤدي إلى خارج القصر، كل ما عليك فعله هو فتح الباب السفلي بالمفتاح، وستكون حرًّا في غضون ثوانٍ.

ذُهِل لوبين، وفهم سر سلوكها الغريب، شعر أمام هذه المخلوقة الرقيقة الحزينة ذات الوجه الملائكي بمدى حقارته، داخله شعور قوي بالندم؛ فتمتم قائلًا:

- لماذا تنقذينني؟

- لأنك زوجي.

صاح بجرأة:

- كلا، لقد سرقت الاسم الذي تقدمت به لخطبتك ليس إلا، لن يعترف القانون بمثل هذا الزواج القائم على الغش والخداع.

قالت في صوت رقيق:

- أبي لا يريد الفضيحة لي وللأسرة.

- نعم، لقد فكرت في كل هذا، ولهذا قررت أن أحضر دامبواز الحقيقي إلى هنا؛ ليكون جانبك عند مغادرتي؛ فهو زوجك أمام العلن.

- لقد تزوجتك أنت أمام الكنيسة.

- الكنيسة! توجد العديد من الوسائل لتصحيح الوضع، من السهل إلغاء الزواج بأكمله.

- بأي مبرر؟

ساد صمت كثيف، فلم يفكر في تلك الأشياء التي لم تكن ذات أهمية بالنسبة له، أما بالنسبة لها، فهي أمور خطيرة للغاية، فهي تمثل مستقبلها بأكمله.

قال بصوت يجتاحه الحزن والندم:

- إنه خطئي، كان عليَّ أن أضع هذا الأمر في الحسبان.

طرأت فكرة ما في ذهنه؛ فصفق كفَّيه في حماس، قائلًا:

- نعم، تذكرت، لديَّ صداقة قوية تربطني بأحد الشخصيات الهامة في الفاتيكان، سأسأله أن يتوسط من أجلي إلى البابا ليمنحني تصريح الطلاق، فهو لن يرفض لي طلبًا.

كانت خطته سخيفة وحماسته ساذجة بعض الشيء، فلم تستطِع أنجليك سوى الابتسام، قائلة:

- أنا زوجتك أمام الله.

كانت تنظر إليه نظرة لا تنم عن الازدراء ولا الاستياء، نظرة هادئة ودودة، أدرك بأنها تخطت اعتباره كونه نصابًا فاسقًا، ولا تفكر به فعلًا إلا كونه زوجها أمام الله، زوجها الذي ربطها الكاهن به حتى ساعة الموت، اقترب منها ونظر إلى عينيها نظرة عميقة غارقة بالندم والاعتذار، لم تخفض عينيها، ولكن احمر وجهها خجلًا، لم يسبق له أن رأى وجهًا مُشبَّعًا بالطمأنينة والسلام والجاذبية الغامضة هكذا من قبل، فتذكَّر ما قاله لها في أول ليلة بباريس عن جمال عينيها الحزينتين الرقيقتين، خفضت رأسها برقة، وتمتمت بصوت منخفض:

- هيا، اذهب، اذهب بعيدًا عن هنا.

وفي محاولة إخفاء ارتباكها، أدرك لوبين سر مشاعرها الغامضة التي تقودها لهذا التصرف، والتي ربما تجهل حقيقتها في نفس الوقت أيضًا، أليست هذه اللحظة وهذه الظروف العجيبة تجعلها ترى فيه بطلًا أشبه بيايرون، ذلك اللص الأسطوري الرومانسي؟ فهو المغامر الشهير الذي يتحاكى الناس بقصصه، البطل الشجاع الذي اشتهر بجرأته ووسامته، وجدته ذات يوم في غرفة نومها يضع في إصبعها خاتم الخطوبة بطريقة رومانسية؛ كتلك التي قرأتها من قبل في رواية القرصان وهرناني([23])، تأثر بمشاعرها العاطفية الرقيقة تجاهه، وشعر بالحنان والشفقة يغزوان قلبه، أوشك أن يستسلم لهذا الشعور بأن يصيح قائلًا: هيا نذهب معًا، أنتِ زوجتي أمام الله، لترافقيني في مخاطري، وتشاركيني في أفراحي وأحزاني، على الرغم من أنه زواج غريب وغير تقليدي؛ فإنه يستحق الفرصة، وعندما رفعت أنجليك عينيها إليه مرة أخرى، رأى بهما من البراءة والوداعة ما منعه من الكلام، لم تكن هذه امرأة من الممكن أن تنجرف وراء هذا الكلام الذي سيبدو لها زائفًا بلا معنى، فلم يقوَ إلا على أن يتمتم:

- سامحيني! لقد قمت بالكثير من الأفعال السيئة بحقك، سوف أحيا دائمًا لأتذكر كل هذا بمرارة.

ولكنها أجابته برفق ورقة:

- كلا، بالعكس، لقد أرشدتني إلى الطريق الصحيح.

كان على وشك الاستفسار عن معنى كلامها عندما فتحت الباب لتحثه على الإسراع بالنزول، لم يبقَ شيء للتحدث بشأنه، لم ينبس ببنت شفة، انحنى ليحييها ويُقبِّل يدها، ثم هبط الدرج.

بعد مرور شهر تمامًا، أعلنت أنجليك دي سارزو فاندوم أميرة بوربون دي كونديه والزوجة الشرعية لأرسين لوبين انضمامها إلى دير الراهبات الدومنيكيات تحت اسم (ماري أوجست)، وفي يوم الاحتفال بانضمامها إلى الدير تلقت رئيسة الدير مظروفًا ضخمًا يحتوي داخله على خمسين ورقة مالية كلٍّ منها بقيمة ألف فرنك، كانت الرسالة تقول ببساطة:

«إلى الفقراء الذين ترعاهم الأخت ماري أوجست.

توقيع: أرسين لوبين».

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــــاة

فهرس المحتويات..

الملاحظات

[←1]

(1) ماكفارلين: هو معطف فضفاض بلا أكمام، مع رأس على الكتفين أو ياقة كبيرة. تم اختراع (Macfarlane) في القرن التاسع عشر، ويُفترَض أن يكون في عام 1859 على يد أسكتلندي يُدعَى (Macfarlane). إنه نادر جدًّا اليوم، لكن لا يزال بإمكاننا رؤيته في بعض أفلام الغرب.

[←2]

(2) مونت كارلو: تُعَد مونت كارلو واحدة من أهم وأفخم المنتجعات السياحية العالمية، وتشتهر مونت كارلو بكازينوهاتها الشهيرة، كما تُعرَف بالمقامرة، وكذلك بالحياة المترفة، وتوافُد الأثرياء والمشاهير إليها من أماكن مختلفة حول العالم.

[←3]

(3) الساعة الشمسية أو المؤشر الشمسي: عبارة عن أداة صامتة لا تتحرك، تشير إلى الوقت الشمسي؛ من خلال حركة ظل جسم متغير الشكل على سطح قرص دائري بواسطة مجموعة من التدرجات المرسومة على هذا القرص، تُعَد الساعة الشمسية من أول الأشياء التي يستخدمها الإنسان لقياس مرور الوقت، كما تم العثور على أقدم المؤشرات الشمسية المعروفة في مصر.

[←4]

(4) خشب الماهوجني (Mahogany): خشب صلب زخرفي مشهور، لونه بني مائل إلى الأحمر، ويُستخدَم في صنع الأثاث؛ كألواح أو قشرة، ويُستعمَل بكثرة في صنع القوارب.

[←5]

(5) قماش الكريتون: هو قماش ذات رسومات، يُصنَع عادةً من القطن والأنسجة الكتانية، يقال أحيانًا إن الكلمة مشتقة من (كريتون)، وهي قرية في نورماند؛ حيث تم تصنيع الكتان.

[←6]

(6) أندريه ماري شينييه: شاعر فرنسي من أصل يوناني، ارتبط بأحداث الثورة الفرنسية التي كان ضحية لها.

[←7]

(7) بنجامين فرانكلين: هو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، كان كاتبًا وفيلسوفًا سياسيًّا، ورجل فكاهة وناشطًا مدنيًّا، ورجل دولة، ودبلوماسيًّا. وكونه عالمًا؛ كان شخصية بارزة في التنوير الأمريكي وفي تاريخ الفيزياء؛ بسبب اكتشافاته ونظرياته في الكهرباء.

[←8]

(8) أونوريه دي بلزاك: هو كاتب فرنسي وروائي من رواد الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، في الفترة التي أعقبت سقوط نابليون، وهو كاتب مسرحي، وناقد أدبي، وكاتب مقالة، وصحفي.

[←9]

(9) جبن غروبير: هي جبنة سويسرية صفراء، تُصنَع على شكل أقراص دائرية صلبة، ولها مذاق حلو، ولكن مالح قليلًا.

[←10]

(10) التقويم الجمهوري أو التقويم الجمهوري الفرنسي: هو التقويم الذي اعتُمِد خلال الثورة الفرنسية، واستُخدِم خلال الفترة من 1792 إلى 1806.

[←11]

(11) كيوبيد: في الأساطير الرومانية هو الإله أو الرب الروماني للحُبِّ، وهو ابن أفروديت إلهة الحب والجمال عند الرومان، ويُمثَّل كيوبيد في الآثار الفنيَّة غالبًا على شكل صبي صغير بجناحين وعينين معصوبتين، ويحمل قوسًا ونشابًا.

[←12]

(12) ثقالة الورق: مادة صلبة صغيرة تُوضَع على الأوراق؛ لمنعها من التطاير بسبب الهواء.

[←13]

(13) الأستراخان: هو فراء مجعد لخروف الضأن، كان هذا الفراء ينتقل عن طريق مدينة أستراخان في روسيا، وهو مطلوب جدًّا في المصنوعات ذات الجودة العالية؛ لصنع القبعات، والمعاطف، وغيرها.

[←14]

(14) جسر نُف: أو بون نوف، ويعني (الجسر الجديد)، وعلى الرغم من اسمه، فإنه أقدم الجسور الموجودة في باريس، يعبر نهر السين إلى الطرف الغربي من إيل دو لا سيتي أو جزيرة المدينة.

[←15]

(15) المونوكل (Monocle) أو النظارة المفردة: هي عدسة مفردة تُستخدَم لتحسين النظر؛ حيث تتكون من عدسة بإطار، أو دون إطار متصلة بسلسلة.

[←16]

(16) فولي بيرجير: وهي قاعة كباريه موسيقية تُوجَد في مدينة باريس عاصمة فرنسا، بُنِيت في سنة 1869، وهي واحدة من أشهر القاعات في العالم، والتي تُقدِّم الموسيقى والرقص.7(1

[←17]

(17) التَنُّوب: الاسم الشائع الذي يُطلَق على نحو (50) نوعًا من الأشجار دائمة الخضرة التي تنتمي إلى الفصيلة الصنوبرية. وتنمو أشجار التَنُّوب في النصف الشمالي للكرة الأرضية، وتُوجَد أنواع كثيرة منها في المناطق الرَّطبة النَّدية على امتداد السواحل البحرية أو منحدرات الجبال.

[←18]

(18) نسيج بايو: هو أثر نفيس صُنِع من الكتان بطول (231) قدمًا (حوالي 6 مترًا)، وبعرض (20) بوصة (50 سنتيمترًا)، وقد تحول لونه للبني الفاتح مع الزمن، وتم تطريزه بالإبرة على أقمشة صوفية من ثمانية ألوان، وبها مشاهد تُمثِّل غزو إنجلترا من قِبَل النورمان.

[←19]

(19) إديث سوان: زوجة الملك هارولد جدوينسن آخر ملوك إنجلترا من الأنجلوسكسونيين قبل الغزو النورماندي لإنجلترا وبدء الأسرة الحاكمة الحالية بدايةً من وليم الفاتح، كانت إديث من أثرى أثرياء إنجلترا في هذا الوقت، وكانت امرأة شديدة الجمال (كما هو واضح من ألقابها: الجميلة- البجعة الرقيقة- جميلة العنق)، عندما تحرك وليم الفاتح شمالًا من نورماندي لغزو إنجلترا، التقى بجيش الملك هارولد في موقعة هاستينجر، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة لهارولد وجيشه، وقُتِل فيها الملك هارولد بوحشية لدرجة أن أحدًا لم يتمكن من تعرُّف جثته. إديث قررت أن تنزل بنفسها أرض المعركة تفتش بين الجثث عن زوجها، وتعرفته فعلًا؛ عن طريق علامات معينة على صدره معروفة لها هي فقط، وتم تسليم الجثمان لرهبان كنيسة وليام؛ حيث تم دفنه حسب الطقوس المسيحية.

[←20]

(20) ليل: هي مدينة فرنسية تقع في أقصى شمال البلاد، تُعَد محافظة الإقليم الشمالي لفرنسا، وعاصمة منطقة أوت دو فرانس. وتُعَد مدينة ليل مركزًا لصناعة النسيج، وصناعات أخرى، وتشمل إنتاج السيارات، والأجهزة الإلكترونية.

[←21]

(21) عقيدة الثالوث في المسيحية: أن الله هو إله واحد، لكن في ثلاثة أشخاص أو أقانيم: الآب، والابن (يسوع)، والروح القدس؛ أي أن “الله واحد في ثلاثة أقانيم إلهية».

[←22]

(22) هنري كونت تشـامبورد: كان ملكًا فرنسـيًّا، وهو حفيد شـارل العاشـر ملك فرنسـا.

[←23]

(23) مسرحية هرناني: هي مسرحية للكاتب الرومانسي الفرنسي فيكتور هوجو، أداها ونُشِرت لأول مرة في عام 1830، يعود أصل العنوان إلى (هرناني)، وهي بلدة إسبانية في إقليم الباسك الجنوبي، تدور أحداث القصة في إسبانيا في القرن السادس عشر، وتُمجِّد البطل الرومانسي في صورة شخص نبيل خارج عن القانون في حرب مع المجتمع، مُكرَّس لحب عاطفي ومدفوع بمصير لا يرحم.